

سيرة الشيخ نور الدين

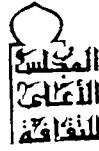
مكتبة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة



أحمد شمس الدين الحجاجي

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET



إبداعات التفرغ

[٧]

رواية

سيرة الشيخ نور الدين

أحمد شمس الدين حجاجي

أخذت ظلال الغسق تنتشر أضواءها حول مدينة الأقصر القديمة عندما تحرك الشيخ نور الدين من وقفته أمام مقبرة جديه أحمد ويونس، وكان قد انتهى من قراءة جزء كامل من القرآن الكريم ختمه بالفاتحة والدعاء إلى الله أن يجعل ثواب ما قرأ ربحاً طيبة ونوراً لساكني هذه المقبرة المهجورة وللمسلمين أجمعين والمنقطعين الذين لا زائر لهم.

كانت حركته وهو يغادر المقبرة بطيئة ثقيلة... أحنى ظهره المستقيم قليلاً ووضع يديه مطبقتين خلفه.

لقد قضى هذا اليوم حزيناً. فقد أعلنت مصلحة الآثار أنها ستهد الساحة وتزيل المقبرة القديمة غداً، بلغه الخبر بعد صلاة الظهر وهو جالس في الساحة مع أبناء عمومته، فنزل عليهم الخبر كالصاعقة. صرخ وحيد الحفنى أصغر الموجودين في الساحة، والذي يقوم على خدمتهم: - مش ممكن... مش معقول.

مع أنه لم يتعود أن يتكلم أمام أعمامه الكبار أو يرفع صوته في وجودهم. لم يجد وحيد الحفنى صدى لصرخته، فصمت في أسى يشارك الشيوخ صمتهم الحزين.

تنازعت الشيخ أفكار شتى... شعر بالعجز المطلق وقسوته تحرق قلبه. سمع دقاته سريعة قوية. وقف فجأة، ترك أهله دون أن يسلم وخرج من باب الساحة، نزل درجات السلم المرتفع ليصل إلى الطريق.

التفت إلى الساحة (بيت الضيوف) وتوقف. أمعن النظر إلى الباب والشبابيك والطلاء الأصفر على حيطانها، والخط الأبيض الذي يزين قمتها. هذا الطلاء حديث؛ فقد دهنوا الساحة منذ ثلاثة أشهر متصوريين أنها ستبقى إلى الأبد.

لقد وجدت الساحة مع وجود أسرته في مدينة الأقصر وهو يعرف أن جده

الثانى أحمد يونس أعاد بناءها كما أعاد بناء مئذنة جده الشيخ أبو الحجاج.

ورث جده الثانى أحمد يونس مشيخة أسرته عن أبيه الشيخ يونس الذى يقولون عنه إنه كان أحد ثلاثة رجال أقاموا حكومة عرفية فى إقليم كبير يمتد من حدود مديرية سوهاج إلى وادى حلفا. ولقد استطاعوا، بهذه الحكومة، أن يقيموا العدل ويمنعوا صراعات القبائل. لم يكن ليونس من الأبناء سوى أحمد، كان وحيداً ووريثه فى كل شىء؛ فقد نشأ قوياً كريماً سيّداً فى قومه، أعاد بناء الساحة واحتفظ لأسرته بالمجد الدينى فى منطقة عريضة من أرض الصعيد. وعندما أنجب أحمد ابناً أسماه يونس على اسم والده، شاركه فى قيادة الأسرة واستطاع الابن أن يحتفظ لقومه بأرضهم فى مشايخ عطية، شرق الأقصر القديمة، حين استولى محمد على باشا على أراضى الأهالى.

ترك ولاية محمد على باشا الأرض لقومه احتراماً لهم، فالأهالى يستمعون إلى كلماتهم، وهم لا يستخدمون نتاج هذه الأرض لأنفسهم فقط، وإنما يقدمون أكثرها للفقراء والمحتاجين.

لقد أكمل أحمد وأهله دور أجداده فى حماية أهالى المنطقة وحافظوا على السلام فيها، حتى اشتهرت بأنها لم تعرف حادثة نار واحدة فى تاريخها الطويل.

كان يسكن الأقصر القديمة عائلتان مسلمتان تربطهما روابط الصهر والدم والتراث القديم، وعائلة مسيحية، كانت لها عندهما ذمة وعهد، وصهر. شهدت الساحة أمجاد أسرة الشيخ نور الدين، كانت ملتقى الوافدين إلى الأقصر، يجد فيها الكبير والصغير الملجأ والمأوى... يروى الناس الكثير عن بركتها وعن حجرة الشيخ سلامة، جده السابع، التى قيل إنه ما دخلها صاحب حاجة واستجار به إلا أجاره وقضيت حاجته.

حجرة الشيخ سلامة لها مكانة خاصة فى نفس الشيخ نور الدين؛ يسكن فيها أربعون ولياً من مريديه وتلاميذه. لقد كان يقضى فيها فترة الظهيرة طوال أشهر الصيف من كل سنة، لا يشعر فيها بلسعة حر الأقصر. تهب عليها نسائم النيل وكأنها تُرسل خصباً إلى هذه الحجرة.

تحرك الشيخ مولياً ظهره للساحة وهو يسأل نفسه: أيترك مصلحة الآثار تهد الساحة؟ ألا يوقفهم؟ أهكذا بين يوم وليلة يفقد ساحته؟

تذكر جده أحمد وابنه يونس الذى أطلق عليه اسم يونس الصغير تفرقة بين الجد والحفيد. لقد قيل إنه كان يشبه والده تمامًا. ماتت أمه وتزوج مع أبيه فى ليلة واحدة. أنجب يونس الكبير ابنين هما أحمد ومصطفى كما تكاثر نسل أبيه فقد أنجب أربعة أبناء هم: يوسف الأكبر ومن بعده أبو شنب، ثم عبد الجليل وعبد الرحمن.

كان يونس الصغير يقوم برعاية أبنائه وإخوته بينما والده يقوم بواجب الرعاية والضيافة والحماية لأهل الله من زوار الساحة. كم حُلَّت فى الساحة من مشكلات، كانت كلمة الشيخ الكبير كما كانوا يطلقون على أحمد قانونًا لا يأخذ قوته من السيف وإنما من الحب والاحترام.

مات يونس الصغير قبل أبيه، لم ير الشيخ نور الدين جده ولكنه كان يحس به فى أعماقه. يتمثل صورة جسده القوى ويسمع صوته الجهورى الحازم دون أن يتبين وجهه... تمنى كثيرًا أن يعرف شكل وجه جده.

تولى رعاية ابنى يونس أخوه يوسف الذى لم يكن أحد يذكر اسمه إلا مسبقًا بالسيد، صحيح أن كل أبناء الأسرة يسبق اسمهم لقب السيد، ولكن إذا ذكر اللقب منفردًا فالكل يعرف أنه يوسف.

يقال عنه إنه كان قطب الأقطاب، ورث الولاية عن شيخه الشيخ أحمد أبو شرقاوى شيخ الصعيد المقيم بنجع حمادى.

ثروى عن السيد حكايات وحكايات عن سيادته للعالم الروحى، والشيخ نور الدين يذكر أنه ما إن كان يقترب من السيد حتى يشعر بأن تيارًا كهربائيًا يسرى فى جسده.

ارتفعت مكانة الساحة فى عهد السيد، فلم تعد مقصد الأهالى فقط؛ بل أخذ الحكام أيضًا يفدون إليها للتبرك بالسيد وبساحته. إنه يعلم جيدًا أن البركة لن تغيب عن الساحة أبدًا، ولكنهم يهدمونها. كيف يوقفهم؟ استعاذ بالله من العجز، وعاد يفكر فى الساحة.

تقف الساحة فوق مرتفع من الأرض يعلو المسلة المجاورة للمعبد. وبجوارها تمثالاً رمسيس لا يظهر منهما غير النصف العلوى من الجسد، بينما

تختفى بقية التمثالين تحت التراب، وعلى يسارها من الخلف تظهر البربة، أعلى مكان فى معبد الأقصر، وقد غطاها التراب حتى منتصفها.

جاء عمال الآثار وهدموا بيوتهم منذ ربع قرن، واستسلمت المدينة لقرار الحكومة؛ فأخذوا يبنون بيوتًا جديدة قريبًا من الساحة ومسجد الشيخ أبو الحجاج، وتصوروا أن الساحة ستبقى مع المسجد دون أن تمسها معاول الهدم، وقد طمأنهم رجال كبار فى الحكومة بأن أحدًا لن يمس الساحة. كان هؤلاء الرجال يفدون إليها للتبرك بها، غير أن الإشاعات أخذت تصل إلى سمعه بأن الحكومة تريد هدم الساحة والمسجد معًا، كلام ثقيل يصل إلى سمعه كالسهم يخترق طبلة الأذن ولا يفقدها السمع ولكنه يحرق الجلد. لماذا تهدم الحكومة الساحة والمسجد؟ إنهم يريدون المعبد... هناك مكان للمعبد والساحة والمسجد.

يقولون إنها أوامر الحكومة. لقد عاش عمرًا طويلًا لا يعرف معنى لكلمة حكومة غير مجموعة أوامر تؤذى ولا تفيد. لقد هدمت الحكومة بيوتهم أيام الإنجليز واستمرت فى الهدم بعد الاستقلال... والقصاص تروى أن الشيخ أبو الحجاج زار الملك فى منامه وهدده بضر فى ملكه إن هدم المسجد؛ فصدر أمر ملكى بوقف الأوامر الصادرة بالهدم... عاش أهالى الأقصر مطمئنين إلى أن الساحة لن تهدم فهى جزء من المسجد... ولكن موظفى الآثار جاءوا اليوم لهم بقرار الهدم. إنه يفكر جادًا فى أن يدخل مسجد جده ساعة الصلاة ويطلب من الأهالى مقاومة الحكومة.

وصل الشيخ إلى منزله ودخل حجرته، خلع جبته وارتمى على كنبه فى الحجرة... تلح عليه فكرة مقاومة الحكومة وترهقه. حاول أن يبعدها عن ذهنه حتى لا يدخل الأهالى فى مشاكل معها، وهى لا ترحم.

إنه يذكر كيف ثار على وضعه فى الساحة وهو فى الثامنة عشرة من عمره، لقد كانت حياته تسير على نمط واحد لا يتغير، يستيقظ مع الفجر ثم يعود مع العصر فيذهب إلى الساحة ليقوم على خدمة أهل الله من ضيوفها. يبقى فيها حتى يتناول الضيوف طعام العشاء ثم يعود إلى منزله. كان وجوده لخدمة الساحة اختيارًا من أهله. فقد ذهب من هم فى سنه من أبناء عم أبيه - وهو يطلق عليهم الأعمام - وأبناء أعمامه إلى الأزهر. وجد نفسه وحيدًا يقوم بعمل لا يحبه ولا

يرى فيه مستقبله، طلب من والده أن يرسله إلى الأزهر، فلم يستمع إليه فهو وحيد ولا يريد أن يفارقه، ولما لم يفلح إلحاحه على والده بالسفر قرر أن يقوم بالرحلة إلى القاهرة ليتعلم فى الأزهر.

الطريق إلى القاهرة طويل والقطار لا يقف فى مدينة الأقصر؛ إذ لم تمتد خطوط السكة الحديدية إليها، وعليه أن يسافر إلى نجع حمادى ليركب القطار إلى القاهرة وليس هناك سوى وسيلتين من وسائل المواصلات، أن يسافر على ظهر زورق من الزوارق التى تنقل المسافرين إلى نجع حمادى أو على ظهر حمار فاختر حماره. لم يكن الأمر يحتاج إلى تدبير كبير فقد جمع حاجياته بعد الفجر ووضعها فى خُرْج ألقاه على ظهر حماره ثم اتجه إلى نجع مشايخ عطية، لم يقم بعمل شىء غير النظر المتأمل إلى حقله الذى ستركه؛ ألقى نظرة وداع إليه.

وحين قرر أن يركب حماره بادئاً رحلته، كان ابن عمه محمد قد جاء ليتحدث معه، فأخبره بقراره. أخذ وقتاً طويلاً فى مناقشة لم يفلح فيها محمد فى إقناعه بالإقلاع عن عزمه، وتركه على وعد ألا يبلغ أهله بوجهته إلا بعد غروب الشمس حتى يكون بعيداً عنهم. كانت الشمس قد توسطت السماء حين انطلق به الحمار نحو نجع حمادى، الشمس حارقة. إنه يذكر أن شيئاً لم يكن ليثنيه عن عزمه فى أن يقوم برحلته... مرت ساعات طويلة عليه وهو فوق حماره، شعر فيها أنه ذاهب ليفتح مدينة العلم إلا إنه كان كلما ابتعد عن الأقصر امتزج بهذا الإحساس أحاسيس أخرى: الحقل... الساحة... أبوه... أمه... الشيخ الطيب... أهل الله.

حاول أن يبعد هذه المشاعر عن التأثير فى نفسه، فتذكر أنه يحقق بهذا العمل نفسه ووجوده.

لن يبقى فى الساحة خادماً لها طيلة عمره، لقد حفظ القرآن الكريم صغيراً، وقرأ الكتب القديمة فى التفسير والحديث. يريد أن يفتح آفاقاً جديدة والأزهر هو مكانه الوحيد. تذكر والديه وحزنهما عليه وخوفه من غضبهما؛ فغضب الوالدين شىء لا يحتمله نور الدين فلا قيمة للعلم دون إرضاء الوالدين. طمأن نفسه بأنهما لن يغضبا عندما يريانه عائداً من الأزهر عالماً كبيراً، فأهله يقدسون الأزهر. هدأ نفسه بأن والده سيغفر له... لم يهدأ فقد أدرك أنه يغالط نفسه فأهله لابد

غاضبون عليه... أدار لجام حماره ليعود إلى الأقصر، ولكن نفسه لم تطاوعه فأدار اللجام ثانية ومضى فى طريقه.

تذكر الساحة قآلمه أن يفارقها، أدرك أن مشاعره بتركها ليست صادقة... تذكر الأزهر فضرب بطن حماره بقدمه. هناك شىء قوى يشده إليه.

وصل إلى قفط. وقف ليطعم حماره. ذهب إلى ساحة بيت الشيخ، إحدى أسر القرية التى تنتمى إلى عائلته، وصل إلى باب الساحة واستحى أن يدخلها. ماذا يقول لهم؟ شد لجام حماره ثم أوقفه بعيداً عن الساحة حتى أطعمه... أخذه إلى سرعة قريبة ليشرب منها ثم ركبه واستمر فى المسير حتى وصل إلى قنا. سمع صوت أذان العشاء. توقف ليسأل عن مسجد سيدى عبد الرحيم القنائى. ليس من المعقول أن يمر على قنا دون أن يزور مقام السيد القنائى... توجه إلى المسجد. ربط حماره فى الخارج وزار مقام السيد، ودعا الله ألا يغضب منه والده. خرج بعد الصلاة، دخل مطعمًا صغيرًا يقدم الفول والطعمية، أكل حتى شبع... إنه يذكر أنه أكل كثيرًا هذه الليلة.

عاد إلى حماره ليركبه، واتجه به إلى قرية الدير قرب نجع حمادى، فهو يريد أن يصلى الفجر فى ساحة الشيخ أحمد أبو شرقاوى ويترك حماره هناك وهو يعلم أن أهل الشيخ سيدبرون وسيلة لإرسال الحمار إلى الأقصر أو تركه حتى يأتى أحد من أهله لزيارة أهل الشيخ. إنه يريد أن يصل إلى نجع حمادى قبل الساعة السابعة والنصف صباحًا موعد قيام القطار إلى القاهرة.

لكز بطن حماره بقدمه... تذكر أن الطريق موحش بين قنا ونجع حمادى. ستقابله دشنا والصمطة، والصراع قوى بين قبائل الهوارة والعرب هناك. إنهم يقولون: مستحيل على الغرب أن يمر ليلاً فى هذه المنطقة. ولكنه مطمئن، إن أى إنسان لو عرف من عائلته سيتركه لحال سبيله.

دخلت قلبه الطمأنينة والحمار يجرى به فى الطريق. أصوات كلاب تنبح... أشباح تتحرك من بعيد. أشباح تقترب. الخوف لعنة الله عليه. حاول أن يزيل الخوف بقراءة سورة ياسين وجزء عم حتى هدا.

عرف أنه اقترب من نجع حمادى عندما شاهد الوادى يضيق فقد أصبح

الجبل على بعد خطوات منه، ليس بينه وبين النيل بعد يذكر. حجارة الجبل الجيرية البيضاء يختلط لونها بسواد الليل فتبدو داكنة. أشرق القمر فارتاح لضوئه، وانعكاساته على النيل. خفت حركة الحمار، شعر بالتعب. أوقف حماره، ونزل به إلى الشط.

نقيق الضفادع يريحه. قفزت ضفدعة إلى الماء، أحدثت صوتًا... تحركت موجات الماء... حركة سمكة كبيرة تضرب الماء بذيلها... رفع البردعة عن ظهر حماره وساقه إلى ماء النيل، خلع ملابسه، وأخذ يدعك ظهر حماره بالماء محاولاً أن يزيل عنه آثار العرق... شعر بأن الحمار قد أصابه الانتعاش... تركه على الشط يأكل أوراق الغاب والحلفا ورمى بنفسه في النهر، أخذ في العوم ثم غطس، لم يبتعد كثيراً ثم عاد إلى الشط... لبس سرواله... ثم أحنى ظهره ليلتقط لباسه، وما إن رفع رأسه حتى وجد نفسه أمام رجلين يصوب أحدهما بندقيته أمام وجهه، والآخر يرفع شومته. نظر إليهما في حيرة دون أن ينطق بشيء. أدرك أنه هالك. آه... غضب الوالدين... ترك الساحة دون مبرر... والآن يواجه الموت دون أن يسأل عن هو.

رفع الرجل الممسك ببندقيته صوته:

- طلع اللي معاك...

- آدى هدمى... فى الصديرى جنيه دهب.

بدا نور الدين لهما مستسلماً، حمل صاحب البندقية الهدوم، استرخى قليلاً. أخذ يفتش فى الملابس عن الجنيه الذهب. اقترب منه حامل الشومة. وإذا بنور الدين يقفز سريعاً ليخطف الشومة من يده، ويتابع حركته بضرب صاحب البندقية على يده فتسقط البندقية على الأرض يلتقطها، يحملها بيده اليسرى ويلقيها بعيداً فى النيل، ويوجه ضرباته بالشومة إلى ساقى الرجلين وقد تعالت صرخاتهما. أبناء الأبالسة لا يعرفون أنه من أحسن لاعبى التحطيب فى مدينته. رفع الشومة ليضرب فى الرأس. صرخ أحد الرجلين:

- فى عرضك.

- يا كلاب لما انتو مش قد الضرب بتعتدوا ع الناس ليه.

حمل أحدهما وألقاه فى النيل وسحب الثانى إلى جوار صاحبه.

- اسمعوا يا أولاد الأبالسة لو حد منكم مشى ورايا محدش حيعرف له مكان.

سحب حماره إلى الطريق. أخذ ملابسه فى يده، سمع أصوات نباح لم يأبه لها. ركب الحمار وصدره عار، وقبل أن يلكز الحمار بقدمه كان الحمار يعدو بصورة لم يعهدها، وكأنه فرس دياب ابن غانم يسير نحو تونس المرية.

سمع صوت طلقة نارية فى اتجاهه، ولكنه كان بعيداً عن مصدر الطلقة النارية. أخذ فى لبس ملابسه والحمار لم يتوقف عن العدو. لم يجد طاقيته فلف عمامته حول رأسه بطريقة تخفى عدم وجود الطاقية؛ فعمامته خمسة عشر متراً من الشاش. شعر بالطمأنينة. ولكن صوت ذئب قريب يرن فى أذنه يتبعه صوت آخر. الصوت يدل على أن الذئب جائع.

لم يلق بالآ إليه فمواجهة الذئب أهون من مواجهة بنى آدم. الوقت يمر ببطء ويبدو أن الليل لن ينتهى وأن بينه وبين المعديّة زمناً طويلاً.

صوت الذئب يقترب... يرتد صداه من الجبل الواقف بجواره فيشعر أنه يسير فى عالم الجن. استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ومن كل مارد لنيم.

وصل مبكراً إلى المعديّة. نزل الحمار إلى الشط، وجد المراكب واقفة. ليست هناك مركب مستعدة للرحيل.

رفع صوته:

- فيه مركب حتعدى دلوقت ياريس؟

رد عليه صوت نائم:

- لأ مفيش...

- أنا جاي من نقصر أبو الحجاج وعاوز أروح بيت الشيخ أحمد أبو شرقاوى.

ارتفع صوت:

- مدد يا أبو الحجاج... مدد يا أبو شرقاوى.

ثم رأى شبحاً يتحرك نحوه:

- منقدرش نقول لأ... وحدك ولا معاك حد.

- معاى حمارى...

- قَرَّبِ الحمار م المعديّة.

سحب الحمار نحو المركب... مال الزورق جهة المراكبى إلى المكان الذى يضع فيه الحمار... غيّر مكان الحمار.

القمر يغيب، عمره قصير فى أخريات الشهر العربى. ساد الظلام الأفق... يخفف حدته ضوء النجوم الباهت على صفحة الماء. شعر برغبة فى النعاس قبل أن تغفل عيناه سمع صوت المراكبى:
- خلاص وصلنا.

نزل بحماره إلى الشط. أخرج من جيبه ثلاثة مليمات ليعطيها للمراكبى.
رفض الرجل:

- لو تدينى جنيه ذهب مش حاخده... أنا لا يمكن أقوم لحد فى الوقت ده.
دى بركة... شى لله يا أبو الحجاج... شى لله يابو شرقاوى مدد...
ينفعنا ببركاتهم.
- ربنا يكرمك... السلام عليكم.

ركب حماره وانطلق إلى قرية الدير، وحين اقترب منها كان واضحاً أن الفجر قد اقترب؛ فقد أخذ الظلام ينكسر. سار بحماره ببطء حتى جاور ساحة الشيخ أحمد أبو شرقاوى. فكر أن يتوقف قليلاً أمام البيت قبل أن يطرقه؛ فهو لا يريد أن يوقظ أحداً غير أنه وجد حميراً تسير فى اتجاه الساحة، أدرك أنه لن يكون بمفرده، فالتاس قادمون لصلاة الفجر.

دخل الساحة فوجد الشيخ أبو الوفا بن الشيخ أحمد أبو شرقاوى جالساً يقرأ ورّده. نظر إليه الشيخ وابتسم:
- مين... أبو البركات نور الدين! ازيك... وازاى الأهل...

لم يسأله الشيخ ما الذى أتى به فى هذا الوقت من الليل. فلا بد أن وراء هذا الفتى الذى يحبه الشيخ أمراً، سيعرفه حتماً.

انتهت صلاة الصبح... وجد نفسه عاجزاً عن أن يخبر الشيخ برغبته فى الوصول إلى نجع حمادى ليركب القطار. فقد أعد الإفطار ولا بد أن يتناوله. أجلسه الشيخ بجواره. مد يده إلى الطعام صامتاً. ثم خطر له أن يحدث الشيخ، فقال بفخر:

- أنا مسافر أدرس فى الأزهر.
- ما شاء الله... ما شاء الله.
- ولازم أركب قطر الساعة سبعة ونص من نجع حمادى.
- مفيش لزوم للعجلة يابنى... انت مش رايح امتحان... حتستريح دلوقت ونتكلم بعدين.
- نادى الشيخ على أحد أبناء عمه وطلب إليه أن يأخذ نور الدين إلى بيته لينام هناك فهو متعب، والساحة ستكون الآن خلية مملوءة بالحركة.

لم يشعر برغبة فى معارضة الشيخ فقد استراح لأوامره. إنه ما زال قلقاً يريد أن يذهب إلى القاهرة كما يريد أن يعود إلى أمه وأبيه. ما رآه اليوم يؤكد له أنه أخطأ فى إغضاب والديه... يذكر الآن أنه نام كما لم ينم فى حياته فقد شعر برغبة فى أن يفقد وعيه ولا يفيق إلا وقوة كونية تتخذ له قراره وتوجهه دون أن يغضب والديه ويفقد الساحة أو يفقد الأزهر.

استيقظ على صوت صاحب الدار قبيل غروب الشمس، يوقظه ويدعوه للقيام لملاقاة عمه الشيخ أحمد أبو الدقون وهم يسمونه بأبو الدقون؛ لأنه لم يخلق لحيته منذ أن نبت شعر ذقنه... وهب حياته للعلم والدين... وعاش مع أخيه مصطفى فى بيت واحد لم يفترقا. تزوج أمانة التى كان يسميها الشريفة فهى ابنة الشيخ محمد عبد الرحيم أبو الشيخ قاضى قضاة السودان، وزوج أخاه لأختها الشريفة خضرة فوثق ذلك من أواصر الود بين الأخوين.

* * *

علم الشيخ أحمد بسفر ابن أخيه من صراخ زوجته حين علمت بسفره من ابنها محمد... تبعت صرختها صرخة أختها... بهت الأب وتألّم فهو لم يتصور أن يصنع ابنه نور الدين ذلك.

كان الشيخ أحمد حكيمًا فقد أسكت زوجته وأختها، ونهرهما فصمتتا على مضمض... نظر إلى أخيه مصطفى وقال له:

- متزعزعى... نور الدين حيمر ع الدير والشيخ أبو الوفا أبو شرقاوى مش حيسيبه يسافر لوحده... ولدك حيرجع لك.

طلب ركوبته أن تعد، وبعد صلاة الفجر انطلق نحو قرية الدير، وصلها قبيل غروب الشمس.

قام نور الدين وقبل يدى عمه الشيخ أحمد وهو خجل منه، قال له عمه بهدوء:

- طالب العلم لا يهرب... ستذهب إلى القاهرة يا نور الدين وستتعلم وستكون عظيمًا يا أبا البركات.

قضى الليلة فى ذكر مع الشيخ أبو الوفا، وناما قبل الفجر ليستيقظا للصلاة... وبعد الصلاة طلب الشيخ أحمد الرحيل، سألته الشيخ أبو الوفا أن يبقى معهم بعض الوقت فرد عليه:

- سأعود بعد أن يصل طالب العلم الهارب إلى أهله.

أراد الشيخ أبو الوفا أن يعطيهم زادًا، ولكن الشيخ أحمد اعتذر فهما سيمران على أهل القرية وهما متجهان إلى الأقصر.

* * *

قضى نور الدين وعمه أسبوعين فى الطريق قبل أن يصلا إلى الأقصر، فقد أخذ الشيخ يمر على أهله ومريديه يُعرِّفُ ابن أخيه بعالمهم الذى كان يحس به ولكنه لم يعرفه المعرفة الكافية. إنه يذكر أنه كان سعيدًا فى رحلته مع عمه فقد فتحت له آفاقا من الوعى سمع عنها ولكنه لم يكن يعيها بهذه الصورة الحية. ومع ذلك كان قلقًا، يريد أن يصل إلى الأقصر ليستعد لرحلته إلى القاهرة محملاً بدعاء والديه، وحين وصل إليها كان صوت المؤذن يرتفع من مئذنة الشيخ أبو الحجاج معلنًا صلاة الظهر.

لم يذهب إلى منزله بل اتجه إلى المسجد، ثم خرج منه إلى بيته وقبل يد

والدته فاحتضنته وقد انهمرت الدموع من عينيها:

- كده تهرب وتسيبني يا نور الدين.

لم يعرف كيف يوضح لوالدته موقفه. كل ما تعرفه أمه أنه هرب، ولم يناقشها فهو لم يتعود مناقشتها.

- معلش يا أمه كله بأمر الله.

استدار ليخرج، حاولت أمه أن تبقى.

- لازم أروح الساحة يا أمه.

ذهب إلى الساحة، لم يجد والده. قام بخدمة أهل الله كالعادة. قدم لهم الطعام. أخذ يستفسر عما يحتاجون إليه ليحضره. وحين انتهى القوم من الغداء خرج ليقف أمام الساحة؛ فالיום هو بداية مولد الشيخ أبو الحجاج... المزمار البلدي... المرماح قد نصب... الخيل تجرى في الميدان.

ذهب إلى منزله... وجد والده نائمًا نومة القيلولة، قبل قدمه محاذراً أن يوقظه. دخل الحوش فأخذ الفرس يسهل ويحرك أقدامه في رقصة فرح، وبدأت الناقة تتمطى استعداداً للوقوف. وما إن ارتفعت بها قدمها الأماميتان حتى أخذت في الرغاء بينما تمدد الحمار على الأرض ولم يحرك ساكناً، لقد كان مجهداً من رحلته مع نور الدين.

نظف حصانه وأسرجه وأمسك بعصا طويلة. أخرجه من الحوش. وركبه منطلقاً إلى الميدان يسابق الفرسان ويلاعبهم بالعصا من فوق حصانه. ازداد حماس الجمهور حين رأوا نور الدين ممطياً فرسه.

لقد ربي الفرس بنفسه، اشتراه عمه في نفس اليوم الذي اشترى فيه والده حماراً وناقة... الحصان والحمار والناقة ملكية خاصة لأبيه وعمه وأبنائهما إلا أنه يحس بشعور خاص نحو الفرس، فهي له وإن كانت ملكية مشاعة.

لم يتعود شباب الحجاجية أن يقوموا بلعبة المرماح، فهم يرونها للعامة من الناس وليست لعبة تجاز لرجال الدين. شذ عنهم واقتحم لعبة المرماح وعمره أربعة عشر عاماً. كان يشعر بالتفوق وهو يسبق رجال البيوتات الكبيرة بحصانه ويهزمهم بعصاه الطويلة كحربة الزناتي خليفة.

شعور جميل ينتابه وهو يحرك الزانة ويلوى لجام فرسه الذى يطيعه.
وكانما يقرأ ما يدور بذهنه.

لاعب لساعات طويلة أكثر من شخص... اقترب منه الحاج محمد عبد الله
أبو العوض المشهور بقتله لملتزم الكرنك التركى وقال له:
- أنت بتغلب بالبركة يا شريف... كفاياك كده انهارده.

عاد بفرسه إلى المنزل، وجد والده وعمه جالسين على دكة أمام البيت. نزل
من على الفرس... سلم على والده وانحنى يقبل يده، ثم تركه ليعود بالحصان إلى
الحوش.

قفل باب الحظيرة. خطا خطوات نحو والده الشيخ مصطفى. ظل واقفا دون
أن يأذن له بالجلوس. لم يكلمه فى شىء، صلب الإذن فى الذهاب إلى الساحة.
ابتعد خطوات. ناداه والده... يا نور الدين استعد للسفر، حتماسا بعد أسبوع
لمصر...

* * *

ضاق الشيخ نور الدين بذكرياته فاعتدل من نومه، وقام ولبس الجبة
ومضى نحو الساحة، تركها وذهب إلى الجبانة. لقد قضى اليوم بين الساحة
والجبانة والمنزل جينة وذهاباً لا يدرى ما يصنع؟ الثورة على الحكومة بمن؟

شباب أسرته انفصل تماماً عن شيوخها، لقد أنشأ جمعية أسماها جمعية
الشباب الحجاجى تهاجم الشيوخ فهم فى نظرها سر تدهور الأسرة؛ إنهم يبحثون
عن مستقبل اقتصادى، بعيداً عن الشيوخ السليبيين الذين لم يخلفوا لهم ثروة.

شباب الشقيرات انفصل عن أهله وانفصل عن الحجاجية وأصبحت
الجمعيتان تتنازعان بلا مبرر. إنهم لا يعرفون تاريخهم.

شباب الأقباط يدخل طرقات صراع الشباب.

وصل إلى السوق بنفس المشية الهادئة حين صدرت منه زفرة ضيق لم
يتعودها فى نفسه، فهمس فى سره «آه يا نور الدين الدنيا تغيرت»، وما إن انتهى
من همسه حتى سمع الشاويش خليفة يناديه:

- يا شيخ نور الدين... يا شيخ نور الدين.
- أهلاً خليفة... إحنا قربنا ع البيت... تعال اشرب شاي. وسارا معاً فى صمت مخترقين القيسارية حتى وصلا إلى المنزل.

- الأولاد حاضرين اليوم.

استطاع الشاويش خليفة أن يقطع الصمت بينه وبين الشيخ بهذه العبارة.

لم يرسل ابنه محمود بموعد حضوره. وهو لم يعود على ذلك؛ فهو رجل يستطيع أن يحضر فى أى وقت. وإن كان يعلم أنه سيحضر اليوم، فهو يعرفه جيداً؛ ما إن ينتهى من امتحانه حتى يهرب من القاهرة إلى الأقصر. ترى ماذا سيحدث له عندما يعلم أن الحكومة قد قررت هدم الساحة؟ فابنه لا يتق فى الحكومة مثله تماماً. إنها مخلوق بشع، مجهول، غير واضح الهوية.

لم ينقطع الصمت بينهما والشيخ نور الدين لا يريد أن يقطع هذا الصمت، فهو يعلم أن خليفة مثقل بكلام كثير والشيخ يتمنى أن يوفر له عناء الحديث، فابنه حسن يريد أن يتزوج ليلى بنت عمران أبو السعود شيخ الشقيرات الذى رفض فكرة زواج ابنته من أساسها لحسن. فهو فى نظره ابن رجل غريب عن البلدة، لا يعرف أصله كما أنه يعمل فى البوليس، وانعدام الثقة بين الأهالى ورجال البوليس ليس وليد اليوم فهو تاريخ طويل، ولهم فى ذلك مثل شائع «لو كان صباغك شاويش اقطعه». لكن الرجل طيب القلب عاش أكثر من ثلاثين عاماً فى المدينة، كان مثلاً للخلق الحسن. ربى ابنه تربية طيبة، وأرسله إلى كلية العلوم... الشيخ يحب هذا الفتى ويسعد عندما يراه مع ابنه وهو يعرف أن حسن التقى بليلى بنت عمران فى الكلية. كانت من أوائل الفتيات اللاتى التحقن من الأقصر بالجامعة. ويبدو أنهما تواادا، لا يتصور الشيخ نور الدين أن يكون بينهما أكثر من الود. لا يريد الشيخ أن يشق عليه فى حديث مؤلم. فخليفة سيحاول الدفاع عن نفسه بأنه واحد من أهالى البلدة، خدمها وأحبها حتى إنه بعد أن أحيل إلى التقاعد قرر أن يبقى فيها، وأن يدفن جسده فى أرضها مع أهلها. وما عيبه؟ وعيب ابنه حتى يرفضه عمران ويحرم ابنه من إنسانة يعزها؟

نفذ صبر خليفة فخرجت الكلمات قلقة متوترة:

- حسن تاعبنى يا سيدنا الشيخ.

أجابه الشيخ باقتضاب:

- حسن إنسان كويس. مفيش تعب إن شاء الله.

- أصله عاوز يخطب بنت عمران وهو مش راضى. ليه مش راضى... أنا مش عارف...

أوقفه الشيخ:

- لا أبدا... يرضى... مفيش مشكلة... بكره نقرأ الفاتحة إن شاء الله... بس هدى نفسك.

وقف خليفة وقد أمسك بيد الشيخ وقبلها:

- ربنا يخليك لينا دايماً بركة.

خرج دون أن يشرب الشاي ودون أن يلح عليه الشيخ ليبقى؛ فقد كان فى حاجة إلى أن يخلو لنفسه.

ولكن أحداً لم يترك الشيخ لنفسه. فقد سمع أصوات صراخ خارج المنزل تتبعها طرق على بابه... كانوا خمسة رجال وامرأتين، إنه يعرف الآن المشكلة، ولن تستغرق معه وقتاً لحلها، فهم بالتأكيد قادمون للطلاق فهو ماذون المدينة.

رفع أحد الرجال صوته:

- عاوزين نطلق يا سيدنا الشيخ.

- طلاق فى عينك انت وهو... تطلقوا إيه... انتو عارفين بتعملوا إيه يا عجر.

- يا سيدنا الشيخ انت عارف بنت الـ... تعبانى.

- امش اخرج يا مجرم انت تتعب بلد.

لقى الشيخ نظرة على الفتاة الباكية وقد تورمت عيناها من ضرب زوجها:

- اسمعى يا بنتى لما يحب يطلقك متجيش معاه، سيبه يطلقك غياى، متضيعيش حقوقك وحقوق أولادك.

- يا سيدنا الشيخ تاعبنى... أنا تعبانة منه، مجرسنى، ومبهدلنى ومفرج على الناس... دى مش عيشة.

- اصبرى يا بنتى بكره يعقل... وروحى دلوقت.

عاد الشيخ ببصره إلى الرجل وصرخ فيه:

- تأدب مع مراتك... احترمها يا أخى... دى أم عيالك وامش دلوقتى من قدامى وإذا شفتك تانى هنا حيكون يومك يوم.

حاول الرجل أن يتكلم، خرجت كلماته مبهمّة كأنما يتهمته بأصوات غير ذات معنى، وقام الشيخ ليفتح الباب ليخرجهم من المنزل وحين خرج الرجل رفع صوته:

- طب أنا حشتك يا شيخ نور الدين، بقى انت مش عاوز تطلق... بيمين ثلاثة حشتك... تكون مراتى حرمانّة على لمشتك.

ابتسم الشيخ فالرجل لم يتوقف عن القسم بالطلاق وهو مقرر طلاق زوجته. لو ترك هؤلاء الناس للحظات غضبهم لطلق نصف المدينة. إنهم دائماً يغضبون منه، وقد يسمع منهم اتهاماً بالظلم والتحيز فهو غالباً ما كان يأخذ صف المرأة ولكنهم كثيراً ما كانوا يعودون إليه معتذرين.

اعتدل الشيخ فى جلسته، إنه ما زال يفكر فى الثورة على الذين يحدون من حريتهم كبشر... إنها مغامرة غير مأمونة، أصابه الضيق، تذكر نصيحة قديمة لشيخه الطيب: «لم يئن الأوان بعد يا نور الدين... لم يئن الأوان بعد... لا تقحم أحبابك فيما لا يعرفون واصبر...».

نعم، الصبر. عندما خرجت كلمة الصبر من فمه كان ذلك يعنى استسلاماً منه لمصير الساحة. تمت: «سلمت أمرى إليك يا الله».

نادى الشيخ ابنته منيرة لتفرش له المصلى فقد حان موعد صلاة العشاء، وقف أمام القبلة ناوياً الصلاة معظياً ذاته كلها لله ناسياً هذا الوجود.

وصل قطار السريع القادم من القاهرة إلى سوهاج، وأخذ الزحام ينفك وبدأت شلة محمود تشتم أنفاسها، كانوا ستة رجال وثلاث بنات انتهوا من دراستهم وحددوا موعد سفرهم في قطار الساعة الثانية عشرة. كان موعد تجمعهم محطة باب الحديد في الساعة الحادية عشرة على أن يسبقهم حسن ليقطع لهم التذاكر في الساعة العاشرة. وحين تجمعوا في الساعة الحادية عشرة على رصيف القطار في محطة مصر لم يكن حسن قد وصل، فذهب محمود إلى شبك التذاكر ليعرف علة تأخره فوجده في آخر صف متعرج بينه وبين عامل التذاكر على الأقل ساعتان.

- إيه اللي حصل. نسيبك ساعة ولسه برضه في الآخر.
- كل ما تقدم خطوة الناس ترجعني خطوتين أعمل إيه؟
- على كده، القطر حيفوتنا... تعال معايا.
- لفين؟
- بس تعال.

أمسكه من يده وعاد إلى صاحبه. وخرجت منهم في وقت واحد صيحة:

- فين التذاكر.

رد عليهم محمود:

- جاعتنى فكرة: تريزا تيجى معايا وتقف في صف الستات درجة تالتة وتقطع لنا تذاكر... وليلى تروح في صف الستات درجة تانية... وعلى وأبو العلا وحسيب يروحوا يركبوا القطر في أوله... وحسن وصليب يلقوا مع العفش هنا.

ضاق على بمحمود:

- أروح فين يا عم... ده القطر واقف بعيد حوالى كيلو من هنا.

- ما هو يا تتمشى يا حتقف لحد لقصر طاوعنى أحسن لك.

لم يهتم بسماع إجابته ومضى مع تريزا وليلى إلى شباك التذاكر مرخياً عينيه محاذراً أن يسقطهما على وجه تريزا. اسم تريزا وحده يثيره فهو يذكره بالحكاية الشائعة عن جده الكبير الشيخ أبو الحجاج الذى تزوج من فتاة اسمها تريزا القبطية. كثيراً ما كان يعتز بأنها جدته وأن فى دمه امتزج الدم العربى والمصرى القديم امتزاجاً لا يعرف التحلل، وتريزا هذه تهز الماضى كله، وتعمق فيه الامتزاج بالأصول الأولى. لم يعرف فتاة فى جمالها ولا خلقها، صامته حتى تُسأل وحين تتكلم تخرج الحكمة من فمها. لم يشعر بين فتيات الجامعة أن هناك فتاة تشده إليها مثلما تفعل تريزا. إنه يعرف أنها تكن له نفس المشاعر... الود والاحترام... ويعرف أيضاً أن الدين يقف حاجزاً كبيراً بينهما فما أتيح لجده لن يُتاح له. ولقد وقف هذا الحاجز بينهما يمنع من تطور العلاقة نحو أى شكل شرعى.

كان يحس بأنه مشدود إليها منذ أن رآها أول مرة وهو يلتحق بمدرسة الأقصر الثانوية قبل أن يشعر جسده بالحنين نحو المرأة. كانت تسكن بجوار صليب صديقه. يدخل الشارع فينادى على صليب إذا لم تكن مطلة من شرفة منزلها أو واقفة أمام باب بيتها يخرج نداؤه قوياً، وإذا وجدها أطل النظر إليها فيخرج نداؤه لصليب ضعيفاً مبوحاً... الشيء الذى أدهشه ملاحظته أنه ما إن ينادى على صليب حتى تطل من شرفتها، والغريب أن أحداً لم يلاحظ شيئاً. وحين السّحق بكلية الآداب قسم اللغة العربية التحقت بنفس الكلية فى قسم التاريخ فكانا كثيراً ما يلتقيان، يبادئها بالتحية مرة وتبادؤه أخرى، غير أن حواراً لم يدر بينهما، وحتى التحية لم تزد على هز الرأس، تسبقها أو تتبّعها ابتسامة. كان يسأل نفسه هل هو الجبن الذى يمنعه من الحديث معها؟ كان يبعد هذا التصور بأنها المسئولية فهي ليست له.

ضاق ذرعاً بهذا الإحساس المتوقف عند نقطة لا يتعداها، فأخذ يتحاشى لقاءها ومن ثم تحيتها... ثم التقى بإلهام من نفس قسمها فى إحدى حفلات الكلية... نظر إليها فبادلته النظرة... كانت جريئة... نظرتها تشجعه... تدعوه إلى الحركة... اقترب منها واقتربت منه... حادثها... اخترع كلاماً... تواعد معها على اللقاء... صعيدى لا يفرق بين هزة الإعجاب وهزة الحب... اهتز كيانه حباً. كتب شعراً عن الحب والحزن والحرمان والألم.

كانت إلهام أرستقراطية تجيد وضع المساحيق على وجهها ورسم عينيها بالكحل الأسود... شدة التناقض بين واقعها وكلامها فهي تتحدث عن الطبقات الكادحة وتحريرها... تناقش في السياسة والاجتماع والاقتصاد، شيء لم يعرفه عن فتيات بلده حتى تريزا نفسها لا تقارن بها. الوجه الأبيض التركي ألغى الوجه الأسمر المصرى، اختفت تريزا لتحل محلها إلهام. نضارة الحضارة قادرة دائماً على إزاحة التخلف بعيداً. وهى فتاة ربيت فى جو أرستقراطى لا علاقة له بعالم تريزا. لم يشعر بأى صراع فى داخله وهو يتوقف عن كل شيء. لقد شدته حتى لم يعد قادراً على التركيز فى قراءته، حتى أصدقاؤه لم يجد متعة فى صحبتهم... لقد ملكت عليه نفسه.

- دخل الكلية وهو تائه ينظر حوالیه ليجد فتاته فإذا بتريزا تناديه:
- محمود... محمود... نظر إليها فبهت أن تكون تريزا هى المنادية.
 - أهلاً تريزا.
 - أنا عوزاك.

جراً لم يعدها فى تريزا. سار معها خلف مكتبة كلية الآداب، إنه يعلم أنه الشاب الوحيد الذى خرج معها من باب الكلية. إنه خائف أن يراه أى واحد من شباب الأقصر فإنها ستكون نهاية تريزا... وهو يريد أن يتكلم لينهى الحوار وتريزا تنتزع الكلمات انتزاعاً فلا تخرج.

- أيوه يا تريزا...

صمت تريزا وأخيراً نطقت:

- انت بتحب.

نظر إليها محمود نظرة صارمة فإذا بها تنظر إليه بنفس الصرامة:

- ميصحش تحب البنبت دى... انت أخويا وأمرک يهنى.

هل صحيح أنه أخوها؟... هل بدأت تريزا تغار؟... لقد كان يحبها ولكنه لا يعرفها... لم تتركه تريزا لأفكاره، وانطلقت تلقى بكلماتها بسرعة وكأنها تخشى ألا يكون هناك وقت لإنهاء حديثها.

- متسرحشى كتير... انت عارف إن أخويا بيشتغل فى وزارة الثقافة وهو عارف أبوها... أصله موظف كبير هناك. هيه جات زارتنى وأخويا قال

كلام كثير عن أبوها... أنانى ويحب مصلحته ويلاعب مع السلطة وعنده استعداد يضحي بأى شخص فى سبيل مصلحته راجل معندوش دين لا بيصلى ولا بيصوم وسكرى معندوش مانع يجيب عشيقاته فى البيت قدام بناته... ودى بنته وأنا عرفتها تأيرة على أبوها لكن كلها إعجاب بيه وحديثها عن الجماهير والكادحين حديث بيعجبها ويضايق أبوها فبتتمادى فيه وهيه متهايا لى عاملة معاك علاقة لأنك شىء مختلف بتتفرج على قدراتها فيك. إنت مش بس صعيدى إنت من عيلة بتمثل كل اللى الصعيد عايش فيه. أنا قلت لك وانت حر. جاوز أنا غلطانة... ماليش حق أكلّمك فى الموضوع ده... لكن أنا خايفة عليك... خايفة عليك منها يا محمود تجرحك.

اهتز محمود مع كل كلماتها. كان يريد أن يصرخ فى وجهها أن تتركه فهذا كلام سخيف... كيف سمحت لنفسها أن تقول هذا الكلام! من أعطاهها هذا الحق؟ ولكن شيئاً ما أخرسه، لم يستطع حتى أن يقاطعها أو يستفسر عما تقول، فهذا مجرد كلام لا دليل عليه. كانت تتكلم فى عصبية وانفعال شديد حتى إنه لم يعد قادراً على النظر إلى وجهها الملتهب الذى تحول من تريزا الشابة إلى تريزا الأم التى تريد أن تعلم وليدها. وبعد أن ختمت كلماتها نظر إليها فإذا وجهها قد عاد إلى هدوئه. حركت عينيها بحركة هادئة وتمتمت بصوت هامس:
- أنا آسفة.

وتركنه ومضت.

لم ينم ليلتها، لم يفكر فى دوافع تريزا فى هذا الكلام؛ فإحساسه كبير بأن تريزا صادقة فى كل كلمة تقولها وأنه أخذ يكتشف هذه الحقيقة ويعجز عن الاعتراف بهذا الشيء الذى لم تقله تريزا. إن إلهام كانت مصابة بداء الكذب، تكذب بسهولة لا تقل عن سهولة مضغها للبان.

لقد مرت أيام على حديث تريزا حين ذهب إلى الكلية فسأل عن صاحبته وعرف أنها لم تحضر، ذهب إلى بيتها فى موعد عمل والدها فدق الجرس لتفتح له الخادمة فدخل حجرة الجلوس ليجد فتاته جالسة بجوار رجل غريب على مقعد واحد يجلسان ملتصقين فما إن رآياه حتى ابتعدا كمن يريد أن يوارى جريمة. خرج ولم يلتق بها بعد ذلك، ولكنها كلفته شهراً من المرض لزم فيه الفراش.

حين عاد صليب وحسن صديقاؤه وزميلاه فى السكن إلى الشقة وجداه قد سقط مريضاً على فراشه.

تصورا فى البداية أنه ربما يكون قد أصيب بأنفلونزا حادة... ولكن جسد محمود بدأ يضمحل والحرارة لم تتوقف عن الارتفاع والوجه المصفر أخذ فى الذهول. أصابتها الخشية عليه فالأمر يبدو أخطر من تصوراتهما، أحضرا له محمد رشدى أحد أبناء الأقصر من أطباء الامتياز فى القصر العينى. لم يتعرف على حالته، فأراد أن يأخذه إلى المستشفى ليعرضه على أحد أساتذته، ولكن محمود يرفض أن يذهب. إنه يبدو مستسلماً للمرض، فقرر صليب وحسن أن يحملاه على الرغم منه إلى المستشفى ولكنه يصر ألا يغادر سريره. إنه لا يريد أن يتكلم... أن ينطق... لماذا لا يريد أن يذهب إلى المستشفى؟

وقفوا حائرين حين دق جرس الباب وفتح صليب ليجد محمد رشدى قد أحضر أستاذه إلى الشقة. كان تشخيص الطبيب أنها حالة نيمونيا وأنه فى حاجة إلى الراحة التامة، وهو يرى أنه من الخير أن يذهب إلى المستشفى... خرج الأستاذ، وقد تغير وجه محمود، انعكست الصفرة والامتعاظ على وجهه حتى جعلته أشبه بشبح قادم من عالم الموتى.

فكر محمد رشدى قليلاً ونظر إلى صليب وحسن:

- حنعالجه فى الشقة... حبيب له الدوا من المستشفى وربنا يستر النيمونيا منتقلبش لحاجة ثانية.

صليب وحسن يعيشان لحظة قلق. هل يرسلان لوالده؟ هل يتركانه معهما هنا مستسلماً للموت...

تمر اللحظات بطيئة... قررا ألا يرسلوا لوالده... محمود لا يتحسن... عيناه تغوران فى محجريهما... نظراته تزداد تيهاً... قال صليب: الأمر لا يحتمل التأجيل لا بد أن نرسل لوالده... لم يرد حسن عليه فهو لا يدري ماذا يصنع...؟ خرجا معاً إلى الكلية... صليب يوضح وجهة نظره... حسن لا يردد...

لم تمض ساعة على خروجهما حتى دق الباب... محمود لا يستطيع أن يقوم من فراشه... الدقات تزداد قوة... وهو تائه عنها... الجرس لن يتوقف حتى يفتح الباب، سكت صوت الجرس، سمع صوتاً أنثوياً:

- افتح يا محمود... أنا تريزا.

عاد إلى نفسه وهو يسمع صوت تريزا... لماذا تأتي هنا... إنه لا يستطيع أن يقف. الصوت يعود:

- افتح يا محمود أرجوك... افتح... أنا تريزا...

شد من نفسه صوته... أخذ يستجمع قوته حاول أن يقف... إنه فعلاً مجهد متعب عاجز عن الوقوف. أسند يديه إلى الحائط وهو يتحرك ليفتح لها الباب... أخذ يكح... ارتمى على الأرض... سحب نفسه... وقف نصف وقفة... فتح الباب... صرخت تريزا... وضعت يده على كتفها، وأمسكتها، ووضعت يدها الأخرى حول وسطه وسحبته من الصالة إلى حجرته.

رقد على السرير... تريزا تنظر إليه في استغراب... تفكر... نظرت إلى وجهه المصفر وقد خرجت عظامه إلى الأمام، ليس فيه من علامات الأحياء غير الحركة المتعبة.

صرخت تريزا:

- إيه اللي عامله في نفسك...؟

نشجت... وضعت وجهها بين يديها... لم يتوقف نشيجها ارتفع صوت محمود:

- اخرجي يا تريزا... صليب وحسن حبيجوا دلوقت وبعدين تبقى فضيحة.
- تبقى فضيحة تبقى... أنا وانت وربنا عارفين الحقيقة... ومتخافش أنا شايقة صليب داخل الكلية وحسن رايح كليته. وأنا كان لازم آجي... أنا السبب فى ده كله أنا مالى... ليه قلت لك... أنا آسفة يا محمود... آسفة... لكن مكنتش أعرف انك بتحبها بالشكل ده... ما هو يا أخى يا تقبلها زى ما هيه يا متموتش... يا محمود... عيب... عيب انك تقع علشان واحدة متستاهلش... دول عالم تانى ملهوش علاقة بينا ولا بمصر... فوق... فوق... ومتموتش روحك... محدش عارف مرضك لكن أنا عارفاه. إذا مت دلوقت تبقى مت من غير تمن... بالمناسبة البوسطجى تحت إدانى جواب جايلك.

فتمت حقيبتها لتخرج الخطاب:

- باين عليه من لقصر ومن أبوك.

وضعت الخطاب بجواره وهى تكمل حديثها:

- يا أخى إن مكننش خايف على نفسك فكر فى أمك... فكر فى الشيخ نور الدين اللى بيعتز بيك.

وما إن ذكرت اسم والده حتى انتابته ارتعاشة شديدة:

- كفاية يا تريزا... كفاية... كفاية...

- كفاية إيه يا أخى...؟ يعنى تموت فطيس علشان واحدة متستاهلش...
لو الشيخ عرف حيقول عليك إيه...؟

- تريزا كفاية كده أنا خايف حسن وصليب ييجم.

- طيب أنا ماشية يا محمود، لكن إذا مشفتكش قريب فى الكلية حبيب أخويا ييجى ياخذك البيت... انت أخويا كمان وأنا أولى برعايتك...
خليتك بعافية.

وقفت تريزا لتخرج، وقبل أن تخرج من الحجرة سمعت أقدامًا تتوقف أمام باب الشقة وحركة مفتاح يدخل فى القفل. تراجعت لتقفل باب الحجرة وتهمس بقلق لمحمود:

- حد جاى هنا... إيه العمل؟

كان على محمود أن يفكر بسرعة... أن يقوم بعمل سريع... لن يكون القادم سوى صليب أو حسن أو كليهما... وقف... نظرت إليه مستغربة... إنه يشد نفسه بينما هى ترتعش... استعادت نفسها حين خرج من الحجرة لتسمع صوته:

- أهلاً صليب.

رد عليه صليب الذى هزته المفاجأة:

- إيه ده... إيه اللى حصل... أنا كنت ناوى أتصل ببوك... علشان كان لازم تسافر...

- اسمع أنا جعان... جعان جدًا...

- فيه فول وجبنه...

- لأ نفسى أكل حمام...

- أجيبها منين...

- هات لى نص كيلو م الحاتى فى الدقى...

- يا سلام يا أبو حنفى... أجيبك الحاتى كله...

خرج صليب مسرعاً من شدة الفرح ليحضر الكباب لمحمود.

استردت تريزا أنفاسها حين سمعت صوت الباب يفتح ثم يغلق... محمود

يعود إليها ليفتح باب الحجرة:

- أنا أسف يا تريزا.

- أبداً...

خرجت تريزا وحمداً الله أن لم تحدث فضيحة... صليب صديقه ولكن هل يفهم حقيقة العلاقة بينه وبين تريزا، وإن فهم فهل يقرأها؟ وحتى لو حدثت فضيحة ولم يفهم أحد أو لم يقره على هذه العلاقة إنسان فهو يشعر أنه ليس وحيداً... ويشعر بالدفع... بالصدق الإنسانى، شعور يختلط بجسده المريض فيتحول إلى دواء سحرى يعيده إلى نفسه إلى قوته.

خرجت تريزا، لم يفكر فى شىء... فتح خطاب والده فيه حوالة بستة جنيهاً وخطاب من سطرين «ابننا العزيز نرجو أن تكون بخير وأن تكون منكباً على العلم فهذا أملنا فيك حفظكم الله... الإمضاء نور الدين».

هكذا دائماً والده يسمى الدراسة بالعلم، لا ينسى أبداً مصطلحات المجاورين.

زيارة تريزا وهذا الخطاب أعاداه إلى الحياة مرة ثانية، وأخذت الصور تتراقص أمامه تريزا، صليب، حسن، الشيخ نور الدين.

عاد صليب ومعه ربع كيلو كباب وطبق سلطة ورغيفان، لم تكن نقوده تكفى لشراء أكثر من ذلك. لم يهتم محمود بالكم... فالمهم أن صليب لم ير تريزا. وضع صليب الكباب والسلطة والعيش أمام محمود فأخذ فى التهامها باشتهاء لم يعرفه منذ وقت طويل.

مرت ثلاثة أعوام على هذا الحدث لم يدر فيها حوار بين محمود وبين تريزا أيام الدراسة. يلتقى بها آخر كل عام فى رحلتهم إلى الأقصر فى الإجازة الصيفية. وهناك تزور أسرته مرة أو أكثر. وهذه آخر سفرة يجتمعان فيها.

همس محمود لتريزا:

- أنا مش عارف أشرك إزاي... انت عملت فيه خدمة كبيرة...

فهمت تريزا أنه يعود بها إلى أيام طويلة قديمة. لم تسأل نفسها عن سبب فتحه لهذا الموضوع الآن. فالمهم أنه يفتحه. وأنها سعيدة بهذا. ردت عليه:

- إحنا أخوات يا محمود.

ابتعد عنها قليلاً ريثما تقطع التذاكر ثم عاد بها وبليلى إلى صحبه.

كان رصيف قطار الصعيد مشحوناً بالبشر والأمتعة، وحين بدأ القطار يتحرك من بعيد، أخذ الجميع فى التحفز للقفز على أبوابه وشبابيكه. وتعالّت الصيحات كبداية لأشياء أخرى قد تنتهى بمعارك. ترك البنات بجوار العفش وجرى مع صليب وحسن ليقفزا إلى الدرجة الثانية حيث سيجلس البنات، قفز كل منهم من شبك وحين وصلت أقدامهم إلى الأرض تبينوا ألا مكان لجالس، طلب من صليب أن يقفز ثانية ليعود بالبنات وبعدها ربنا يسهل. مضى الوقت طويلاً ثقيلاً، فقد تأخر صليب، كان عليه أن يضع عفشهم فى الدرجة الثالثة أولاً ثم يعود، وحين عاد كانت الطرقات قد اكتظت بالواقفين.

رائحة العرق تملأ المكان ولكن لا أحد يشم فالجميع مشغول فى وقفته.

نظر حسن إلى محمود:

- حنعمل إيه...؟

- حنتخاف خنافة لرب السما... ارجع يا صليب نادى حسيب وعلى بس بسرعة.

تحرك القطار فاهتزوا جميعاً مع حركته. الأصوات لم تنقطع. عاد صليب وحسيب وعلى، هنا ارتفع صوت محمود: يا جماعة الستات لازم تقعد... يا جماعة عيب... خلو عندكم دم... ده انتوا صعايدة...

لم يلتفت إليه أحد. مد يده إلى أحد الجالسين وسحبه من مكانه:

- يا أخى بقول لك قوم.

وتشابكا بالأيدي، حاول الناس التدخل، أجلس صليب البنات مكان الواقفين، تدخل حسيب وعلى. اعتذر حسن للرجال: يا جماعة أسفين بس عيب البنات تقف.

رد الرجل المضروب:

- كان لازم يطلب بأدب.

- مغلش حقك عليه.

أخرج صليب سيجارة هوليود، وأعطاهما للرجل:

- حقك عليه.

رفضها الرجل:

- لا... مبشريش.

- يا أخى ميصحش خدها دحنا اخوات.

مد الرجل يده إلى علبة السجائر التى لم يكن فيها غير سيجارتين. أخذ سيجارة منها. وكان ذلك يعنى نهاية المشاجرة.

انسحب محمود وصحبه إلى الدرجة الثالثة بعد أن اطمأنوا على البنات. وحين وصلوا إلى أبو العلا وجدوه واقفاً.

- إيه اللى حصل؟

- الناس خدوا الأماكن بالقوة.

وكان لا بد من معركة جديدة.

- يا جماعة عيب تاخدوا الأماكن بالقوة.

وقف رجل عجوز من الجالسين على الأرض.

- إيه هيه سيما بيحجزوا فيها؟

العصى هنا غليظة وكثيرة. وأية معركة لا تُعرف نهايتها. فكر فى أن يحسم الموقف بحل وسط إن وافق المجتمعون عليه فإن المشكلة ستحل وإلا فأمامه معركة.

- يستحسن تسيبوا الأماكن. إحنا حنقسمها. كل واحد يقعد شوية.

بدا هذا حلاً معقولاً ومنطقياً فى نظرهم فلم يكن أحد من الموجودين فى حاجة إلى العراك.

مرت الساعات الأولى حتى أسيوط ثقيلة وبطيئة وقاسية... الوقفة... الحر... العرق... الزحام. ضاع العيش والبيض فى زحمة الركوب وعرفوا أن

عليهم أن يتعايشوا مع الجوع حتى يصلوا إلى الأقصر أو ينزل أحدهم في أية محطة من محطات الوقوف لكن هذا يعد مغامرة في هذا الازدحام فقد يفوت القطار أى واحد يخرج منه.

أخرج الرجل العجوز صرة وأخذ يفكها، تابعت أعينهم اللفة. فطير مشلتت وجبنة وحمام. نظر الرجل إلى جماعته وقال:
- تفضلوا...

وأعاد الكلمة على محمود وصحبه:
- زى مقسمنا الأماكن نتقاسم الأكل.

أخرج بقية الرجال طعامهم. لم يعتذر أى واحد من الصحاب. مدوا أيديهم إلى الطعام وأخذوا يأكلون بنهم فهي مشاركة ولكن من جانب واحد. غير أنهم أجمعوا ألا يقف الرجل العجوز أبداً فقد ضمن مكانه حتى يصل إلى بلده. خلت كثير من المقاعد فى سوهاج وجلسوا فى استرخاء وقد داعب النوم عيونهم، غير أنهم لم ينسوا البنات، فى كل محطة يقف فيها القطار يذهب واحد منهم ليطمئن عليهن.

رمى محمود نفسه على كنبه فارغة مستعداً للنوم فلم يتركه صليب.
- أنا عاوزك...

- فيه إيه يا صليب؟

- أمر مهم.

كان صوته ينم عن أن أمراً هاماً يرهقه.

- أنا سامعك كويس.

- تريزا.

- مالها تريزا؟

- أنا بحب تريزا وعاوز أجوزها.

انطلق صليب يروى قصة حبه الصامت لتريزا قبل أن يغادرا الأقصر. وحين ذهب إلى القاهرة كان يراها أنسب فتاة لتكون رفيقة حياته. لم يجد محمود فيما يقول صليب مشكلة. إنه يترك نفسه لهم بلا هم.
- طب يا أخى متخطبها.

محمود لا يفهم أن هناك بعداً ما بين أسرة صليب الفقيرة وبين أسرتها المشهورة في الصعيد بالغنى والجاه.

- أنا مش شايف مشكلة أنت مسيحي وهيه مسيحية وده كفاية.
- ياريت... بس ده مش كفاية...
- الأمر زى ما انت شايف عندنا طبقية كبيرة... المتعلمة ياخذها متعلم والغنية ياخذها غنى. والمتعلمة الغنية ياخذها متعلم غنى.

صمت صليب وصمت محمود فهو لا يدري ماذا يريد منه صليب؟ هل يريد أن يتدخل أم أنه فقط يروى همومه له؟ إنه لم يتكلم عنها قط، وهو الآن يروى له كل أحاسيسه نحوها. لم تكن مفاجأة له فتريزا تُحب. وصليب شاب جدع يعتمد عليه، ولو كانت تريزا أخته لسعد بزواجها من صليب. يبدو أنه لا يفهم تقاليد الأسر المسيحية في الزواج... رؤيته للأمور سطحية. ولا شك أن صليب يواجه مشكلة... الشخص الوحيد القادر على حلها هو أبوه الشيخ نور الدين فهو يستطيع الإقناع ويستطيع أن يفرض وجهة نظره إذا ما كان مقتنعاً بها، ولكن كيف يكلم والده في هذه المشكلة؟ وهل هذا ما يريده صليب؟

- قل لى أى حاجة أعملها لك يا صليب.
- تكلم تريزا تشوف رأيها.
- طب وإيه قيمة رأى تريزا إذا كانت أسرتها هيه اللى حتعارض؟ فكرك تريزا تقدر تقف فى وش أهلها؟
- لأ... لكن تقدر تساعد.
- وفكرك هترضى؟
- نحاول... بس انت متفكرش وخليها على الله وسيبنى أنام شوية.

وضع يداً تحت رأسه ويداً فوق عينيه. ولكنه بدلاً من أن ينام، أفاق... فقد اقتحمت رأسه صورة الشيخ نور الدين. إنه الآن فى الخامسة والسبعين من عمره، المفروض أن يُحال على المعاش، أن يضعف، أن يتوقف عن الحركة ولكنه أقوى منه وهو ابن الثانية والعشرين. يشعر أمامه بالضعف والعجز. يحل مشاكله ومشاكل الناس. وهو الآن يعجز عن الوقوف بجوار صديقه فيجد نفسه متجهاً إلى الشيخ نور الدين الذى يتدخل فى مشكلات المسيحيين والمسلمين، الفقراء

والأغنياء، الأهل والغرباء على حد سواء. أى رجل هو؟ من أية طينة خلق؟ لقد عاش أربع سنوات من عمره فى القاهرة يحاول أن يقلده عندما كان مجاوراً فى الأزهر فلم يستطع. لقد حدثه زملاء أبيه فى المجاورة: أنه كان خير زملائه، يقرأ الكتاب مرة واحدة وكأنما ينطبع فى قلبه. أما هو فإنه مختلف عنه يقرأ وذهنه بعيد عما يقرأ، لا يركز إلا فى شهر الامتحانات. حادثه رجل من أهله كما حادثه الشيخ المجاور أن والده كان أغنى مجاور فى الأزهر وأنه كان يرسل لوالده نقوداً.

أى رجل هو الشيخ نور الدين؟ لقد حاول أن يصنع مثله فعجز، حاول أن يجد عملاً ولكن القاهرة لم تعطه هذا العمل. أراد أن يستقل عن أبيه فلم يستطع. ما إن يبدأ الشهر حتى يتشوق طلبة الأقصر إلى خطابات آبائهم المحملة بحالات بريدية، أما هو فكان يكره انتظار هذا الخطاب وأكثر ما يكره الحوالة البريدية التى تذكره دائماً أنه تابع للشيخ نور الدين. إنه لا يرفض تبعيته له ولكنه يريد أن يشعره أنه مثله، قوى، قادر. لقد روى له الشيخ المجاور أن والده كان يسكن فى منزل مع زملائه فرأى واحداً منهم ينظر من سطوح المنزل خلصة فنظر إلى ما رأى فوجد فتاة عارية فاقشعر جسده. لم يثر ولم يصرخ وإنما أمر الفتى أن يغادر المنزل وأن يبحث له عن مكان آخر. هذا الرجل يعمل ويذاكر ويرسل لأهله نقوداً ويحافظ على نقائه فى غربته. أما هو فقد أحب الهام منصور وعراها وأغرقتة فى شهوة جسدية، ولولا ذلك القرآن والورد الذى كان يحصنه به والده كلما أمسك بيده ليودعه وهو فى طريقه إلى القطار لما عرف كيف تنتهى هذه العلاقة. إنه يعرف جيداً أن الشيخ نور الدين يقف بينه وبين كل متعة جسدية، لقد رآه مرة بعد أن تعرى مع امرأة فانتة الجمال يخترق الحائط ليقول له: أهذا أنت؟ تكررت هذه الصورة فأوقف حركة جسده. كثيراً ما يسائل نفسه هل هذه الصورة حقيقية أم أنها من صنع الرهبة من هذا الرجل؟

أى رجل هو الشيخ نور الدين؟ إنه يحس بفخر أنه ابنه ويحس أيضاً بتعاسة أنه لا يستطيع أن يقيس قامته بقامته. تمنى كثيراً أن يصارعه فأهل الأقصر يروون الكثير عن قوته البدنية.

يطرد هذه الأفكار فهذا لا يليق به، إنه شيخ كبير، ولكنه يعرف أنه سيهزم. الروايات تتحدث عن قدرته على العوم فقد كان يسبق الجميع فى اجتياز

النيل. آه لو يسابقه فى السباحة وحتى هذه فإنه يعرف أنه لن يستطيع. شيخوخة هذا الرجل أقوى من شبابه.

لقد أبلغه أحد أصحاب الشيخ أنه يمتدحه ولا يرى فيه عيباً إلا أنه لا يصلى. لم يطلب منه منذ أن كبر أن يؤدى فروض إسلامه، وحين علم هذا من صديق الشيخ أخذ يواظب على الصلاة، حاول أن يريه ذلك. رآه يصلى العصر بمفرده فصلى وراءه وتابعه فعجز عن التركيز، كان الشيخ يغيب فى الصلاة كأنها ليست فرضاً يؤديه وإنما حب يقوم به فى لقاء مع حبيب يعرفه ويستغرق فى مناجاته. إنهم فى المدينة يقولون عنه إنه أكثر إخوته شبهاً بأبيه، وهو لا يصدق أحداً، إنه يعرف أن هناك طريقاً طويلاً لى يكون الشيخ نور الدين. إنه يغبط هذا الرجل ولكنه يحبه حباً عميقاً فى عمق ماء النيل عند ساحة أجداده.

انطفأ نور عربة القطار حين وصل الكمسارى ليوقظه من تفكيره:

- تسكره؟

- مع زمايلى وره...

- فين زمايلك؟

تبين من صوت الكمسارى أنه جاره صلاح:

- إزيك يا صلاح.

- مين الأستاذ محمود... أهلاً... إيه اللى قعدك هنا متروح درجة أولى.

- أنا كويس هنا... لكن فيه معانا بنات ممكن آخدهم درجة أولى؟

- يا أخى روح وديهم... قعدهم أى مكان يعجبك.

بعد أن تركه الكمسارى تحرك إلى الدرجة الثانية فوجد البنات قد غرقن فى النوم فتركهن ومضى إلى الدرجة الأولى. إنه لا يريد أن يجلس هناك وإنما يريد أن يحرك جسده، أن يخرج من توتره ومن قسوة الجلسة فى هذا القطار المرهق. تحرك من عربة إلى عربة على غير هدى، وقبل أن يصل إلى مؤخرة القطار وجد الأستاذ دياب، إنهم يسمونه فى الأقصر الدكتور دياب، تأفف من رؤيته وتمنى ألا يكون قد ترك مكانه. سلم عليه دياب وطلب منه الجلوس فاعتذر بأن زملاءه فى انتظاره بالدرجة الثالثة.

- انت مش باين ليه... ومبتزورناش ليه؟

فرد عليه باقتضاب معتذراً بمشغوليته فى الدراسة ووعده بأن يزوره عندما يعود إلى القاهرة ثانية.

- وإزاي الشيخ؟

- كويس.

تركه، وتوجه إلى عربات الدرجة الثالثة.

* * *

يعرف محمود جيداً أنه لن يفى بوعده للأستاذ دياب فهو لا يطيق أن يراه ولا يتحمل اللحظة التى يجلس فيها معه ومع زوجته وأولاده، إنه يشعر بأنهم عالم مختلف عن عالمه، يذكره بغلاصة منصور بك والد فتاته القديمة، كبرياء فارغ أجوف، وإحساس كبير بالذات دون سند حقيقى يسنده.

دياب هذا ابن الشيخ محمد ابن عم الشيخ نور الدين، وفى عرف الأسرة عمه ولكنه لا يناديه إلا ببابا الشيخ. تعلم فى الأزهر الشريف وكان أمل الأسرة أن يعود ليصبح واعظاً وإماماً فى الأقصر فقد قل عدد التحاق أبنائها بالأزهر الشريف إذ اتجهوا إلى المدارس الأميرية.

تفوق دياب فى دراسته وحين تخرج أرسله الأزهر فى بعثة إلى لندن ليحصل على الماجستير.

يقول عنه المقربون من الأسرة إنه أساء إلى العلم فقد تكبر على أهله حتى إنه لم يكن ينظر إلى أخيه أحمد إلا باستعلاء. ولم يكن على وفاق مع أبيه حتى إنه كثيراً ما كان يشكو للشيخ نور الدين متهماً إياه بأنه قاسى القلب لا يحب إلا نفسه. كان الشيخ يطلب إليه أن يدعو له ويحذره من الغضب عليه فهى نزوات شباب ولكنه ما يلبث أن يعود إلى أصوله الأولى.

قضى دياب أبو محمد فى لندن سنتين تقمص فيهما الحياة اللندنية، أو هكذا توهم. كان حين يعود إلى بيته يصر ألا يأكل إلا بالشوكة والسكينة. وحين يحادث أهله يدخل بعض الكلمات الإنجليزية التى لا يفهم أحد منها شيئاً.

تزوج بفتاة قاهرية من أسرة غنية تعمل مدرسة للغة الإنجليزية. زادته هذه

المصاهرة بعداً عن أهله. لا يذكر محمود أنه زار بها الأقصر. كان كمن يخشى أن يريها لأهله الصعايدة المتخلفين. حتى حين مات والده حضر بمفرده وآلم الجميع ألا تؤدى زوجته واجب العزاء لأقرب الناس إلى زوجها.

باع معظم نصيبه فى الأرض وكأنما أراد أن يقطع كل صلته بـماضيه. عندما وصل محمود إلى القاهرة زاره ليؤدى حقاً لابن عمه فـشعر بغربة فى بيته. وكان لقاؤه بـزوجته مهيناً له.

كانت تتساءل:

- مين ده؟
- ده ابن عمى.
- ابن عمك مين؟
- الشيخ نور الدين.
- أهلاً... تشرب قهوة ولا شاي.
- لا أبداً يافندم أنا شارب قبل ماجى.

انتهى الحوار عند هذا الحد، تركته مع ابن عمه الذى قام ليعد الشاي له، ولولا الخجل لما شرب الشاي، إلا أنه ضغط على نفسه وشرب نصف الكوب وهب واقفاً بلا مقدمات.

- استأذن.
- متقعد تتعشى.
- شكراً أصلى معزوم فى فرح الليلة.

وسلم عليه وانصرف. وما إن أغلق دياب باب الشقة حتى أخذ محمود يجرى كأنما كان يفر من جن خبيث.

ترى ما الذى أعاد دياب أبو محمد إلى الأقصر؟
لا بد أنه قادم ليبيع آخر ما يربطه بالمدينة.

عاد الشيخ إلى الكنبه، ألقى عليها جسده، حاول أن يسترخى فلم يستطع... الساحة تلح على تفكيره، أصبحت هى العالم كله... يؤلمه أن تهدم كما يؤلمه أن يستسلم... لا حل... تغير العالم... لقد شاهد التغير يحدث أمام عينيه... كان يحب هذا التغير ولكنه اقتحم النفوس.

إنه يذكر فى رحلته الأولى إلى القاهرة كيف كانت الأحلام تملأ روحه. طموح لا يعرف الحدود. كان يحلم أن ينتهى من دراسته ويصبح شيخاً للأزهر نفسه... إن الطموح قد وقف بأهله فهم يذهبون إلى الأزهر ثم يعودون، ابن عم جده عبد الرحيم أبو حشيش رفض أن يكون شيخاً للأزهر وعاد ليصبح معلم كتاب فى الأقصر... لم يفكر فى الساحة كثيراً فهى ستبقى لتراه من أكبر شيوخ مصر كلها.

سكن فى رواق الصعايدة... وجده عالماً غريباً مملوءاً حدة وعنفا... لقد أصبح مركز الصراع بين مشايخ وجه بحرى ومشايخ وجه قبلى ولعل الصراع الذى لم يحتمله هو المعارك بين مشايخ وجه قبلى ومشايخ الشراقة. هذه العنف. كان عليه أن يأخذ جانباً منه ولكنه ضاق بهذا الصراع وقرر أن يتركه كلية؛ فانتقل إلى مسكن فى حى الحسين مع بعض طلبة مديرية قنا... كانت أيام... اشتاق للساحة وللسلام فيها، أدرك لماذا رفض عبد الرحيم أبو حشيش مشيخة الأزهر.

القاهرة مدينة غريبة عليه، جنود الاحتلال الإنجليزي يملأونها. يشعر بالغربة فيها، وكأنما وطنه هو الأقصر فقط، والمشايخ يتصارعون حول المناصب، وأبناء مصر يتحاربون تحت رايات لا معنى لها. سمع عن مصطفى كامل... واستمع إليه وأحبه. كره سعد زغلول كرهاً شديداً وهو يقدم مشروع امتياز قناة السويس لمجلس شورى القوانين، شعر بالمهانة... ضربه عساكر الإنجليز وهو

خارج من اجتماع للحزب الوطنى. فالوردانى القاتل مسيحى مخلص لوطنه ودينه.

لم يقطع رسائله عن أهله طيلة هذه الفترة... كان يشناق إليهم، ولكن العلم والحياة الجديدة بما فيها من توتر تشده. لقد أصبحت جزءاً منه مما كان يخفف حدة الشوق وكثيراً ما كان يوقفه، كانت علاقته بابنى عم أبيه السيد يوسف أبو الحجاج وحسين حميمة. كان ينادى كلاً منهما بالعم حسب العرف وقد جمعها العلم والحب فى وفاق كبير. والعجيب أنهم كونوا فى القاهرة فرعاً لأسرتهم، قدم نور الدين مع عمه حسين وأبو الحجاج الذى جعلاه شيخاً لهما فهو الأكبر.

وكان الشيخ أبو الحجاج يعجب له كيف تداخل فى عالم القاهرة. لم يفكر طوال خمس سنوات أن يزور الأقصر، يعيش حياته فى القاهرة وكأنه يعيش فى الأقصر. غير أن الشيخ أبو الحجاج تغيرت فكرته كثيراً منذ صيف العام الخامس.

لقد تغير الشيخ نور الدين كثيراً وكان الشيخ أبو الحجاج يعرف علة تغيره ويعرف الألم الذى أصابه، ويتألم لأنه لا يعرف كيف يوقف ألمه. وحين قرر أن يسافر الشيخ نور الدين فى صيف العام السادس كان يفهم أن نور الدين يريد أن يلجأ إلى الساحة لعل بركتها تزيل ألمه.

كان أول شىء زاره حين وصل الأقصر هو الساحة والمسجد... وجد المدينة قد تغيرت كما وجد أهله قد تغيروا أيضاً. فرح أبوه وأمه به كما فرح أهله جميعاً بزيارته.

تغير كل شىء فى نور الدين، إنه فى الطريق ليكون من الكبار فى الأسرة. كان يتكلم كلام الوثائق ولا يتكلم إلا حين يسأل، وكان قادراً على الإقناع. لم يعد يلبس الجلباب الأبيض وعليه البفطة السوداء، والعمامة ذات الخمسة عشر متراً، وإنما ظهر لهم شيخاً يقف بينهم لابساً قفطانه وجبته. يلبس فوق رأسه عمامة الشيوخ؛ طربوشاً أحمر تلفت عليه عمامة دقيقة أنيقة، فهو الآن الشيخ نور الدين.

لم يلعب بالعصا ولم يركب الفرس فى المرماح فقد كان واضحاً أنه ليس دوره الجديد دور الشيخ نور الدين.

أسعد هذا التغير الكبار وأبدى والده السعادة أمامهم على هذا التغير، غير أنه كان يعانى ضيقاً شديداً، شعر أن ابنه يخفى ألماً كبيراً... لقد أرسل له منذ عام

يبلغه برغبته فى الزواج من قاهرة... وافق على الزواج مع أنه لم يكن يحب لابنه أن يتزوج من فتاة غريبة، فهو يريد أن يزوجه ابنة أخيه أحمد... وها قد عاد إليه ابنه بالحزن بدلاً من الزوجة. أراد الأب أن يطمئن على ابنه فاقترح أن يزوجه رقية ابنة عمه وتم الزواج فى الساحة التى لم يفارقها منذ وصل إلى الأقصر إلا حين يذهب لأمه أو يقوم بزيارة لمريض أو زيارة شيخه الطيب، وحين قرر العودة إلى القاهرة لم يأخذها معه، فهذا اقتراح الكبار فهى صغيرة ولا تحتمل الغربة، وعلى نور الدين أن يحضر للزيارة كل صيف.

لقد شاهد بناء أول وكالة فى الأقصر، والغريب أن الذى أنشأها هو أحد أقربائه... أى أن الساحة لم تعد المكان الوحيد الذى يلجأ إليه الغرباء. كما رأى فندقاً جميلاً بُنى على طراز مختلف عن مساكنهم يحمل اسمًا أجنبيًا يسمونه ونتربالاس.

تمر أمام عينيه وجوه لناس أجانب قدموا من العالم الآخر الذى يستعمرهم. يسميهم الأهالى سواح. حضر معهم قوم غرباء، يبحثون عن وسيلة للكسب من ورائهم. كثر المال وكثرت معه الأحلام فى الغنى وابتعد بعض الناس عن الساحة. يسمع طوال الصيف عن أنباء اكتشافات لمقابر قدماء المصريين فى قرية القرنة غرب الأقصر... تعذبه فكرة نبش المقابر، يحدث أهله وأهل مدينته. يحاول أن يفهمهم أن هذا حرام. الكثير منهم يقول إنهم كفرة وهو مقتنع أنهم ليسوا كفرة فهم أهل فترة. قال لابن عمه يونس أبو أحمد الذى يكبره بخمسة عشر عاماً:

- غداً ينبشون مقابرنا.

رد عليه يونس:

- هذا أمر الله.

وقف أهل القرنة ضد محاولة إخراجهم من منازلهم شجعهم، ومعه تلامذة الشيخ الطيب. نجحوا فى البقاء... سكنت الحكومة عن فكرة إخراجهم من منازلهم... ولكن الحكومة، ذلك الكائن العنيد، لن تتوقف عن مضايقتهم حتى تخرجهم منها.

بدأ التغيير... ولن تكون له نهاية.

باع والده معظم أرضه، لم يبق منها غير فدان من أرض الحجاجية فى مشايخ عطية... كبر ولم يعد يعرف ما يصنع بالأرض؛ فأخذ يبيعه قيراطا ليطعم أهل الله من نزلاء الساحة.

وحين عاد إلى القاهرة كان عليه أن يقوم بدور آخر؛ أن يتاجر ليرسل لوالده نقوداً ليقوم بإطعام أهل الله، أخذ يتاجر فى الشاى والبن، إنه يذكر هذه الأيام كانت أيام رخاء، امتلك فيها العلم والمال.

وعندما انتهى من دراسته فى الأزهر لم يفكر فى البقاء فى القاهرة؛ لم يعد يريد أن يكون شيخاً فى الأزهر أو للأزهر، إنه يريد أن يعود إلى مهده، إلى الساحة حيث السلام والطمأنينة. وحين وصل إلى الأقصر كان عليه أن يقيم بيتاً لزوجته ولأبنائه الثلاثة فقد أنجبت زوجته مخيمر وابنتين.

كان عامه الأول فى الأقصر بعد عودته من القاهرة قاسياً فقد ماتت زوجته ومات ابنه مخيمر فقبل أن يدرس فى مدرسة الأقباط فى قنا. وهناك تزوج أم أبنائه التى خلفت له ستة أولاد وبنتين.

لم يكن بقاؤه فى قنا مريحاً. يريد أن يعود إلى الأقصر فأقنع الجمعية الخيرية القبطية بإنشاء مدرسة فى الأقصر وكان افتتاحها حدثاً عظيماً. اشترط على الجمعية أن تمنح المجانية لأبناء المسلمين الفقراء. والحقيقة أن الجمعية لم ترفض له طلباً.

كان يشد أبناء الأقصر إلى المدرسة تارة بالترغيب وتارة بالقوة. فالمستقبل للعلم. ولكن الأهالى لا يفهمون ذلك. غير أنه كثيراً ما حقق نجاحاً يراه الآن فى عيون تلامذته الذين يجلسونه فى صمت إعجاباً كبيراً.

خرج من المدرسة متجهاً إلى الساحة فوجد أعداداً غفيرة من السياح على عربات تتزاحم فى طريقها إلى شارع النيل. لم ير مثل هذه الأعداد من قبل.

نظر ناحية الشط فوجد هذا التزاحم يتمركز بجوار المعديّة المواجهة للناحية الشمالية للساحة... فجماعة السواح فى طريقها إلى الغرب. نظر إلى ابن عمه الكبير الشيخ يونس أبو أحمد وسأله عن هذا الجمع الغفير الذى لم ير مثله فى الأقصر. حرك الشيخ يونس سبحته وهو يقول:

- انهارده افتتاح مقبرة توت عنخ آمون، العالم كله هنا.

رد الشيخ نور الدين:

- لاحول ولا قوة إلا بالله... لا بد أنهم سينقلون الجثمان إلى المتحف فى القاهرة... علشان تكون فرجة بفلوس.

شعر بضيق... ترك الساحة... مشى حتى وصل إلى الجبانة القديمة، نظر إليها... أصابته الرعدة وهو يفكر، ربما يكون مصيرها مصير مقبرة توت عنخ آمون. عندما تستقل مصر ويخرج الإنجليز لن يعث أحد برفات أجدادنا.

إنه يذكر الحدث الهام الكبير فى حياته وحياة مصر كلها فقد اعتقلت السلطات الإنجليزية سعد زغلول باشا واهتزت مصر لهذا الاعتقال. قام مع صديقه الشاعر الشيخ محمد موسى الأقصرى بحركان إقليم قنا للثورة. اهتزت قوة إنجلترا فى القاهرة فأرسلوا طلباً للقبض عليه. هرب إلى نجوع مديريته يحض الناس على الثورة ويقاوم الإنجليز... كانت أيام... تحول كرهه لسعد زغلول باشا إلى حب شديد... نجحت الثورة وكون وصاحبه محمد موسى الجماعة الوفدية فى المحافظة.

وقف الإقليم كله معه ضد الإنجليز وحكومتهم... الموقف الآن مختلف، ليست هذه مشكلة الإقليم... إنها مشكلة الأقصر، مشكلة أسرته، من يدرى ربما لا تكون مشكلة أحد سواه. هى فعلاً مشكلته.

مقاومة الإنجليز ربما تكون أيسر من مقاومته لعبد الناصر. لقد هد أشياء كثيرة ولم يتكلم أحد... حتى حين ضرب الوفد وحلّه صممت الجماعة الوفدية فى الأقصر صمناً تاماً.

مشاعر متضاربة يكنها لعبد الناصر، يحبه ويهتز لسماع صوته وفى الوقت نفسه ينقده... يرى فيه أملاً كبيراً لمصر ويخشى على مصر من قوته... الخيوط كلها بيده... لو توقف لتوقفت مصر... لو سكنت لحظة لانهد بناؤها... لقد أعاد إليه حماس الشباب وهو يستمع إلى خطابه وهو يؤمم قناة السويس... مصر كلها وقفت معه... كان يتمنى أن يجمع الناس بعد حرب السويس... ولكنه لم يصنع شيئاً. قدم لهم الاتحاد القومى... بلا رصيد من ماضٍ أو تاريخ... مجموعات من الرجال لا ترابط بينهم، كل منهم له سببه الخاص الذى من أجله التحق بالاتحاد...

آه عبد الناصر... كان يمكن أن يبني مصر بناءً أعظم من ذلك... ولو ثار اليوم من أجل الساحة فستهتز القوى الحاكمة.... وسيهدمون الساحة ويهدمونهم. لماذا يا عبد الناصر تقتل في الناس روح التمرد....؟

الساحة ذلك الكائن العزيز... الجلسة في داخلها... الجلسة على الكنبه ونسائم النيل تهب عليهم. فنجان القهوة بعد العصر مع الأهل... زوار الساحة وأحبابها... كل هذا سيضيع... لقد كانوا يشاهدون هلال رمضان وهلال ذا القعدة... كثيراً ما شاهدوه قبل أية مدينة أخرى.

والنيل ذلك المخلوق الخرافي الذي لا يعرف كنهه... القادم منحة من الله يمتد قرب الساحة يجرى قوياً كأنه من العماليق يحفر الأرض... يغنى ويصمت... يعلو وينخفض صورة لا تتبدل تعيش مع الأزل... شراع يسير نحو الساحة وشراع يبتعد عنها... لا شك أنه من الجنة وإن قالوا إنه قادم من الجنوب من كينيا أو الحبشة... أسباب، فكل شيء سبب، ولكن الحقيقة فوق السبب، إنه قادم من هناك من الأزل حيث أرواح الأجداد المقدسة تعيش لتمنح الأرض الخصب والبركة... إنه هنا دائماً واقف ومتحرك... والجبل بألوانه اللازوردية تنعكس على النيل؛ فتارة هو في لون السماء وتارة في لون الجبل... والشمس تلقي قرصها لتختفي في أحضان الصخور الحية قبل أن تصنع الغسق، يقف مع أبناء عمه يضبطون ساعاتهم على مغيبها وهم يراقبونه في متعة من يعرف سر الجمال الإلهي القادم من قدرته الخلاقة على الإبداع المتجدد الذي لا ينتهي... وحين يختفي قرص الشمس يعيدون النظر إلى مياه النيل التي تأخذ في احمرار وكأنما لم تختف بعد شمس النهار، إنهم ينتظرون قليلاً لياخذوا في صلاتهم لذلك الإله العظيم صانع الجمال.

كان يوماً عصيباً على الشيخ نور الدين. أراد أن يخفف من حدته على نفسه. أخذ في قراءة الورد الذي أخذه عن الشيخ الطيب. فقد كان مفتى الطريق، ثم أخذ الإذن من شيخه بالتوقف عن مجالس الذكر ليقوم هو بمفرده بأدائها. لقد كان يجد متعة في أداء ورده بمفرده. إنها تحول العلاقة بينه وبين الله إلى علاقة شخصية لا يتخللها وسيط. وحين دق الباب كان الطارق الحاج خليل المقاول، أدخله غرفة الجلوس واستمر في أداء ورده فالحاج يريده لأمر، إن كان هاماً عليه أن ينتظر فليس هناك أهم من أن ينتهي الشيخ من ورده دون أن تتدخل الحياة الدنيا لتلهيه عن حق الله.

انتهى الشيخ من ورده وأقبل على الحاج خليل يحييه:

- الساعة متأخرة يا حاج... فيه حاجة مهمة متستناش لبحره.

وقبل أن يرد الحاج خليل. دق الباب فقام الشيخ ليفتح فإذا به الحاج حسان المقاول ومعه المقدس نظير.

أدخلهما الشيخ وهو متأفف. وابتسم.

- إيه حد قال لكم إن إحنا حنبلى بيت.

صمت الشيخ وصمتوا معه، وبعدها قام الشيخ لينادى على زوجته لتصنع لهم شايًا. وعاد إلى جلسته ولم يتكلم.

استجمع خليل شجاعته في مواجهة الشيخ:

- إحنا جاينين يا سيدنا نشترى تراب الجبانة.

- هو تراب الجبانة بيتباع... ده تراب بشر من الأرض وإلى الأرض.

- أصلوا إحنا عاوزين نعمله أمين طوب.

- سبحان الله اتنين حجاج وواحد مقدس. إيه اللي جمع الشامى على

المغربى، أمين طوب! ومين يملك يبيع تراب الجبانة؟

- أنت ...
- إزاي...؟ وحنوزع الفلوس دى على الورثة يا أولاد الشياطين؟
- لا نديهم للفقرا والمساكين.
- نديهم تمن تراب أجدادنا.
- ده تراب.
- تراب عندك انت... دى أجساد اتحللت، رجعت لأصولها الأولى. وبعد كده اقللوا يا أبالسة الموضوع ده، حجاج ومقدسين إيه؟ انتوا حتمشوا من هنا من غير متشربوا الشاى.
- بتطردنا يا شيخ نور الدين!
- أنا باين علىّ مربتكش يا أبالسة... لو بكره لقيت واحد منكم فى الجبانة مش حيعرف إيه اللى يحصل له؟ ولو لقيت أى عربية تخصكم أنا بنفسى حكون عدو ليكم. يلا مع السلامة.
- نظر الرجال بعضهم إلى بعض فى حيرة، لقد أشعرهم الشيخ أنهم يرتكبون عملاً من أعمال جهنم ولا يدرون هل يغضبون من الشيخ أم يعتذرون له. وهم يعرفون أن غضبهم سيواجه منه بحدّة قد تجعلهم سبة المدينة كلها فأتروا الاعتذار.
- إحنا أسفين يا شيخ نور الدين مكناش فاهمين سامحنّا...
- أمسك الرجال الثلاثة يد الشيخ وأخذوا فى تقبيلها وهو يسحب يده من بين أيديهم.
- اقعد مكانك أنت وهوه أو امشوا.
- لأ حنشرب الشاى ده بركة.
- وجلسوا صامتين حتى انتهوا من شرب الشاى، ثم خرجوا.
- نادى الشيخ جاره صديق وطلب إليه أن يذهب إلى أحمد أبو محمد شرق السكة الحديد ويطلب منه أن يأتى لمقابلة عمه حالاً. وعليه ألا يعود إلا به.
- لم تمض دقائق على ذهاب صديق حتى سمع الشيخ طرقة على الباب، فتحه فإذا بابن ابن عمه أحمد أبو محمد يقف أمام الباب. قبل يد عمه ودخل معه الحجرة.

كان أحمد مهمومًا... نظر إليه الشيخ...

- أنا بعت لك رسول علشان تيجى وأهو انت هنا... شكلك متضايق.. فيه حاجة يا أحمد؟

- بابا الشيخ أخويا دياب بعت تلغراف بيقول إنه جاى دلوقت وأنا رايح ع المحطة أستقبله... وأنا خايف من زيارته دى... باين ناوى يبيع ربع الفدان اللى فاضل فى مشايخ عطية ودى أرض بركة مش للبيع، دى آخر إرث الشيخ أبو الحجاج. وياريت المسألة تقف عند كده أنا خايف يكون ناوى يعرض نصيبه فى البيت للبيع وأنا ممعاش فلوس أشتري منه. الفيضان السنة دى بشايره مبنتش. والسواقى خفت ميتها، لعارفين نسقى أرض ولا نروى زرع. السنة دى سنة تحاريق. يعنى ياعالم حنعمل إيه ونجيب فلوس منين... نوكل العيال ولا ندى دياب. والمشكلة إن أمى بتحبه... لو طلب منها إن إحنا نترمى فى الشارع علشان راحتته توافق وبدون زعل مش عاوز أتكلم معاها فى دياب لأنى مش عاوز آخذ غضبها.

صمت الشيخ فهو يعرف أن دياب عزيز عليها وأنها لا تحب شيئًا قدر حبها له، ولكن عندما تصل به أنانيته إلى حد بيع البيت لا يظن الشيخ أنها توافق. وسواء وافقت أو لم توافق فإن له نصيب أبيه، ومواجهة دياب فى حاجة إلى حكمة ولا سيما أن أخاه أحمد نفسه لا يستطيع أن يواجهه بما يشعر.

قطع الشيخ الصمت:

- خليها على الله يا أحمد، بكره تتعدل ومتشيلش هم... إذا فاتحك فى شىء قل له الأمر مع عمك وسيبنى أتصرف معاه.

استراح أحمد لكلام الشيخ فقد ألقى عن كاهله حمل مواجهة دياب واستراح أن يتحمل الشيخ مسئولية حل مشكلته معه.

أستاذن بابا الشيخ أصلى رايح المحطة علشان دياب يلاقينى هناك أحسن لو مالقائش حيغضب ويظن حاجة كده ولا كده.

- أنا بعت صديق لأنى عاوزك بكره الصبح تيجى بدرى الجبانة ومعاك حمارين... وكام عربية كارو وتقول للفلاحين اللى جارك يجيبوا حميرهم علشان ينقلوا تراب الجبانة ويدوروه فى أرضهم.

- أنا حقوم دلوقت أروح المحطة لحسن القطر على وصول.
 - إوعى تنسى... لحسن أنا مش عارف حننقل تراب الجبانة ده إزاي؟
- خرج أحمد أبو محمد وعاد الشيخ إلى ورده يسبح لمالك الأرض ومن عليها. ولا يذكر من عالمه سوى الفيضان المتأخر الذى ينبئ بكارثة. فيدعو الله أن يعجل به.

وصل قطار السريع إلى محطة الأقصر الساعة الواحدة والنصف متأخرًا ساعة ونصف، وهذا رقم قياسي لهذا القطار فهو غالبًا ما يتأخر ساعات ولم يحدث أن وصل في موعده قط. كانت المحطة هادئة ليس فيها غير عدد من الرجال الذين جاءوا ليستقبلوا ذويهم.

عندما ترك محمود القطار وجد أباء زملائه وزميلاته على الرصيف، وبالطبع لم يكن بينهم والده، فلم يحدث مرة واحدة أن ودعه والده أو استقبله على المحطة، ولم يكن محمود يريد من والده أن يصنع ذلك فهو يعرف جيدًا أنه يقصد أن يفطمه عنه... أن يمنحه استقلاله وأن يجعله حرًا في حركته، ولكنه هذه المرة كان يتمنى أن يكون والده مع هؤلاء الرجال، إنه في شوق لرؤيته.

سلم محمود على آباء أصدقائه ونظر فإذا أحمد أبو محمد بين المستقبلين، شعر بالأسى لأحمد فهو سيواجه مازقًا مع أخيه أعانه الله على الخروج منه... حمل حقيبته وخرج إلى ميدان المحطة... كان الميدان مهملاً... الأحجار والطوب والأسمنت تملأ المكان.

فالحكومة تريد أن تعيد بناء المحطة على الطراز الفرعوني... كان المبنى بسيطًا جميلًا ولكن الحكومة تريد محطة فخمة... تحرك وسط هذا الركام بحقيبته حتى وصل إلى موقف عربات الحنطور... ركب إحداها، وقبل أن يسأله السائق إلى أين؟ كان محمود يقول له: بيت الشيخ نور الدين من فضلك... أخذت العربة طريقها جنوب المحطة في الشارع الملاصق لها. مضى وقت طويل قبل أن يلاحظ اللافتات المعلقة فتذكر أن موعد الانتخابات قد حل... إنه لم يتابع هذه الانتخابات ولا المرشحين ولكن سير العربة في هذا الطريق القصير عرفه بأسماء المرشحين جميعًا... اللافتات جميعها تحمل كلمات متقاربة. رجل الشعب... صديق الأمة... ابن الجماهير... المكافح والمناضل العصامي... صاحب التاريخ النزيه انتخبوه من

أجل مصلحة البلد... من أجل العزة والكرامة. ضاق بهذه الكلمات فهو يعرف هؤلاء الرجال جميعاً. لا تحس البلدة بهم أو بوجودهم، ظهر واضحاً له أن أهم اسمين من بين المرشحين هما محمد بك عياد وعبد الرؤوف بك العديسي، وكلاهما من أعيان المنطقة وأسرة كل منهما لها تاريخ طويل فى حكم البلد، ومع ذلك يسبق اسميهما القاب العصامى... المكافح... الثائر المناضل... يرشحون أنفسهم تحت اسم عبد الناصر.

نظر إلى إحدى اللافتات باحتقار ثم توقف عن النظر وعاد ليفكر فى أبيه. ترى ماذا يصنع الآن؟ إنه يعرف أنه ليس نائماً. ويعرف أنه ينتظره ولكن أباه لا يقول له كلمة تعبر عن حبه له. إن حبه مقرون دائماً بالفعل.

وعليه أن يتعلم منه. إنه لا يعرف كيف؟

دفع باب المنزل ليجد والده محتبياً على الكنبه، يمسك محمود بيده ينهال عليها تقبيلاً فيسحب الوالد يده ويرفع رأس ابنه ليقبل جبهته ثم ينادى:
- يا أم حجاجى محمود وصل...

تحضر الأم لتقبل ابنها وتغالبها الدموع وهى تحتضنه ثم تتركه لتسخن له الطعام فلقد أعدت له بطة سمينة... استيقظ أخوه الصغير عبد الرحيم ليشاركه طعامه. بدا على الجميع أنهم لم يدهشوا لحضوره فقد كانوا يتوقعونه. كيف عرف الشيخ أن ابنه سيحضر اليوم؟ على محمود أن يتوقف عن الاستفسار عن كيفية معرفة أبيه لأشياء كثيرة. إنه لا يجد لها تفسيراً، ربما يكون نور الله قد حل على عقل الشيخ حتى جعل الأشياء تبدو واضحة أمام عينيه.

قبل أن ينتهى محمود من الطعام غاب والده فى النوم، ذهب مع أخيه ووالدته إلى حوش المنزل لينام فى الطل.

هبّت نسمة هواء... خففت من حدة الحر... ارتمى على السرير الجريد الذى أعدته أخته له... أخذ ينظر إلى السماء يتفرس فى النجوم التى يعرفها... النجم القطبى... نجوم كثيرة لا يعرف أسماءها... ينظر إلى النجم ذى الذنب. يستهويه هذا النجم... يقف بمفرده مشتعل كأنه شهاب متوقف يضىء منطقة عريضة، على بعد منه دائرة من النجوم تبدو ضعيفة خافتة وكأنها تدور فى فلكه تستمد ضوءها منه... أخذت عيناه تبحثان عنه... ترى أين يقع هذا «النجم ذو

الذنب» الآن... أخذ ينظر ويمعن النظر... كانت نومته فى الصيف فى الحوش أو فوق سطوح منزلهم تمثل له متعة، كان أهمها مراقبة هذا النجم... لقد مرت عليه سنون وكبر والنجم ثابت فى مكانه، حتى حين يظهر القمر ويشع بنوره على الأفق فإن ضوءه لا يختفى ولا يضعف.

اعتدل من نومته، أخذ يبحث عن النجم، إنه ليس فى مكانه... غير اتجاه نظره... آه وجده... إنه يقف فى الغرب مضيئاً مشتعلاً... دائرة النجوم تزينه.

استمر هبوب النسيم... محمود ينظر إلى السماء، الأم قلقة لصمته وحركته المتوترة، حاولت أن تقطع الصمت:
- مر أسبوع من غير منْحَس بنسمة هوا.

ثم أخذت تروى له أحداث عشرة أشهر كاملة منذ غيابه عن الأقصر. نظر إلى وجه أمه الواقع فى الضوء... جاوزت هذه المرأة الستين ومازالت تحتفظ بمعظم أسنانها... لم تؤثر التجاعيد على طفولة وجهها... إن علاقة أمه بأبيه تدعو إلى العجب... فبينما أبوه يبدو وقوراً عقلياً لا يتعب أبداً كانت أمه ضعيفة عاطفية تتعب من أقل جهد، لا تستخدم عقلها أبداً، تصدق كل ما يقال حولها، حتى ما كانت تقوله النسوة من أن الشيخ نور الدين ينوى أن يتزوج من فتاة صغيرة يدفعها إلى البكاء، فتجعل من حياة الشيخ جحيماً، فهي تغار عليه وتعلم أنه قادر على الزواج من أكثر من فتاة صغيرة فهو رجل فحل قوى... وسامته فى الكبر تفوق وسامته فى صباه... لم يكن الشيخ يأبه لها كثيراً، كان يعاملها معاملة الابنة حتى تتدخل غيرتها وهنا كان يصدها بعنف ويهجرها أياماً لا يوجه لها حديثاً. كانت ابنته الصغرى منيرة تقوم بشئونه، تحاول أن تخفف حدة التوتر فى المنزل، ولم تحدثه منيرة قط فى أى أمر من أموره، وعندما كان يغضب من أمها لم تتدخل فى الإصلاح بينهما فهي تتضايق منها كثيراً حين تعدد الأشياء التى تضايقها من الشيخ، ومع أن أمها تضخمها فهي لا تدعوها للضيق بل على العكس يزداد شعورها بالاعتزاز بأبيها.

كانت أمها تتكلم كثيراً عن رفيقة أخت الحاج ركابى... «الرجالة وحالتهم عجب» يسمونها رفيقة. والناس، وكلامهم كثير عن الشيخ، يقولون إنها وعدت بصيرى بمئة جنيه ذهباً إذا أجلسها مع الشيخ لترى عيونه... عيون الشيخ

واسعة ممتدة فى خط مرسوم كأنها عيون خارجة من رسوم جدران معبد الأقصر القديمة تمتد عليها حواجب كثيفة، آه من نظرتة عندما يكون غاضباً إنها مخيفة وآه من نظرتة عند هدوئه إنها تفيض ليلاً ورقة وحناناً.

بعض من الناس يقول إن بصيرى أخذ المنة جنيه، والبعض منهم يقول إنه لم يأخذ مليماً.

ومع أن هذا حدث قبل أن يتزوج بأمرها فإن هذه القصة تضايقها... إنها تعرف أن عيون الشيخ نور الدين أغلى من ذلك بكثير... وما أغضب الأم أن رفيقة جاءت إلى الشيخ وجلست معه فى الحجرة ساعة كاملة... طلب منها الشيخ أن تخرج فلما خرجت لم تتمالك نفسها من أن تحاول الاستماع إليهما... لم تستطع أن تتبين ما يقولان... وبعد أن خرجت المرأة سألتها عما دار بينهما من حديث فلم يجبهها الشيخ واختفت عنه أياماً لا تخرج للقاءه ولا يسأل عنها.

مر أسبوع على هذه الحادثة تذكر لها أختها الكبرى شمس أن أمها لم تستوقف عن البكاء حتى سمعت أن رفيقة تابت وتزوجت وأنها تنوى أداء فريضة الحج.

التقت منيرة بها وهى صغيرة فى بيت إحدى صديقاتها وما إن عرفت رفيقة أنها ابنة الشيخ نور الدين حتى وقفت لتحتضنها وتقبلها وهى تقول فى حنان بالغ:

- ابنة شىخى.

عادت أمها إلى الشيخ معتذرة، ولكن نار الغيرة لم تهدأ داخلها.

لا تدرى منيرة ما الذى يضايق والدتها؟ لقد جعل الله لكثير من الناس الهداية على يدى والدها... ما العيب فى ذلك؟ ولكن هذه أمها تصر على أن ذلك يضايقها ولا تدرى كيف تسكنها وتطمئننها، والأغرب من ذلك أن والدتها تذكر بألم شديد ما يقال من أنه خطب فتاة من مصر وهو طالب بالأزهر الشريف، وأنها ماتت قبل أن يتزوجها. هند أخت الشيخ تضايقها كثيراً حين تقول إنهم يقولون إنه تزوجها ولم يدخل بها. لماذا تغار أمها من هذه الحكاية القديمة؟ فهى تخشى أن يكون الشيخ ما زال يحبها، صحيح أنه لا يتكلم عنها أبداً وأن الأم لم تستطع أن تسأله عنها لكن ذلك لا يعنى عندها أنه نسيها.

تتعجب منيرة من نفسها فحين تتكلم عن خطيئته المتوفاة تشعر بالإشفاق على أبيها، لو كان ذلك صحيحاً فلا بد أنه تعذب كثيراً ولكن لا يظهر على والدها إلا السكينة والسلام، هذه حالته الطبيعية... تكلم منيرة نفسها... «أه ياأبا لازم تعذبت كثير». وحين ذكرت لها أمها أن والدها سيتزوج هذه الأيام شعرت بالرغبة فى الثورة على أمها ولكنها كتمتها. بنت الشيخ نور الدين لا تصرخ فى أحد فما بالك بأمها... لم تتمالك منيرة أن قالت لأمها بصوت حاولت أن تجعله يخرج هادئاً:

- أمه كفاية... علشان خاطرى بلاش الكلام ده.

ردت الأم بصوت باك:

- طيب ابق شوفى... بكره يجيبها لك البيت.

وحين أبلغتها إحدى قريباتها بأن والدها سيتزوج وأن الخبر يملأ المدينة ذعرت الفتاة مما سمعت. فهل من المعقول أن يتزوج الشيخ نور الدين وأن تدخل بيتهم امرأة غريبة...؟ صحيح أنها ستتزوج هذا الصيف من ابن عمتها ولكنها لا يمكن أن تقبل أن تشاركها وأمها فى الشيخ امرأة أخرى. تصورت أن أباهما يبتعد عن أمها عن قصد، وأنه قريباً إما أن يأتى بواحدة إلى المنزل أو يسكنها فى منزل آخر.

صرخت الفتاة:

- يا خراب بيتك يا امه.

فكرت أن ترسل خطاباً لأخيها الحاج فى أسوان ولمحمود فى القاهرة ولكن الفكرة لم تعجبها. سقطت الدموع من عينيها، هل يمكن أن يحدث ذلك!

حضر الحاج من أسوان كلمته أمه... ابتسم الحاج فهو صورة أخرى للشيخ نور الدين:

- كلام إيه ده يا امه...

- لازم تكلم أبوك وتشوف لى حل... أنا رايحة لأخويا.

- اللهم اجعله خير.

- أبوك بعيد عنى ومبيكلمنيش والناس بتقول ودّا الشبكة.

- ويا ترى دفع المهر؟

- البنت حلوة... وأبوك راجل قد الدنيا.

لم تتدخل منيرة فى الحديث ولكنها تمنى أن يكلم أخوها والدها فى هذا الأمر. سافر الحاج ولم يكلم والده فهو يعرفه جيداً ويعرف والدته. إن حبها للشيخ كبير وهى تخشى عليه من النسيم...

منيرة لم تسترح لتجاهل أخيها لهذا الأمر. انتظرت حتى صلى والدها العشاء أعدت له الطعام، وأحضرت الطشت والإبريق ليغسل يديه، سكبت الماء فسال على ملابسه... نظر إليها فإذا بها تبكى. سألها بحنان بالغ:

- فيه إيه يا منيرة؟

ألقت الفتاة كلمتها بسرعة:

- انت صحيح حتتجوز؟

ابتسم الشيخ، هذا الجو المكفهر فى المنزل سببه أنه سيتزوج... أخذ يداعبها:

- وانت إيه رأيك مش برضه أجيب لكم شابة تخدمكم أحسن أمك عجزت؟
والواحد بقه مش قادر يقعد فى البيت من غيرة أمكم الفارغة.

- أوعى يابه.

- أوعى إيه يا منيرة... أجوز... ده أنا حاموت السنة دى...
جعلتها جملته الأخيرة تجهش فى البكاء، تركته والندم يعذبها أنها كلمت والدها فى هذا الأمر.

رفضت منيرة أن تذهب لتأتى بصينية الطعام وقالت لأمها روى انت هاتيها... يا شيخه حرام عليك تظلمى أبويا.

وعاد السرور ثانية إلى المنزل.

قالت أمه له:

- اليومين دول أبوك مش عاجبنى من ساعة مجه الأمر بهد الساحة
وشيلة الجبانة القديمة وهو مهموم.

- بتقولى إيه يامه يهدو الساحة ويشيلوا الجبانة خبر إيه ده.

- صحيح يابنى.

إنه يعرف ما تعنى الساحة بالنسبة إلى أبيه. والجبانة التى كثيراً ما كان يخشى الاقتراب منها... لقد عرف معنى الموت فيها. كان يلعب مع أصدقائه لعبة الاستغماية. وكانت أمه كثيراً ما تحذره من الذهاب إلى الجبانة والسير على قدميه فوقها فإن لها حرمة، فأجداده مدفونون بها. يذكر قصة رواها أخوه الحاج لبعض أصحابه وكان يجلس معهم أن جده أحمد حين مات أخذوا جسده إلى الجبانة ليدفن بجوار ابنه يونس وساعة الحفر سقطت الفسقية فنزل ابنه يوسف ليدفنه فوجد جثة أخيه يونس قد كشفت وتعجب أن يرى وجه أخيه كأنه مات لساعته لم يتغير شيء فى الجسد، كان صورة من أبيه لا يفرقه عنه إلا أن شعر رأسه وذقنه لم يشيبا كما حدث لوالده فلف الابن والأب فى كفن واحد.

لم تسترع انتباهه هذه القصة حتى كان يختفى فى الجبانة من زملائه فى لعبة الاستغماية، وبينما كان يجرى سقط فى فسقية، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع جسدين يشيه أحدهما الآخر، تسمر فى مكانه، حاول أن يبتعد عن الجسدين فاضطر للمسهما، نظر ثانية فإذا به أمام وجه أبيه. أخذ يصرخ، فسمعه زملاؤه الذين أخذوا ينادون على من يخرجهم من الفسقية.

ذهب إلى المنزل وهو ما زال يصرخ:

- شفت أبويا ميت... شفت أبويا ميت ومعا واحد تانى.

عاد الأب إلى المنزل ليجد ابنه فى حالة هستيرية فأمسك برأسه بشدة وقرأ القرآن فى أذنه.

- أيوه اللى شفته ده جدك يونس وأبوه... اهدأ يا حبيبى.

قضى ليلة من الرعب وهو يرى والده ميتاً. ووالده يسهر الليل بجواره ليحكى له قصصاً كثيرة عن أهله من الأموات، ولم يهدأ إلا حين اقتنع بأن الأموات ليسوا بأموات وإنما هم أحياء يرزقون.

من يومها لم يذهب إلى الجبانة ولا يذكر أنه فكر فى زيارتها أو زيارة الجبانة الجديدة حتى أيام الأعياد حين كانت أمه تذهب فى الطلعة بالكعك لتفرقه على الفقراء والمساكين رحمة على أهلها. كبر ولم يغادره هذا الإحساس الذى أحس به فى صغره وهو يسقط فى الفسقية، إنه يذكر أنه شاهد فيها الفئران والسحالى التى ما إن أحست به حتى هربت ودخلت جحورها، ومع ذلك فهو ما

زال يخشى الفئران والسحالي، وكثيراً ما يسأل نفسه هل صحيح أن ما رآه هو
جسد جديه يونس وأحمد أم أن ذلك كان من صنع خياله؟

تركته أمه لينام، لكن النوم ضاع، أخذ يفكر في الجبانة وجدده وأبيه. فهذا
يوم شاق ومرهق على أبيه وعلى المدينة كلها وعلى أحمد أبو محمد بالذات، ترى
ماذا صنع مع أخيه؟



كانت الساعة الثالثة عندما انتهى دياب أبو محمد من الطعام فى بيت أخيه، وقد جلست أمه بجواره. كانت فرحة أن ينزل ابنها فى البيت فإنه لم يبيت فيه منذ أكثر من عشرين سنة، إنه لا يأتى إلى الأقصر إلا لمهمة أو مع بعض أصدقائه فينزل فى لوكاندة ساقوى أو الأقصر هوتيل. هجر البيت ولم يعد يشعر أنه تربى فيه. أخذ يخجل منه ومن حياته الريفية، ولكن الحمد لله ها قد عاد إلى أصله ثانية.

لا تعرف الأم أن أحمد حاول جاهداً أن يثنيه عن الذهاب إلى فندق.. تضرع إليه وأقسم عليه بروح أبيه وأجداده واستحلفه بالنبى وآل البيت وبحق الله عليه.

قبل على مضض وتأفف، ولكن أحمد كان سعيداً أن يعود أخوه إلى المنزل، رأى فى ذلك بشارة خير.

وقف دياب يغتسل فخلع طاقم أسنانه، نظرت أمه إلى عدة الأسنان ثم إلى وجهه وشعره. لقد تغير كل شىء فى دياب؛ ملامحه ازدادت صرامة وازداد كبراً، هل هو سعيد فى حياته؟ وهل يمكن أن يكون سعيداً؟ بعد أن ترك أهله، وتابع القاهرية التى أنسته العالم. شعرت الأم لأول مرة أنها تنفر منه، إنه بعيد عنها وعن عالمها. لقد حرمت منه سنين... سنين طويلة... ترى هل جاء يعتذر؟ شعورها يقول لا... وشىء آخر فى داخلها يتمنى أن يكون نعم.

جلس دياب وقد خرج أحمد وزوجته من الحجرة ليتركاه مع أمه. نادى دياب أخاه الذى عاد ومعه الشاى:

- أنا عاوز أكلمك فى موضوع.

- خير إن شاء الله.

صمت لحظة ثم خرج صوته خشناً جافاً:

- الأرض ونص البيت.

نظر أحمد إلى والدته التى بدأ وجهها يرتعش وقال:

- استريح دلوقت وبكره ربنا يعدلها وكل اللي تقولوا ماشى.

- أنا عاوزك تعرف إنى مش حقعد كتير، حبيع الأرض ونص البيت.

قالت المرأة بهدوء:

- بتقول إيه يا دياب؟

- سمعت يا أمه.

ردت المرأة بغضب:

- إلا قل لى ياسى دياب بيه... أيوه سى دياب بيه... انت مرحتش لوكاندة ليه...؟

رد أحمد بهدوء:

- أنا دقيت فيه يامه.

- اسكت انت يا أحمد... بقى انت مش جاي تشوفنا... تشوف أخوك اللي ربي البنات أخواتك وشايل أمه.

صرخت المرأة:

- بيت إيه يا دياب بيه اللي عاوز تبيعه... انت تخرج... انت ناسى نصيبى فيه... انت ناسى حقوقنا عليك... أبوك صرف عليك مصرفش على أخوك... أدى آخر تربيتنا فيك.

- يا أمه متزعقش.

- مين قال إن لىك أم... والله انت ما بايت فى بيتنا وروح شوف لك لوكاندة تانية... وأنا رايحة لنور الدين يشوف لنا صرفة فيك.

كانت هذه أول مرة يرى أحمد أمه تغضب على ابنها دياب، وأول مرة يراها بهذه الحدة والصرامة. لقد هز دياب وترًا حساسًا فى قلبها حين تحدث عن بيع نصيبه فى البيت آخر شىء تتوقع أن يصل إليه ابنها. هذا كثير على نفسها... كانت تتصور أن ما يصنعه حالة طارئة سيعود بعدها إلى نفسه ولكنه دائمًا يتمادى... وهى لا تجد سببًا لتمامه.

غضب دياب من قول أمه:

- أنا خارج وأنا حر أبيع نصيبي مبعهوش انت كبرت وخرفت...

- أيوه خرفت... واتجننت، اللي ليها ابن زيك متجننش ليه؟

حاول أحمد أن يهدئ أخاه فلم يفلح، بينما تركت الأم الحجرة ومضت إلى غرفتها.

أصر دياب على أن يأخذ حقيبته ويخرج... حملها وخرج ومعه أحمد الذي سرج حماره ليحمل عليه الحقيبة، ثم أخذوا يسيران على الجسر بمحاذاة التربة حتى وجدا عربة حنطور نام سائقها وقد ترك الحصان يسير دون قيادة أو توجيه، فالحصان يعرف الطريق إلى البيت، نادى دياب على العرجى الذى استيقظ:

- خذنى إلى سافوى هوتيل.

- أنا مش فاضى... مروح.

عرف أحمد العرجى فهو عم عجور:

- معلش يا عم عجور ده الدكتور دياب إذا سمحت خذه اللوكاندة.

رد عجور:

- دياب بيه... انت فين من زمان غايب... خدتك البلاد منينا.

ركب دياب العربة بينما وضع أخوه الحقيبة بجوار مقعد السائق.

- متزعش ياخوى بكره تتعدل وحنروح كلنا للشيخ نور الدين واللى يحكم

بيه يمشى، بس حيكون فى العصر اصله بكره حيهدوا الساحة ويزيلوا الجبانة.

ركب أحمد حماره وعاد إلى منزله، بينما تهديد والدته بأنها ستذهب إلى الشيخ نور الدين يرن فى أذن دياب. حاول عجور أن يزيل عنه النوم بالحديث معه ولكن دياب لم يفتح فمه بكلمة... إنه لا يدرى ما يصنع؟

كان يتصور الأمر سهلاً ككل مرة، ولكن يبدو أن الأمر صعب جداً فوالدته تعلن غضبها عليه. لأول مرة أحس بالانقباض من هذا الشعور. إن زوجته فى حاجة إلى المال تريد أن تغير أثاث المنزل، وأن تعد ابنتها للزواج فقد وصلت لهذا السن، كان يمتنى أن يعطيها لمحمود ولكن زوجته قتلت هذه الفكرة فى اليوم

الأول الذى زارهم فيه بمنزلهم، وهو يعلم أن هذا مستحيل فنظرة محمود إليه فى القطار تنم عن احتقار... أرقته نظرتة... فى هذا الغلام سر من أبيه، نفس نظرة الشيخ التى تقول الكثير. عاد يفكر فى المال، ولكى يحصل عليه لابد أن يلتقى بأبيه الشيخ نور الدين... إن أصعب شىء على نفسه هو لقاء الشيخ. لقد علمه الشيخ الكثير. عجز عن حفظ القرآن فاستدعاه الشيخ وأخذ يقوم بنفسه بتعليمه، فسر له معانيه، علمه القراءات حتى إنه حين دخل معهد قنا الدينى كان يعرف أكثر مما يعرف زملاؤه. أوصى به أساتذته فقد كانوا يكونون للشيخ قدراً كبيراً من الاحترام، وحين انتهى من دراسته الثانوية بالمعهد أراد والده أن يقعده بجواره ليعمل صرافاً إلا أن الشيخ أرغم والده على أن يرسله إلى الأزهر. دخل كلية اللغة العربية، كانت أمتع جلساته فى الأقصر حين يضع المشكلات اللغوية والدينية التى واجهها فى قراءته أمام الشيخ فيحلها له وكأنما قرأها بالأمس وكأنها ليست بمشكلات. وحين ذهب إلى أوروبا تفتح على عالم كبير. عالم من الفردية والشعور بالذات وجد له صدى كبيراً فى نفسه بل تجسد فى داخله ربما أكثر مما شاهد. وعاد ليجد والده قد توفى فقطع جذوره مع أهله، إنه لا يريد أن يرهق بهم وبمشاكلهم، لا يريد أن يتفوق كالشيخ نور الدين. أه لو عاش الشيخ نور الدين فى القاهرة لربما أصبح شيخاً للأزهر فهو لم يشاهد بين أساتذته رجلاً فى علمه وذكائه وإخلاصه. لقد وهب الشيخ حياته للأقصر فسجنت مواهبه أه... أهل الأقصر يلقون بمناعبهم ومشاكلهم على كتفه، وعليه أن يجد حلاً لها، إنه لا يريد أن يصنعوا به مثلما صنعوا بالشيخ نور الدين... الرجل الوحيد من بينهم الذى يكن له الاحترام والتبجيل... إنه يريد أن ينقذ نفسه منهم، لا يريد أن يمنحهم حياته كما فعل الشيخ. إنهم لا يكفون عن مطاردته بالنميمة وهو لا يكثر لهم فهم مجرد كائنات تعيش لتأكل ثم تموت. لقد خطبت له والدته ابنة أخيها فرفض وتصورت والدته أنه ممتنع حتى ينتهى من دراسته وصعقت الأم حين علمت أن ابنها تزوج فى القاهرة دون أن يدعوها، لم تدر ماذا تصنع؟ وفكرت أن تزوجها لابنها أحمد فرحب بالفكرة حتى لا يخرج والدته وخاله. إنه ينظر إلى ابنة خاله اليوم: صحيح أنها فلاحه ولكنها احتملت إخوته وأمه وأنجبت له أولاداً رعتهم خير رعاية ولكنها مع ذلك لا تساوى زوجته. لقد التقى بها فى لندن تدرس الماجستير فى اللغة الإنجليزية، تعارفا وتواعدا على الزواج على أن يتم بعد عودتهما إلى مصر. التقى بأهلها واستغرب فى البداية ألا يسأله عن أهله

فهو لن يكون فخوراً بحضور أى منهم، وهو يعلم أيضاً أن أحداً منهم لن يحضر لو استدعاه، فأسرته لا ترى كفتاً لبنت من بناتها. إنهم مملوءون كبراً وإن بدوا قمة فى التواضع. لا يعرف سبباً لفخرهم أو سبباً لتواضعهم.

شدته هذه الزوجة إلى عالمها فأصبح إخوتها وأقرباؤها عالمه. كثيراً ما كان يضيق بهم ولكن لا خيار له فقد كان يحب زوجته. وهو فى أعماقه لا يعرف السبب. لقد كانت بعيدة عنه، بعد مرور عام من زواجهما لم يحدث بينهما حديث عميق، كانت تعطيه أوامر وعليه التنفيذ. أنجبت له ابناً وبنتين، علاقته بهم قوية، ولكنها ليست عميقة، ليس فيها التداخل الذى كان بينه وأبيه، يشعر بفرديتهم تشبه فرديته، هذه الفردية التى بناها على أنقاض تاريخ طويل من شبابه غير أن فرديتهم تلقائية لا معاناة فيها ربما كانت ثمرة معاناته. لم يسأله أحد. من أبنائه عن أقربائه وإن أخذت ابنته الكبرى تسأله عن أسرتها فى الأقصر. لم يكلمها كثيراً فهو لا يشعر أنه قادر على الحديث عنهم، لقد قطع الحبال بينه وبينهم بغير رجعة، وهو الآن يعود ليبيع آخر ما تبقى له من تراث، ولا يدرى إن كان سيحصل من الشيخ نور الدين على شىء فهو رجل صعب عندما يشعر أنه مع الحق، والحق ليس مع الشيخ نور الدين ولا مع أخيه وأمه وإنما معه؛ فهذا نصيبه فى إرث أبيه. لن يستطيع أن يأخذ حقه غداً؛ فالشيخ غارق فى مشكلته، هدم الساحة وإزالة الجبانة، لعله يفرغ منها فى العصر. إنه يرجو أن ينتهى الأمر قبل قطار التاسعة... يريد أن يرحل... لا يريد أن يبقى فى هذه المدينة أكثر من ذلك... إنه يختنق فيها.

توقف عجور أمام الفندق وقال بلهجة تظهر عدم اكتراث:

- وصلنا يا بيه.

- خد فلوسك.

- متخلى.

أخذ عجور النقود متضرراً فهو لم يكن يتصور أن يأخذ من أحمد أو من أخيه شيئاً عن توصيلة مثل هذه، ولكنه شعر أنه يجب أن يأخذ؛ فهذا الرجل غريب عنه وعن أحمد وعن عالمهما كله.

أخذ الدجاج والسبط والأوز فى الجانب الأيسر من الحوش فى الحركة ومحمود لم تغفل له عين، وما إن أخذ يتابع أصوات هذه الطيور حتى سمع صوت الباب يفتح ثم يغلق، عرف أن والده ذاهب لصلاة الصبح فقام من سريره وانتعل حذاءه ولم يغير جلباب نومه... فتح باب الحوش وأخذ يجرى حتى وصل إلى أبيه ثم صار خلفه بمقدار خطوة إلى أن وصلا إلى مسجد الشيخ أبو الحجاج.

دخل الأب مقصورة جده وأخذ فى قراءة القرآن حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر. قام الشيخ بعد انتهاء الأذان بأداء صلاة الفجر، ثم صلى الصبح جماعة وبعد تسليم الإمام بحث محمود عن والده فلم يجده. دخل المقصورة ثم فتش فى المسجد فلم يعثر لوالده على أثر. خرج من المسجد مسرعاً فتبين من بعد شبح والده لابساً قفطاناً وهو يتجه نحو الجبانة القديمة... أسرع محمود للحاق به، وحين استطاع أن يراه وسط الجبانة كان الأب ما زال يسير، يبدو أنها لم تكن هدفه، أخرج منديلاً من جيبه ثم توقف. انحنى ليمس المنديل من تراب الجبانة واستمر بعدها فى مشيته كان محمود يريد أن يصل إليه، ولكنه أدرك أن والده يريد أن يصنع شيئاً بمفرده. تابعه عن بعد حتى رآه يصل إلى شاطئ النيل عند الجميزة التى كثيراً ما حدثته عنها أمه فهى ترتبط فى ذاكرة أهله بوفاة عمه عبد الرحيم. لم يصل عبد الرحيم إلى مرحلة المراهقة عندما كان ملء سمع وبصر أمه وأبيه. كان ذكياً قوياً. كان وحيد والديه، روى له أخوه الحاج أن عمه أخذ جاموسه لتستحم فى النهر عند هذه الجميزة فأخذه التيار وغرق. بكى الأب ابنه الوحيد. وكان الشيخ أحمد أبو شرقاوى، شيخ الصعيد فى الساحة، قد رأى الآم الأب فدعا له دعوة:

- اللهم أجبر كسره بنور الدين أبو البركات... اصبر يا مصطفى فإن الله مع الصابرين وسيخلفك الله بمن هو خير منه. اذهب إلى بيتك.

سمع مصطفى يونس كلام الشيخ وذهب إلى منزله ونام مع زوجته. إنهم

يقولون إن عدد الأيام التي مرت منذ هذه اللحظة حتى ميلاد نور الدين تسعة أشهر كاملة لا تزيد ولا تنقص.

تذكر أم نور الدين أنها رأت وهي تحمله أن نوراً سقط على حجرها فقررت أن تسميه نور الدين، غير أنها أسمته أحمد في شهادة الميلاد الرسمية على اسم جده غير أن لقب نور الدين أبو البركات غلب عليه حتى إن قليلاً من الرجال بالمدينة هم الذين يعرفون أن اسمه الحقيقي أحمد .

فسى هذا المكان الذى توفى فيه عبد الرحيم أخوه يأتى الشيخ... هذا شىء غريب على ابنه، فأهل المدينة يقولون إن هذا المكان من النهر مسكون بالجن، وإنه يأخذ كل عام طفلاً، ولقد عرف أطفالاً كثيرين أخذهم النهر، يقال إنهم غرقوا فى هذا المكان بالذات عند الجميزة.

نزل الشيخ إلى حافة الشط ووقف ابنه خلف الجميزة مختفياً ينظر إلى أبيه محاذراً أن يراه. أخرج الشيخ المنديل وأخذ يتلو آيات من القرآن ثم وضعه على الأرض وخلع قفطانه ووضع عمته فوق القفطان، خلع لباسه ودخل الماء ثم خلع سرواله وألقاه بعيداً ومد يده ليمسك بالمنديل. لم ير من جسد والده سوى وجهه الأسمر المستطيل ذى العيون القوية ويده اليسرى تضرب فى الماء. كان يتحرك فى الماء كمركب بخارى سريع حتى وصل إلى منتصف النهر فاعتدل واقفاً، يبدو أنه يحرك قدميه ليحتفظ بتوازنه كأنه واقف على اليابسة، وقد أخذ يستخدم كلتا يديه وهو يفتح المنديل وينثر تراب الجبانة وهو يقرأ ياسين. ثم يلقى بالمنديل ويدعو الله:

«يارب النيل... ورب الأرض... ورب البشر... ورب كل حى وجماد... ورب ما يعلم وما لا يعلم... خفف عنا الضر... وارفع عنا البلاء... وارفع الماء لنا منة وثواباً منك».

ثم أخذ يقفز فى الماء ويخرج منه... يبدو الجسد من بعيد كأنه السارى تمساح من تماسيح النيل... حوت يجرى يضرب فى الماء... إنه لا يتبين منه غير حركته، هذا أبوه يصنع ما لا يستطيع أن يصنعه شاب مثله... يتوقف عن القفز ليأخذ فسى السباحة مستخدماً كلتا يديه، يضرب الماء بقوة حتى يصل إلى الشط الآخر... ترى هل يستطيع أن يعود دون أن يستريح؟ ولكن الشيخ لم يتوقف عند

الشط الغربى بل عاد يسبح وكأنه يسابق سمك النهر... قارب يمر يمينًا وآخر يمر يسارًا ثم يختفى أبوه ولا يظهر له أثر فى الماء.

ماذا يصنع محمود؟ هل يصرخ...؟ هل يطلب النجدة؟ أينزل إلى النهر لينقذ والده؟ توقف لحظة وهو يرى ماء النيل يرتفع وكأنه حوض مغلق فتح عليه صنبور ماء.

قرر محمود أن يصرخ، وقبل أن تخرج الصرخة كان الشيخ يظهر فى منتصف النهر. ليقفز فيه قفزات متعددة وكأنما هو قطعة من المطاط تلقى فوق الصخر لترتفع ثم تعود لتسقط.

توقف الشيخ ليأخذ فى السباحة عائدًا إلى الشط الشرقى وقد تغير شكل الماء من الزرقة إلى الحمرة. رأى جسد والده يطفو على سطح النهر وهو يضرب الماء بقدميه ويديه ضربات القوى الواثق حتى عاد إلى الشط فرأى جسد أبيه لأول مرة عاريًا سرعان ما أخفاه الشيخ حين لبس سرواله، وأخذ يكمل لبس ملابسه والماء يتساقط عليها ليبلها بلأ خفيًا... وابنه ينظر إليه لا يشعر أنه ينظر إلى جسد أبيه بل إلى إله فرعونى قادم من عالم اللانهاية.

حين عاد الشيخ إلى البيت كان محمود غارقاً في أفكاره مشدوداً إعجاباً بهذا الرجل - قام الشيخ فغير ملابسه، لبس الجبة والقفطان وربط الحزام على وسطه، ثم لف عمامته على الطربوش الأحمر وأخذ في الانصراف وهو يطلب من محمود أن يقابله عند الساحة ولكن محمود لم ينتظر فانطلق في صحبة أبيه حتى وصلا إلى الساحة.

استغرب الشيخ من المنظر فقد غطى الفضاء المجاور للساحة بالناس جاءت من كل مكان من إقليم الأقصر، رجال من شمال الأقصر ومن جنوبها معهم حميرهم بمقاطفها المدلاة على جانبيها وجمال جاءت تأخذ من تراب الساحة والجبانة لتلقيه على الأرض المباركة. تراب الأجداد يعانق تراب أرض الأجداد... جاءت الرفاعية بأعلامها وطبولها يقودها الشيخ محمد عبد العزيز وتوافد كبار رجال قرى الأقصر على خيولهم المزركشة استعداداً للعب المرماح، على أنغام الزمر البلدى. لم يكن الشيخ يريد ذلك كله؛ كان فقط يريد نقل التراب ولم يكن يود أن يجعل من نقل أجساد أجداده فرجة لأحد... لقد ذبح القادمون الذبائح وبدأوا يقيمون أفراناً للطبخ... إن على الناس أن تصنع ما تريد، وعليه أيضاً أن يصنع ما يجب عليه.

أخذ الناس في هدم الساحة فلم يكن هناك أجراء فالأهالى يريدون أن يأخذوا البركة بصنيعهم. وصل الحفر في حجرة الشيخ سلامة إلى ستة أمتار وليس هناك أثر لجثة. والحمير تحمل التراب وتنقله بعيداً عن مكان الساحة، استمر الحفر مترين آخرين ولا أثر. نظر أحد الرجال إلى الشيخ نور الدين وسأله:

- نعمل إيه تانى يا سى الشيخ؟

صرخ الشيخ:

- احفر ياراجل.

إنه متأكد أن جده يسكن هنا بل متأكد أكثر أن معه أربعين ولياً من أولياء الله الصالحين.

انتقل خوف الرجل إلى الناس في الشارع المكتظ بهم فربما لا يكون في حجرة الشيخ سلامة شيء غير التراب.
وبدأت المعاول تتحسس شيئاً. والشيخ يصرخ...
- خف إيدك أنت وهو.

فخفت المعاول وأخذت تتحرك كأنها يد حنون تربت على وليدها حتى برزت الجثة الأولى... وصرخ الرجال الله أكبر... وتعالى صرخات الناس في الخارج: الله أكبر.

نادى الشيخ نور الدين عم أبيه الشيخ الشافعى وهو أصغر منه سناً.
- عم الشافعى هات الأكفان...

ولف الجسد في كفن وهو يقرأ القرآن والناس في الخارج تتلو البسملة بصوت مرتفع. حاول البعض أن يقترب فمنعهم الشيخ:
- لا يقربن أحد من هنا... فهذا سر من أسرار الله... يا أهلى الموت سر... لا تنكشفوا على الأسرار.

بدأت جثث تظهر وعظام لا حصر لها في حجرة الشيخ سلامة.

لف الشيخ بقية الجثث والعظام في كفن واحد وسأل أن يرسلوا له عربة كارو لتحمل الأجساد، ومضى إلى الجبانة والناس يتجهون نحوه وحين اقترب من مدخلها نظر إلى الناس ورفع صوته قائلاً:
- يا جماعة مش عاوزين أى حد يقرب من هنا، اللي يعرف له ميت بس ييجى.

تقدم الشيخ عمران سيد الشقيرات ومعه بعض الرجال إلى مساكن أجدادهم كما تقدمت بيوت الحجاجية، كل منها يتجه إلى مساكن أهله، كما تقدم أهالى نجع الحمارة والسوالم إلى مقابر أجدادهم. ووقف الشيخ وابنه مع ابن عمه أبو المجد يونس ومعه الشيخ الشافعى وابن أخيه شفيق عند مقبرة جديه أحمد ويونس. نظر إليهما محمود فإذا بهما كما رأهما عندما كان طفلاً، يا سبحان الله،

جمعهما والده فى كفن واحد كما جمع بقية الأجساد والعظام من المقبرة والمقابر المجاورة، وكانت الحمير تحمل التراب ووالده يبحث بين التراب عن أى شىء يدل على أن حياة خبئت فى هذا المكان. لقد تغير وجهه واسمر قفطانه الأبيض ذو الخطوط الذهبية وتعفرت جبته، أما طربوشه الأحمر فقد أخذ لون التراب الأسود، والعمة بالتأكد لم تعد ببيضاء. نظر الشيخ حواليه فوجد حسان المقاول يقف مع السوالم.

- يا حسان.

- أيوه يا سيدنا الشيخ.

- أنا مش قلتلك متجيش هنا.

كان وجه حسان متغيراً عنه بالأمس.

- ليه يا سيدنا الشيخ دول جدودى ولا مش جدودى يعنى تحرمنى ليه إنى ألم جدودى... أنا آسف على امبارح. ادع لى ربنا يغفر لى... أهى غلطة... لو انت رضيت أنا انهارده مرضاش. يا ولداه الموت صعب... ودول جدودنا الكرام.

كان الرجل صادقاً وكان صوته يعبر عن ذلك.

- فين لوريك يا حسان؟

- عند المركز.

- تقدر تجيب كام لورى؟

- اتنين واحد بتاع خليل والثانى بتاع نظير.

- خليك متمشيش من هنا إلا لما أقول لك.

كانت الساعة قد قاربت العاشرة وكان واضحاً أن الحفر انتهى، وقد جمعت كل أسرة أجساد وعظام أهلها فى كفن واحد... طلب الشيخ من حسان أن يحضر اللوريات بسرعة إلى هنا... نادى الشيخ مشايخ العائلات وسأل:

- حتعملوا إيه دلوقت؟

- البلد كلها عازمة تحتفل بالموتى وحنحطهم فى عربيات ونلف البلد وبعد كده ندفنهم فى مدافنا.

- أولاً دول حيدفنوا سوا شقيرات وسوالم وحجاجية وأبيض أو أسود وغنى وفقير والمعروف وغير المعروف... عاشوا سوا وادفنوا سوا

ويرجعوا تانى ويدفنوا سوا... الشيخ أحمد النجم يوسف فتح فسقية بجوار مقام السيد يوسف حندفنهم فيها... وحكاية لف الشوارع بلاش منها... حرام عليكم تخلوا موتانا فرجة... إحنا حنحطهم فى عربات لورى ونصلى عليهم فى السيد يوسف... وحندفنهم فى صمت... الشيخ أحمد النجم منتظرنا.

لم يستطع أحد من الموجودين حول الشيخ أن يعترض على كلامه. وحتى لو اعترض أحد فإنه لن يجد استجابة من الباقين، ولم يكن الشيخ يتوقع من أحد الاعتراض. رأوه يكلم ابنه محمود وهو يشير إلى فارس من بين الفرسان الذين يلعبون فى المرماح.

- هو ده ود محمد يوسف العمارى؟

- أيوه يابا ده حرز الله.

لم يكن والده قد تعرف على حرز الله، فكيف عرفه وعرف والده؟ لم يستطع أن يخفى تساؤله.

- عرفته إزاي يابا.

- الفرس اللى راكبه من ذرية فرسى القديمة روح ناديه... ييجى بسرعة.

مضى محمود لينادى حرز الله، لوى رقبتة لينظر إلى والده فوجده مشغولاً فقد حضر حسان بعربته ووراءه بعربة أخرى خليل يتبعهما نظير بعربة ثالثة. أسرع محمود ليحضر حرز الله بينما كانت الأجساد تحمل فوق العربات. ركب من استطاع من أهل الموتى فيها، ثم انطلقت دون توقف بين ذهول الناس الذين أخذ عددهم يتكاثر، فهم لم يتوقعوا أن تجرى العربات بأجساد أجدادهم دون أن يقيموا لها الاحتفال اللائق. صرخ بعض الموجودين:

- لأ وقفوا... العربيات مش حتمشى.

نظر الشيخ إلى الواقفين أمام العربة بينما حرز الله قد وصل بحصانه قرب الشيخ ومعه محمود.

- سيب الحصان يا حرز الله... وتعال انت ومحمود تروحوا مسجد السيد يوسف... الحصان حيكون هناك.

أمسك الشيخ بلجام الحصان وأخذ يوجه نظراته إلى الناس المتجمعين وإلى

الجمال والحمير التى تحمل التراب. ترك اللجام من يده ورفع يديه إلى السماء يدعو ربه أن يجعل فى هذا التراب خصباً للأرض. أنزل الشيخ يديه الضارعتين وعاد ليمسك بلجام الحصان... تحركت الجمال التى تحمل محامل المشايخ وأتباع الطرق الصوفية تتعالى أصواتهم بذكر الله.

كان الشيخ يبدو ساهماً إلا أنه تغير فى لحظة سريعة، رآه محمود كما رآه كل الموجودين يقفز على صهوة الجواد كأنه فتى فى العشرين من عمره، تحرك بالحصان ببطء ليقترب من العربات. لم يكن الشيخ فى حاجة إلى أن يرفع صوته فى الناس فقد ابتعدوا عن العربية وأخذوا ينظرون إلى الشيخ فى صمت، وكأن حدثاً جديداً قد حدث ليغير من موقفهم هذا. وقف الشيخ بحصانه فى محاذاة عربية حسان ورفع صوته:

- امش يا حسان انت وخليل ونظير على بركة الله.

سارت العربات وترك الناس لها الطريق، وقد اصطفوا على الجانبين، وما إن ابتعدت عنه العربات حتى لوى حصانه فى مواجهة النيل ثم شد اللجام وضرب بظرفه كتف الحصان اليمنى ثم اليسرى، وأطلق اللجام فأخذ الحصان يسبح على الأرض وقبل أن يفيق الناس من تعجبهم كان الحصان يغيب عن أعينهم.

صرخ حرز الله:

- خيال... فارس مجبتهوش ولادة... ده حصانى... عمره معمل كده...

وقف محمود صامئاً سمع صوت فريد وكان يقف مع مجموعة من الأطفال:

- عاش... عاش... عاش...

رد الأطفال:

- الشيخ نور الدين.

ثم هتف طفل آخر بالهتافات الانتخابية:

- تنتخبوا مين؟

رد الأطفال وشاركهم الهتاف بعض الكبار:

- الشيخ نور الدين.

قال أحد الواقفين بجوار محمود:

- لقد انتخبه الله.

ترك الفرسان السباق ولووا أعنة خيولهم نحو السيد يوسف تبعهم خلق كثير. وصلت العربات الثلاث إلى مسجد السيد يوسف لتجد الفرس الذى كان يركبه الشيخ نور الدين مربوطاً فى جذع نخلة أمام المسجد، ويبدو أن الشيخ قد أراد أن يطمئن إلى كل شىء قبل أن تصل العربات.

وقف أمام الجامع الشيخ أحمد النجم صلى صلاة الجنازة ثم يعود المصلون بالأجساد إلى المقبرة. يهيل الشيخ نور الدين التراب - مع أعمامه وأبناء أعمامه وكثير من أهل البلدة - على أجساد وعظام أجداده، وهم يقرأون القرآن ويدعون الله لهم وللمسلمين أجمعين بالمغفرة والجنة. يلقي الشيخ بآخر حفنة من تراب يتبعها بكلمته للشيخ سلامة:

- يا الله السلامة يا شيخ سلامة... الملتقى قريب.

ويغادر المكان فيجد الشيخ محمد عبد العزيز شيخ الطريقة الرفاعية أمامه:
- هذه حال الدنيا يا شيخ نور الدين.
- الدوام لله يا شيخ محمد.

يذهب الشيخ محمد عبد العزيز إلى مقبرة والده بينما يمضى الشيخ نور الدين عائداً إلى مسجد أبو الحجاج مطأطئ الرأس حزينا. يسير بجواره الشيخ الشافعى طيلة الطريق لا يقول أحدهما للآخر كلمة؛ فقد انغرس معنى الموت فى قلوبهما بعمق فأحدث الصمت. سار وراءهما محمود... غلبته مشاعر شتى فهذا اليوم تاريخ جديد فى حياته، يمهده إلى أجداده وإلى أرضه وتراثه، إنه لا يشعر بذلك الحزن الذى يشعر به والده ولكنه يشعر أن شيئاً ما قد كسر فى دائرة حياته، وأن شيئاً جديداً لابد أن يبدأ. إحساس غامض تبدأ معه الحياة كما يبدأ الموت.

وصل محمود إلى أطلال الساحة فوجد الشيخ نور الدين ومعه عمه الشيخ الشافعى ينظران إليها وقد غابا فى صمت عميق. ثم رأى والده والشيخ الشافعى يغرقان فى بكاء عميق.

كان فى نية الشيخ نور الدين أن يذهب إلى منزله بصحبة ابن عم أبيه الشيخ الشافعى غير أنهمما بدلا من أن يتجها إلى المنزل سارا مع النيل حتى اقتربا من الجبانة القديمة فعرجا عليها وهما لا يتوقفان عن قراءة القرآن ترحمًا على الموتى، ثم اتجها إلى أطلال الساحة... ابتعد كل منهما عن الآخر وهو ينظر إلى السبقيات... لا شك أن كلاً منهما كانت تثير شجونه أشياء مختلفة عن الآخر فكلاهما كان غارقاً فى نفسه، يعيش لحظة مع أفكاره، يسترجع ماضيه مع الساحة، وما يمثله هذا الماضى لكل منهما.

كان الشيخ نور الدين ينظر إلى الأطلال ويطيل النظر... يتمتم بكلمات، خرج صوته هامساً «لقد أخذوك منى أيتها الحبيبة... ولكنها إرادة الله...» رفع عينيه فالتقتا بالبربة... نقل ناظريه حولها ثم تركزتا فى طاقة البربة... البعد بين هذه الطاقة والأرض كبير الآن... لقد كان لا يزيد على طوله كثيراً... كم كانت هذه البربة قريبة إليه. كان يحبها حباً لا يقل عن حبه للساحة... الفرق بينها وبين الساحة أنها كانت له وحده، بينما كانت الساحة للناس جميعاً. إنه يذكر أنه كان يتسلق جدرانها وهو ابن الثانية عشرة من عمره... كم كان سعيداً وهو يرى من هم فى سنه ينظرون إليه فى إعجاب.

شعر يوماً بالرغبة فى أن يتسلقها... لم يكن هناك أحد يشاهده... توقف عند طاقة البربة... دخلها... أخذ ينظر إلى القاع وجده مظلماً... اهتز وسقط على يديه فى قاعها... كانت الأرض حنوناً عليه لم يصب بأذى... هب واقفاً... امتلاً بالخوف... أخذ يرتعش فهو يعلم أن البربة مسكونة بالجن والعفاريت... استجمع نفسه... فكر فى أن يتسلق الحائط، فوجد أن ذلك مستحيل... الحائط ناعم ليس فيه شقوق، يتحسسه بيديه فهو عاجز عن الرؤية... حاول ثانية، أدرك صعوبة التسلق فالحائط يميل تجاهه بعكس الحائط الخارجى... استسلم لعجزه... تذكر الجن والعفاريت. أخذ يصرخ دون توقف «الحقونى»... طال صراخه. لم يلحقه

أحد... توقف عن الصراخ... أدرك أنه سيموت إذا لم ينقذه إنسان... أخذ يفكر فى طريقة للخروج من البربة...

لا يدري ما يصنع؟ أخذت عيناه تتعودان الرؤية فى الظلام. رأى الجن والعمالقة واقفة على الحائط أمامه... خاف... التصق بالحائط... نظر جواره إلى الناحية اليمنى وجدها واقفة... أدار وجهه للناحية اليسرى، أدرك الحقيقة... إنها مجرد صور... أخذ يمعن النظر فى الوجوه المحفورة على الحائط... صور لفرسان تحارب... وأسرى، وأخرى لرجال يقفون فى وقار مبتسم... إنه يعرف هذه الوجوه... تشبه وجوه أعمامه وأبناء أعمامه... رجل عار يظهر عورته، رأس كلب... وجه قط... صورة صقر... جسد تمساح... العالم كله هنا... توقف عند صورة امرأة تحمل طفلاً بين يديها تقف وقفة ملوكية... شدته عيونها... تنظر إليه تناديه... أخذ يتأمل... شعر بأنه يعيش فى عالمه... وأن شيئاً يسحبه إلى السماء... يشده نحو قوة عليا تسيطر عليه... شعر بحب الله، حباً بلا خوف صافياً نقياً... تحرك داخل الفناء فى البربة... أصابه يقين أن هذا المكان مقدس مثله مثل المسجد، أو الساحة... إنه مسجده هو... صنعه الله له ليصلى فيه بجوار هذه الوجوه التى يعرفها... تذكر جده الكبير أبو الحجاج فقد بنى مسجده فى مثل هذا المكان... وقف وسط الفناء تصور مكان القبلة، نوى الصلاة... أخذ يرفع صوته وهو يرتل القرآن الكريم... أنهى صلاته وعاد إلى ترتيل القرآن، وجد متعة وهو يرفع صوته بالورد الذى يتلوه أهله فى كل مناسبة دينية أخذ ينشد:

تباركت يا الله ربى لك الثناء

لم يكن ينشدها وحده... إنه متأكد من ذلك فلقد تعالت أصوات أصحاب هذه الصور، خرجوا من أماكنهم... شاركوه الذكر... هذا المكان لا شك مقدس... إنه يشعر لأول مرة بمعنى الكلمات وحقيقة الإيمان... حتى الصلاة لم تعد تقليداً تعودته عن أهله، إنه يؤديها بفهم عميق... عرف خشوع الإيمان... الوقت يمر فلا يشعر به... حل الظلام... لا يرى أحداً ولكنه يسمع أصواتاً تذكر الله معه... لم يفكر فى الخروج من البربة... حين يتعب سينام مع أهله... نعم إنهم أهله... وجدهم... اكتشفهم... مشكلة الجوع سثحل... هو غير جائع الآن، لا يحب أن يفكر فى الجوع حتى يشعر به وعلى أية حال فهى مشكلة جماعية ما يصيبه يصيبهم... ولا بد أن هنا طعاماً للجميع... سمع حركة الفئران والسحالى... تضايق أن يسكن

مسجده فتران وسحال... أخذ يقرأ سورة ياسين... وصل إلى الآية «سلام قولاً من رب رحيم».

توقف فقد رأى ضوءاً يسقط من الطاقة وسمع صوتاً ينادى:

- يا نور الدين... يا نور الدين...

عرف صاحب الصوت... ابن عمه الكبير يونس أبو أحمد.

- أبوه يا شيخ يونس.

- انت هنا... إيه اللي جابك هنا؟

أدرك نور الدين أن أهله قد تغيبوه فأخذوا فى البحث عنه، ولكن كيف عرفوا أنه فى البرية؟

لم يكن نور الدين يعرف حقيقة ما حدث، لقد كان أول مَنْ لاحظ غيابه عمه أحمد، سأل عنه. لم يجده، تصور أنه ذهب إلى البيت ولكنه حين عاد إليه بعد صلاة العشاء لم يجده هناك، سأل عنه والدته التى كانت بدورها قلقة لغيابه، قال الشيخ أحمد أبو الدقون:

- لازم مع أبوه فى الزرع فى مشايخ عطية.

وقبل أن ينتهى من عبارته كان الشيخ مصطفى والد نور الدين يدخل المنزل عائداً من الحقل دون أن يكون نور الدين معه... اهتز البيت اهتزازاً شديداً لغياب نور الدين، سأل الشيخ أحمد أبو الدقون عنه ابنه محمد صاحب نور الدين فأجابه بأنه لا يعرف مكانه.

صرخت الأم فقال يونس الابن الكبير لأحمد أبو الدقون:

- متخافيش يا خالة... أنا حجيبو من تحت طقاطيق الأرض.

ثم خرج لياتى بنور الدين. كان اتجاهه بيت بصيرى العبادى صاحب نور الدين. سأل عنه أمه فأخبرته بأنه غادر المنزل منذ أكثر من ساعة. ظن يونس أن نور الدين خرج مع بصيرى. ولكن أين؟ سمع يونس صوت أخيه محمد يناديه:

- بصيرى بيحاول يركب البرية.

أسرع يونس ليرى بصيرى.

- يا ولد انزل... لتقع...

أدرك يونس أن نور الدين فى البربة.

استغيب بصيرى نور الدين، أحس بأنه لا بد أن يكون قد حاول أن يتسلق البربة فسقط فى قاعها، ولم يرد أن يبلغ أحداً حتى لا يعاقب نور الدين، وفكر فى أن يخرجها منها بنفسه... كان يعلم أن الأمر صعب عليه ولكن المحاولة لن تضر. فالبربة خطر؛ فيها عقارب وحيات وعفاريت وجن، وحين سمع صوت الشيخ يونس تنفس الصعداء فهو لم يفش عن صديقه سرّاً.

صرخ يونس:

- الواد شقى ومش حيجبها البر. أنا حجيبه وأكسر راسه علشان ميعملهاش تانى...

كان السناس قد تجمعوا حول البربة ومعهم مصابيح غازية، وقد أحضر يونس حبلًا ثم تسلق البربة حتى وصل إلى الطاقة وبعد أن نادى نور الدين ألقى إليه بحبل...

- اربط الحبل كويس فى وسطك وامسك فيه.

فكر يونس أن يضرب نور الدين بقسوة بعد أن يخرجها من البربة إلا أنه لم يصنع ذلك بل لم يقل له كلمة تأنيب... لقد سمعه يقرأ القرآن فى الخرابة... غريب نور الدين... نظر إليه... فى وجهه شيء جديد، يخرج به من البربة، يدفع يونس لاحترامه... فقال لنفسه «فى نور الدين سر... الله وحده أعلم به... كيف ينزل هذه البربة المخيفة ولا يظهر عليه الخوف».

فكر عمه الشيخ أحمد أبو الدقون أن يمسك برأسه ويقرأ له القرآن ليحصنه من الشياطين التى تسكن البربة إلا أن وجه نور الدين جعل العم يتوقف عن صنع ذلك فقد شعر أن ابن أخيه «محصن من كل شيطان رجيم». الشيء الغريب الذى يتذكره نور الدين أن أحداً لم يقل له لا تذهب ثانية إلى البربة... يبدو أن الجميع قد أدرك أنه سيذهب إليها.

لقد فكر طويلاً فى الطريقة التى يدخل بها البربة ثم يخرج فى الوقت الذى يريد... هداه تفكيره إلى أن يأتى بحبل طويل فهو يريد أن يلتقى بأهله وصحبه يذكر الله معهم وبينهم... لن يفهم أحد هذا... لن يدرك أحد ما يحس به... فهذا سره الذى لا يجب أن يطلع عليه غير الله.

هداه تفكيره إلى أن يأتي بحبل طويل يربطه فيما بين رأس تمثال رمسيس المجاور للبربة وتاجه، ثم يتسلق البربة ويلقى بالحبل من الطاقة وينزل به، وبعد أن يصلى ويعيش مع وجوه أهله المرسومة على الجدران يؤدي فرائض عبادته، يعود. كان عمره خمسة عشر عاماً حين حاول ذات يوم أن يتسلق البربة كعادته حين فوجئ بشخص يمنعه من تسلقها، غفير جديد من خفراء الآثار...

- ياد ابعد.

- لا مش باعد.

- إن مبعدتش حوديك فى داهية.

اقترب الرجل من نور الدين وحاول أن يدفعه بعيداً عن البربة فإذا بنور الدين يحمل الرجل ويلقيه على الأرض. يصرخ الرجل فيأتى لنجدته عدد كبير من خفراء المعبد. يأخذ نور الدين فى مصارعتهم فيراه بصيرى العبادى وابن عمه محمد فيأتيان لنجدته. لم يكن نور الدين فى حاجة إليهما، فقد استطاع أن يختطف عصا أحدهم، وأخذ يضرب بها الخفراء الذين عجزوا عن النيل منه. تروى الروايات أن وجه نور الدين قد تغير وكأنما لبس لبدة الأسد. بصيرى العبادى يحلف بأن الخضر عليه السلام قد مسه بقوته العظمى حتى إن محمداً وبصيرى العبادى، وقد جاءا لينقذاه، خافا أن يقتل نور الدين الخفراء فأخذوا يمسان به ليمنعاه عنهم، لكن نور الدين لم يهدأ ضرب محمد وبصيرى، قال محمد «ربنا يستر»، وستر الله فقد وصل يونس مسرعاً من الساحة ليصرخ فى نور الدين.

- إيه ده يا نور؟... انت بتشتغل عصبجى.

تسمر نور الدين فى مكانه حين سمع صوت ابن عمه الكبير:

- روح اسبقنى ع الساحة.

حاول الشيخ يونس أن يهدئ الرجال. أخذهم إلى الساحة، فالموقف معقد جداً لقد كسر ذراع رجل منهم، وأصاب اثنين برضوض شديدة.

هدأ الشيخ أحمد أبو الدقون الرجال واعتذر لهم عن فعله ابن أخيه... تألم الشيخ لما صنع نور الدين، وعندما رآه أمامه صرخ فى وجهه:

- يا نور... متى كنا أهل قتال ومشاجرة؟

- يا نور... لا تخرج أهلك عن سلامهم...

- يا نور... اتق الله فى أهلك وهم أهلك، لقد أعطاك الله القوة فلا

تستخدمها إلا في موضعها... يا نور ما ذنب هؤلاء الناس؟
- يا نور اتق الله في قوتك، قبل رأس الناس الذين أسأت إليهم.

كان نور الدين مطرقاً... إنهم يحرمونه من المكان المقدس الذى يخلو فيه للقاء ربه... وها هو ذا يرتكب جرماً لم يصنعه من قبل أحد من أهله... قال لنفسه «يا الله... ماذا أصنع؟»
وهنا ارتفع صوت من خارج الساحة:
- يا نور الدين... يا نور الدين.

يعرف نور الدين الصوت جيداً فهو صوت الشيخ الطيب. هروا إلى الخارج بينما وقف كل الرجال فى الساحة احتراماً وتقدموا ليستقبلوه وقد بهتوا للمفاجأة.
عندما خرج نور الدين من باب الساحة كان الشيخ الطيب يصعد مهرولاً السلام المؤدية للباب. كان يسير وسط السلام وقد رفع يده اليمنى إلى الهواء كمن يتحسس حائطاً تقوده داخل الساحة. لو أن نور الدين والموجودين فى الساحة لم يكونوا يعلمون بفقد الشيخ لبصره لما تصور ذلك إنسان.
قبل نور الدين يد الشيخ الطيب.
- شيخنا.

- يا نور الدين... يا نور الدين.
أمسك نور الدين بيد الشيخ الطيب وهو يدخل الساحة، تقدم عمه الشيخ أحمد أبو الدقون ليرحب بالشيخ بينما كان مستمراً فى حديثه لنور الدين.
- يا نور الدين... لا تبحث عن الخلوة بعيداً عن الناس... فأنت للناس. قد يخلو العبد إلى الله وهو بين الناس. اللهم اغفر لنور الدين.

أمسك الشيخ أحمد أبو الدقون بيد الشيخ الطيب الأخرى - وقد أدرك أن هناك شيئاً لا يعلمه بين هذا الغلام والشيخ الطيب - فهو يرى ما لا يراه المبصرون.

قبل نور الدين يد الشيخ الطيب ولم يكلمه فى شيء، وذهب إلى الرجال ليصافحهم فوجدهم فى غير حاجة إلى مصافحته فلقد غفروا له.

* * *

منذ هذا اليوم أصبحت البربة جزءاً من معبد الأقصر.

بدأ الحفر داخلها ليزيلوا التراب حتى تكون صالحة للأجانب... صنعوا سوراً حولها، وصنعوا قانوناً يعاقب مخترقها...

عندما علم بأن على من يريد دخول البرية عليه أن يأتى بتصريح خاص من مصلحة الآثار، حصل على التصريح، دخلها فتألم كثيراً... ليست هذه بربته... لم يجد أهله هناك... وجد صوراً... لقد اختفى أهله عندما حاولت مصلحة الآثار أن تكشف أسرارهم... ضاعت البرية، أخذها منه اللصوص... سرقوها.

خرج من البرية منكس الرأس ينهش الحزن قلبه... عاد ثانية إلى الساحة... رآه عمه الشيخ الشافعى... استغرب من منظره... ناداه:
- يا نور الدين... إيه فيه؟... مات لك ميت انهارده.

أطرق نور الدين وخرج من الساحة وأخذ ينظر إلى جدار البرية وهو يكلم نفسه «نعم مات لى ميت يا عم» وأجهش فى البكاء.

لقد ضاعت منه البرية... والآن تضيع منه الساحة... أخذوا واحدة وهدموا الأخرى من أجلها... راح الشيخ نور الدين فى نشيج قوى... الغريب أن عمه الشافعى كان قد بدأ البكاء معه فى نفس اللحظة.

لم يطل غضب الأهالى كثيراً لسرعة نقل رفات الأجداد دون احتفال، فقد أدركوا الموقف، وتقبلوه واستمروا فى احتفالاتهم غير أنها لم تبق طويلاً؛ فبعد أن نضجت لحوم النذور وأكلت، ذهب كل فرد إلى بيته، غير أن الأحاديث أخذت تنتقل من مكان إلى مكان عن كرامات الأجداد، فقد ارتفع ماء النيل فجأة بشكل يدعو للدهشة ويبشر بفيضان رخي بعد تأخر وصوله. وحديث آخر يذكرونه عن الشيخ نور الدين بأن الأجداد ظهروا له فى المنام وطلبوا منه أن يدفنهم فى صمت، كانت هذه هى أحاديث اليوم الأول... ماذا يمكن أن يقول الناس غداً فالنساء العاقرات توافدن على الجبانة وعلى المقبرة الجديدة بالسيد يوسف يطفن حولها سبغاً. من يدرى ما يخفى الغد لهؤلاء النسوة... تكلم الناس فى أشياء كثيرة عن الشباب الذى يعمل فى السياحة ولم يهتم بأن يحضر ساعة إخراج الجثث، والذين حضروا جاءوا مع وفود سياحية ليروا السياح تقاليد الأقصر، وأكثر من نالت السنة أهل الأقصر مرشحي الانتخابات فإنهم جميعاً خرجوا اليوم لزيارة القرى المجاورة، وعلموا من أهل القرى التى زاروها أن أهم رجالها فى زيارة للأقصر للاحتفال بنقل رفات الأجداد. والغريب أنهم تضايقوا لا لأنهم لم يحضروا لحظة نقل الرفات، وإنما لأن فرصة الدعاية لأنفسهم بين الجماهير القادمة من الريف قد ضاعت، فمدينة الأقصر لا ثقل لها من حيث عدد الأصوات الانتخابية فمعظم الناس لا يثقون فى الانتخابات وفى المرشحين ومعظمهم لا يذهب ليدلى بصوته فى صناديق الانتخابات، ومن يدلى بصوته فإنما يذهب مجاملة لمرشح من المرشحين، ولكن قوة الأقصر تكمن فى أجهزة دعايتها القوية والمؤثرة على الفلاحين الذين يفدون كل يوم لقضاء حاجاتهم فى البندر.

استغل جميع المرشحين دون استثناء خبر نقل الجبانة فطبعوا إعلانات يعدون فيها ناخبهم بأنهم سيعملون على عدم هدم الساحة والجبانة القديمة. ولم يبلغ الشيخ نور الدين أحداً بموعد هدم الساحة ونقل الجبانة ومع ذلك فقد سرى الخبر إلى القرى المجاورة ولم يصل إليهم.

عندما ترك محمود مكانه قرب الساحة كان يرى أخاه الحاج حجاجي قادمًا من أسوان فاقترب منه وسلم عليه وأشار إلى مكان أبيه.

لقد ابتعد محمود عن أبيه حتى لا يراه لحظة بكائه فهو لم يره قط يبكي. لا بد أن الأمر أقوى من كل قوته. لقد رآه في الصباح يخرج من سماء آلهة الفراعنة والآن يجده في ضعف عامة البشر، لكم يحبه في قوته وفي ضعفه، ولعل والده كان أقرب الناس إلى نفسه وأحبهم ساعة بكائه، لكنه مع ذلك يكره أن يراه في هذه الحالة. أخوه الحاج أقوى منه وأقرب إلى نفس أبيه، يعرف ذلك جيدًا ولا يضايقه فهو نفسه يحب الحاج حبًا لا يعادله إلا حبه للشيخ نور الدين.

احتضن الحاج والده ومسح دموعه بيده وأخذ جده الشيخ الشافعي بيده وسار بهما بعيدًا عن آثار الساحة، وبعد أن ابتعد الشيخ نور الدين عنها اقترب محمود لينظر إلى أطلالها فوجد تمثالاً لأحد آلهة الفراعنة.

عاد محمود إلى المنزل فوجده يغص بعدد غفير من الناس فكانما مات الأجداد اليوم وهم يأتون للتعزية. كان مشايخ العائلات أول من وصل. جمعتهم الساحة على حب كبير، وكأنما أدركوا أنه كما عاش أجدادهم وماتوا معًا فعليهم أيضًا أن يعيشوا ويموتوا معًا. حضر الأب عبد المسيح وهو تلميذ الشيخ في مدرسة الأقباط وكان من أشقى الطلبة، بعد أن مات والده طلب الشيخ من أهله أن يعمدوه خلقًا لأبيه، فذهب إلى كلية الكليريوس وعاد أهدأ نفسًا. لم ينس الشيخ نصحه لأهله فهو يحب دوره الجديد ويمتلئ طموحًا في أن يساهم في إصلاح مجتمع الأقصر.

حضر محمد عياد ومعه مجموعة من حاشية الانتخابات وأخذ يلوم على أن أحدًا لم يبلغه الخبر. فلم يرد عليه الشيخ فقد قدم في نفس اللحظة منافسه عبد السروعوف العديسي والتقى الغريمان وتصافحا، وأخذ العديسي يلوم أيضًا على أن أحدًا لم يبلغه الخبر، لم يكن الشيخ يريد هما ولا حاشيتهما أن يبقيا أكثر من ذلك فقال كلمة تعنى النهاية:

- الفاتحة ربنا يأخذ بيدكم وينجحكم.
- قرأ الجميع الفاتحة، ثم خرج المرشحان وأتباعهما ضحك رضى سليمان
- إزاي يقرؤا الفاتحة بنجاح الاثنين؟

رد الشيخ نور الدين:

- النجاح مش فى الانتخابات. النجاح فى الدنيا والآخرة والله يولى من يصلح وإن كان فى سياسة الأيام دى مفيش صلاح... أهم بيضحكوا على الناس وبس... وإذا نجح زيد ولا عمرو متفرقش... كلهم حبيقوا لعبة فى إيد الحكومة واللى عايزاه حتعمله بنايب ومن غير نايب. ربنا يصلح الحال.

دخل عليه عمران فاستأذن الشيخ من الحاضرين فى أن يأخذه على انفراد ليقول له كلمة ويدخل به حجرة أخرى فى المنزل:
- أنا عاوز أكلّمك فى حسن.

غضب عمران فى البداية حين سمع الاسم فقد خمن بقية الحديث ورفع صوته معلّناً أنه لا يمكن أن يعطى ابنته لهذا الولد، لا يمكن لعمران أن يناسب خليفة. تمسك الشيخ بحلمه وهو يحادثه عن هذا اليوم وعن الأجداد الذين تحولوا إلى تراب ولم يبق منهم إلا العمل الصالح وأن هذه أنانية منه أن يحرم الولد من ابنته. طال الحوار والشيخ نور الدين لا يتوقف عن ذكر الله والجنة والنار والحرام ففعله هذا فعل الجاهلين وعندما ضيق الشيخ الخناق عليه، رد عمران:

- والناس تقول إيه بابا الشيخ؟!

- خبر إيه ياعمران هو أنا مش ناس... منا برضه أبوها.

هزته الكلمة فهو يعلم أنه ليس هناك فى المدينة من يعترض على كلمة الشيخ فهو رجل الأصول فى عالمهم، قال بصوت منكسر مستسلم:
- اللى تؤمر بيه يا سيدنا الشيخ.

- عيال عمك جوه أنا حناديهم ونتكلم معاهم دلوقت وبعدها نقرا الفاتحة مع أبوها جوه.

وتم الأمر كما قال الشيخ وقرأت الفاتحة فى هذا اليوم المبارك وتبدى فى وجوه الجميع سلام لم تعرفه النفوس منذ زمن بعيد. قام الحاج بتقديم الطعام للضيوف ومعه أخوه الصغير عبد الرحيم بينما كان محمود يغط فى نوم عميق. لم يوقظه الحاج شفقة عليه فهو لم ينم طيلة هذه الليلة. وبعد أن أكل الجميع طعام الغداء شربوا الشاي وانصرفوا،رمى الشيخ جسده على كنبه فى الحجرة وغاب فى نومة الظهيرة.

استيقظ الشيخ على صوت ابنة عمه أم دياب:

- أزيك يا سى الشيخ.

- أزيك يا أم أحمد .

جلست أم دياب على السجادة المفروشة على الأرض وأم محمود تحاول أن تجلسها على كنبه فترفض؛ إنها تعطى لابن عمها حقه من الاحترام بجلوسها على الأرض.

- عرفت حصل إيه يا سيدنا الشيخ... دياب آخر الزمن جاى يبيع البيت...

نروح إحنا نقعد فى الشارع... الواد ده لابنى ولا أعرفه... من يوم

متخرج لا مفرحنى بأبيض ولا اسود... وجاى دلوقت يبيع البيت. دى

آخر تربيتى فيه!

- هدى يا بنت عمى.

- أهدى ازاي... أحمد ربى البنات... وهو أبو عيال يجيب له فلوس

منين؟! هوه مين يدى مين يا سى الشيخ؟

- المسألة دى ليها حل.

- حل إيه دياب راسه ناشفة. قال حبيب البيت يعنى حبيب البيت على كل

أنا جبت دهبى وفضتى وذهب مرات أحمد وفضتها دول يساواوا تمنميت

جنيه وآدى أربعين جنيه كان أحمد محوش متين جنيه وباع البقرة

والجاموسة بمتين جنيه وده اللي حيلتنا مفضلش غير عفش البيت.

- طب هدى... سيبى الحاجات دى هنا إن شاء الله حترجع لك تانى

وادخلى استريحى مع أم حجاج.

لا يدرى الشيخ نور الدين ما يصنع مع دياب فهو لم يجلس معه منذ مدة

طويلة ولا يعرف ما برأسه لقد تغير كثيراً وأكثر مما توقع... ترى هل يستمع إليه

حين يحضر... أم أن قلبه أقفل تماماً، لا يفهم الشيخ كيف يحدث ذلك من رجل

حفظ القرآن؟ ابن الأزهر فى الماضى كان يمثل الخير فى بلده ويبدو أن الدنيا تغيرت، دخل الشيطان فى الأزهر وغير الأزهر. استعاذ بالله حين تذكر كلمة الشيطان قال لنفسه: مستحيل أن يدخل الشيطان باب الأزهر فإن ما بدياب شيطان إنجليزى دخل إليه فى بلادهم... ترى لو كان يعرف ما سيصنع دياب أكان يقوم بتحفيظه القرآن؟ أكان يرعاه ويشجعه؟ هذه إرادة الله ولا بد أن يعود دياب إلى أصله بحق بركة القرآن الكريم.

طرق الباب فقام عبد الرحيم ليفتحه، كانت الطارقة تريزا... أدخلها إلى حجرة والده الذى فوجئ بها... وحول المفاجأة إلى ابتسامة حنون:
- ازيك يا تريزا... حمد الله على السلامة.
- أهلاً بيك يا با الشيخ.

أرادت الفتاة أن تذكر شيئاً للشيخ عن هذا اليوم ولكنها لا تدرى ما تقول فأثرت الصمت.

- إزى الأستاذ فهمى... أنا مشفتهوش ليه مدة.
- هو ناوى يزورك المغربية.

نادى الشيخ ابنته منيرة التى جاءت وسلمت على تريزا ثم أخذتها إلى حجرتها. لم يخامر الشيخ أى شك فى أن تريزا قد جاءت للتحية، غير أن أم محمود أخذت تراودها الظنون أن تكون بينها وبين محمود علاقة... تبقى مشكلة... تريزا جميلة ومؤدبة... آه لو كانت مسلمة لخطبتها لمحمود. حدثت الشيخ بظنونها:

- يا شيخة حرام عليكى... محمود ده ابنى وأنا عارفه لو فيه حاجة بينهم ما كانتش تريزا جت هنا.

ضحك الشيخ وهو يتذكر اسم جدته الكبرى تريزا التى يقال إن الشيخ أبو الحجاج تزوجها.

- وايه فيه لو أحبها، مجدنا اتجوز تريزا برضه.
- يا سى الشيخ الدنيا غير الدنيا واللى يجوز لجدنا الكبير ميجوز لناش.
- ليه لأ... وكفاية ظنون.

سكتت الأم وذهبت لتوقظ ابنها:

- محمود... محمود...

- سيبوني أنام... أنا تعبان.
- تريزا جت.
- قفز من فوق سريره... أخافتها لهفته:
- أنا خائفة يا محمود... تكون بتحبتها.
- برضه كده يا امه... لما أحب واحدة أجيبها البيت ليه، ده بيت الشيخ نور الدين.
- هدأت الأم قليلاً واستراح قلبها:
- أصله يابنى الجواز المشترك ببسبب المشاكل بين الناس وبعضها.
- يا امه تريزا دى زى منيرة بالظبط صدقيني... وبلاش ظنون...
- غسل وجهه ومسحه بجلبابه، اعترضت الأم على سلوكه الفلاحى:
- يا بنى استنى لما أجيب لك فوطة.
- معلش يا ست الحبايب.
- سرح شعره. خلع جلبابه وارتنى قميصه وبنطلونه. دخل حجرة أخته ليسلم على تريزا.
- كانت أخته تصب الشاى من الإبريق لتريزا إلا أنه أخذ منها الكوب ورفعاه إلى فمه، وأخته تعلق على تصرفه وكأنها تحدث نفسها بصوت مرتفع:
- هو ده ذوق المدارس!!
- بطللى فلسفة يا منيرة... تريزا شربت برميل شاى فى بيتهم هاتيلها حاجة ساقعة.
- بعث على كاكولا.
- طب اقعدى استريحى.
- كان يتمنى أن يطلب من أخته أن تتركهما... ولكن هذا مستحيل... فهذه الفتاة التى لم تغادر منزلها منذ الثالثة عشرة من عمرها... هل تفهم؟ ولو صنع ذلك فأى نفاق يعيشه.
- كان كثيراً ما يتذكر منيرة فى الكلية كلما رأى زميلة من زميلاته، وكثيراً ما قارن بينها وبينهن فكانت كفتها ترجح. لقد كانت ذكية العقل والفؤاد، رقيقة الروح

ومع ذلك فهي صارمة، لا تتوقف عن القراءة، وضعت قدراتها فى التفصيل. ليست هناك أية امرأة تباريها فيه، وكثيراً ما كانت تصمم تفصيلات جديدة لبنات شارعها، كما كانت بارعة فى المطبخ حتى إن الشيخ لا يستمتع بطعام إلا من يدها، أعطاها الشيخ حبه وحنانه وكان يقول دائماً:

- سجننا البنات فلا يجب أن نجعل سجنهن قاسياً فليكن لهن جنة.

تمنى كثيراً لو ترك أخته لتتعلم، إنها بلا شك كانت ستفوق معظم هؤلاء الزميلات وربما استطاعت أن تكون أستاذة... إنه يأسف لأنه ألح على والده أن يبقياها فى المنزل بعد الانتهاء من شهادة إتمام الدراسة الابتدائية فى مدرسة المعارف... والآن يريد أن يكلم تريزا فى أمر خطبتها من صليب. فكر كيف يبدأ الحديث مع تريزا أمام أخته، خطر له خاطر أن يشركها فى الأمر، حمل كوب الشاي وخرج، وطلب من منيرة أن تتبعه.

جلس مع أخته وقص عليها قصة صليب ورغبته فى خطبة تريزا وهو يسألها ماذا تقترح عليه أن يفعل؟ ردت الفتاة بحماس:

- كلمها بصراحة.

- المهم أنت تاخذى صفى.

- بس فيه مشكلة إذا هى إقتنعت وأهلها مقتنعوش... حتعمل إيه؟

- ناخذها خطوة... خطوة.

وعادا سوياً إلى الحجرة ليجدا تريزا قد بدأ يساورها القلق... فقد خشيت أن تكون قد حضرت فى وقت غير مناسب.

- أسيبكم بعافية.

سكت محمود مبهوراً من هذا القلق ولكن أخته تدخلت:

- طب استنى شوية فيه كلمة محمود عاوز يقولها لك.

شعرت تريزا بالارتياح للهجة الودودة التى كلمتها بها منيرة:

- بالمناسبة يا تريزا فيه أمر مهم عاوزك فيه.

- خير خوفتونى.

- صليب.

أدركت الفتاة أن حديثاً خاصاً بها وبصليب سيدور.

فردت بعدم اكتراث:

- ماله... حصل له حاجة... كان امبارح كويس...

سار محمود فى الخط الذى رسمه لكلماته وأخذ يتحدث بحماس عن صليب وشهامته ورجولته وذكائه ومستقبله وكيف إنه لو كان يحق له أن يزوجه لأخته لصنع ولكنه يرى أن خير فتاة له هي تريزا.

لم تقاطعه تريزا فى حديثه حتى انتهى منه:

- خلاص... خلصت كلامك... طب انت عاوزنى اعمل إيه؟

- ولا حاجة... أنا بس عاوز رأيك.

- الكلام ده كلام الكبار وأنا ماليش فيه دخل.

صرخ محمود:

- تريزا!!

ردت أخته:

- وطى صوتك هيه تريزا دى منيرة كل شويه تشخط أيوه وطى صوتك.

هذه الفتاة اللعينة لا تجد فرصة للسخرية إلا واقتنصتها.

- ما هي تريزا أختى برضه... وأنا أشخط فيكم كلكم.

تذكر كيف حادثته تريزا محاولة أن تبعده عن إلهام؛ لأنها لم تكن مقتنعة بها. والآن تصده حين يحاول أن يكلمها عن رجل هو أكثر الناس اقتناعاً بأنه خير من يصلح لها... سمعت الأم صرخة محمود فجاءت بسرعة:

- إيه فيه يابنى؟ مش تهدى صوتك قدام الضيوف.

أصيبت تريزا بالخلج. ردت منيرة بابتسامة لتخفف الموقف على تريزا وعلى أمها:

- أهو ابنك دايماً كده... أى كلام عنده يبقى زعيق... أنا عارفة اتعلم إيه فى مصر؟

خرجت الأم وهي لا تعرف ماذا يحدث.

وجه محمود كلامه إلى تريزا بلهجة فيها رنة رضى:

- أنا أسف يا تريزا... كنت متصور انك حتدينى الشرف... إنى أساهم فى سعادتك وسعادة صليب... لكن ما باليد حيلة كنت متصورك أسلس من

كده... أنا عارف إن صليب فقير... وإن أسرته متساو يش أسرته فى
الغنى... لكن كنت عارف إنك أكبر من كده... لكن باين أنا غلطان.
- إيه لزوم الكلام ع الغنى والفقر والعائلات يا محمود.
- تريزا انت طبقية.

ألقى محمود جملته وسكت. أمالت تريزا رأسها لتضعها بين يديها، بينما
كوعها يستند إلى المنضدة الصغيرة أمامها فانسكب الشاى على جلبابها.
ارتبك محمود ومنيرة تأخذ فوطة وتجري لتعود بها مبلولة.
- حصل خير... حصل خير... باين اتحسننا.

لا يدرى محمود ما يفعل، لقد قال أكثر مما يجب وتريزا حرة فى اختيار
رفيق حياتها لا يجب أن يغضبها إنسان على شىء فهى لم تقل شيئاً... إنها فقط
تحاورة ليتها تكون صريحة... وتقول نعم... أو لا... طبيعى هذا صعب عليها فمع
إنها تعلمت فما زالت تعيش قيود الصعيد التى لا فكاك منها.

والآن هل يبقى؟ هل يخرج؟ أنقذه صوت أخيه عبد الرحيم يناديه:
- محمود... محمود... كلم... صليب عاوزك.

خرج ليقابل صليب فوجده مع والده يسأله عن أبيه وأهله.
- يلا بينا يا صليب نخرج... أنا محتاج أخرج.

أمعن الشيخ النظر فى وجه محمود فأدرك أن هناك شيئاً قد حدث... تمنى
ألا يخرج ابنه فى هذه اللحظة.

- طب يا بنى استنى لما تشربوا الشاى.

- أصلى بابا عاوز صليب فى كلمة.

أخذت منيرة تمسح الفستان بالفوطة بينما تريزا تحاول أن تأخذها منها.
- متزعزعىش من أخويا محمود... هو دايماً كده... عصبى... لكن قلبه
طيب... وهو لولا مبيعزك... لولا مكلمك فى الموضوع ده.

قبل أن تنتهى منيرة من كلماتها أخذت الدموع تتساقط من عيني تريزا، ثم
أخذت فى نسيج خافت عميق، أغلقت منيرة الباب... وعادت لتحتضنها محاولة أن
تهديها.

- حقك على يا تريزا... محمود غلطان أنا عارفة إنه غلطان وكلامه زى السم.

خرجت كلمات مخنوقة مع نشيج تريزا:
- لا محمود مش غلطان.

لم تدر منيرة ماذا تقول أو ماذا تفعل؟ فكل كلمة تخرج منها لا تعبر عن الموقف إنها لا تفهم أبناء الجامعات... فقررت الصمت.

قاومت تريزا نشيجها ووضعت وجهها بين عينيها والأفكار تتضارب فى ذهنها... أبوها... أمها... محمود. لو كان هناك رجل تتمناه زوجاً لكان محمود ولكنها مسيحية مؤمنة بدينها وتقاليدها وهو مسلم مؤمن بدينه وتقاليده. وهى لم تفكر فيه كرجل لها، ولكم تمنته أن يكون أخاها ابن أبيها وأمها. تشعر فى هذه اللحظة أنه فعلاً أخوها وأنه ابن أبيها وأمها... إنه فقط فاجأها بموضوع صليب الذى لم تنظر إليه كزوج. تعرف أن هناك فارقاً اجتماعياً بينها وبينه، وأن أهلها لن يقبلوا زواجه منها، وهى نفسها غير مستعدة للزواج.

آه من هذا العالم، فوارق دينية وقبيلية وفوارق اجتماعية، إنها تعلم أن الشخص المناسب من الناحية الاجتماعية سيأتى، ولكن ربما لا يناسب قلبها، ولا روحها، ساعتها سترغم على قبوله.. تحركت صورة صليب أمام عينيها.

إنه فعلاً وسيم ورجل يعتمد عليه... لماذا تقول لا؟ لماذا لا تترك أهلها يقولون هذه الكلمة... من حق محمود أن يغضب ولكن ليس من حقه أن يتهمها بالطبقية فهى لم تصنع التقاليد... صنعها أناس قبلها بقرون. ووقف على حمايتها رجال ونساء أقوى منها وأشد... ما كان لها أن تأخذ كلمات محمود بعدم اكتراث. كان عليها أن تناقشها بعمق بدل هذه الخفة... إنها أول مرة تواجه بكلمة «طبقية». آه لو كان محمود مسيحياً أو كانت هى مسلمة لتزوجته حتى لو رفض أهلها.

خرج محمود غاضباً وهى تريد أن تناقشه. هل هذا الأمر فى يدها؟ وماذا يريد أن تصنع فعلاً؟ صليب إنسان ممتاز... ليس غنياً ولكن له مستقبل كبيراً فهو أحسن طالب فى قسمه؛ إنه يصلح لأن يكون زوجاً رائعاً ومع ذلك فهى تتردد.

قد يأتيها من لا تقبله ولا تحترمه ثم تتزوجه لأن أهلها يريدون ذلك. لماذا لا تحاول أن تكسر الحاجز الطبقي؟ ولكن كيف؟

رفعت رأسها لتتظر إلى منيرة ولكن منيرة كانت قد غادرت الحجرة لتتركها بمفردها لأفكارها. أحست بالخجل وبالا احترام لمنيرة التي تعلمت في بيتها القواعد والأصول. كم هي حساسة هذه الفتاة.

حضرت منيرة ومعها زجاجة كوكاكولا مثلجة:

- اشربي...
- أنا عاوزة أسألك سؤال يا منيرة.
- اسألي...
- لو كنت مكاني تعملي إيه؟

سؤال لم تكن الفتاة مؤهلة للإجابة عنه؛ فهي لن تكون مكانها أبداً، ربما تواجهه ابنتها إذا ذهبت إلى الجامعة. لقد كفاها أبوها مهمة الاختيار واختار لها خير الرجال ابن عمته. لا تدري ماذا تقول لهذه الفتاة المتعلمة التي لا تعرف ما تصنع؟ غير أن السؤال أَرْضَى غرورها فاستجمعت ذهنها:

- دى مشكلة كبيرة... لكن لو كنت منك... كنت أفكر.
- فكرت.
- إذا اقتنعت أقول آه... وبعدين أقول لأمى.

تقول منيرة لنفسها هذا كلام جرائد فلو أنها قالت هذه الكلمة لدفتتها أمها في التراب، ولكن الكلام أصبح حلواً على سمعها فاستمرت في الحديث.

- وأفهم أمى إنى لو متجوزتش الشخص ده مش حجوز تانى أبداً...
- أو حاموت. إذا كانت أمك متفهمة حتقول لأبوك وإذا كان أبوك بيحبك حيوافق.

- بالبساطة دى.
- لأ مش بالبساطة دى... لازم تروح ناس وتكلم أبوك وتقنعه وبصراحة أخويا محمود لسه صغير وجايز لو راح لأبوك يقول لسه لأ... أصله ده مش كلام عيال.

- أحسن حاجة صليب يكلم أبويا الشيخ وهو يكلم أبوك... جايز يقدر

يقنعه... أصله انت متعرفيش الشيخ إذا اقتنع... حيقنع أبوك بالتأكيد.
نظرت تريزا إلى هذه الفتاة نظرة إعجاب... فقد كانت تتكلم كامرأة عجوز
بثقة كبيرة ومع ذلك فالطفولة البريئة تبرز في كل كلمة تقولها. وأطرقت برأسها
ثم رفعتها لتقول لمنيرة:

- اسمعى يا منيرة لما ييجى محمود تقولى له كل الكلام ده لكن أنا مش
حكلم أمى إلا بعد الشيخ ميكلم أبويا وأسيبك بعافية.
- متقعدى شوية... ونستينا... طب استنى لما هدومك تنشف... وكمان
لازم تغسلى وشك... شكلك باين عليه العياط.
- لازم أمشى... أنا اتأخرت لامى تقلق على. بس إذا سمحت إبعثى عبد
الرحيم يجيب لى عربية حنتور توصلنى.
- حاضر.

قامت منيرة لتنادى عبد الرحيم ليحضر عربية حنتور وشعور غارق يملؤها
أن هذه الفتاة خير من تصلح لأخيها محمود ولكن...

انتهى الشيخ نور الدين من كتابة عقد قران واحد من أهالى الأقصر حين دخلت عليه أم فريد بانعة العيش بابنها الصغير فريد. وقد أصابته حالة هستيرية وهو يصرخ ولا يكف عن الصراخ:

- شفت الميت بيمشى فى الجبانة... شفت ميت بيمشى فى الجبانة.

كان فريد قرب الجبانة حين شعر برغبة أن يقضى حاجته فدخلها، وحاول أن يجد مكانا لا يراه فيه أحد، وبعد أن جلس جلسته رأى شبحا جالسا فوق صخرة... لم يصدق عينيه أن يكون هناك إنسان يجلس هذه الجلسة حتى رأى الشبح يتحرك، عندها قفز فريد جاريًا:

- الشبح... العفريت... الصل... ميت بيمشى فى الجبانة القديمة.

حتى وصل لأمه التى حاولت أن تهدئه فلم تفلح، فأحضرتة للشيخ نور الدين الذى أخذ يقرأ له آيات من القرآن الكريم، ثم صب عليه الماء، والطفل لم يسكت عن صرخاته.

رفع الشيخ صوته:

- انت أكلت يا فريد؟

- لا يابا الشيخ.

- طب قوم جوه كل وتعال تانى.

دخل فريد ليأكل وقد سكت صراخه، ولم يعد ثانية إلى الشيخ فقد أخذ يقص على عبد الرحيم قصة الشبح.

قال عبد الرحيم:

- مكلمتهوش ليه يا جبان؟

استرد فريد شجاعته، وأخذ يتحدث عن قصته على أنها مغامرة ثم خرج ليقتص على الأطفال قصته مع الشبح.

* * *

كان الشيخ يتمتم حين طرق الباب «الميت الوحيد فوق جبانة الأقصر القديمة».

رفع الشيخ صوته:

- زق الباب... وادخل.

ثم اعتدل الشيخ من جلسته ليقوم ليفتح الباب، ولكنه سمع الباب يفتح وما إن عاد إلى جلسته حتى رأى دياب يدخل عليه حجرته، حاول أن يعتدل ثانية:

- أهلاً أستاذ دياب.

- استريح بابا الشيخ... استريح.

أعاده دياب إلى جلسته وهو ينحنى ليقبل يده. كانت قبلة حارة تذكر الشيخ بدياب حين كان يأتي إلى هذه الحجرة ليسمع جزءاً من القرآن. ترى أما زال دياب يحفظ القرآن أم أنه ضاع من قلبه؟

جلس دياب صامتاً على كنبه في مواجهة الشيخ. لقد كان يوماً عصيباً عليه، وضع حياته كلها تحت حساب عسير. استيقظ في الصباح وخرج من الفندق دون أن يتناول طعام إفطاره. خرج يلف المدينة على غير هدى... شعر بضيق شديد يكاد يخنقه... لأول مرة ترفع أمه صوتها عليه وتهدهده، لقد كان دائماً في محاوراته لأخيه يتصور أنه يكلم أخاه الأصغر. أما الآن فهو يواجه أمه الطيبة، ولكنها عنيدة، وقد تحرك عنادها. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة حين وصل إلى الأرض المجاورة للجبانة القديمة فوجد أهل الأقصر والقرى المجاورة في حالة حركة شديدة كأنهم في مولد... الحمير تملأ التراب من الجبانة ثم يعود بها أصحابها إلى قراهم فيرى على وجوههم السلام كأنما يحملون كنزاً من كنوز الفراعنة... ورأى الشيخ نور الدين ملتقاً بطبقة من الغبار وقد اسمر كل شيء عليه، يحرك من يحفرون ويجمعون رفات أجداده. رأى رجالاً يمسكون الفئوس ويزيلون التراب بشيء من الحرص كأنهم يبحثون عن خبيثة قديمة. لم يكن يتصور قط أن يحمل هؤلاء الرجال فئوساً أو أن يمدوا أيديهم إلى تراب.

كان يذهب إلى هذه الجبانة وهو طفل صغير مع أمه أيام الأعياد وهي محملة بالعيش والكعك لتفرقه على الفقراء والمساكين رحمة عن أجداده، ثم تتحول بعدها إلى الجبانة القديمة، داس على قدمه غلام صغير.

- آسف يا عم.

تجاهل الغلام... توقف بجواره غلام آخر ليعطيه منشوراً من منشورات المرشحين. لقد اقتنصها فرصة أتباع المرشحين ليوزعوا منشوراتهم على الناس المتجمعين فى هذا اليوم، أمسك المنشور دون أن ينظر إليه وأخذ يتابع الغلام وهو يوزع منشوراته على الفلاحين الأميين. ابتسم حين رأى معظمهم يلقي المنشورات على الأرض، شاهد شاباً يجر حماره نحو الجبانة ومعه فأسه يمسح العرق بالمنشور. اهتزت نفسه وشعر بأنها تدخل عالماً من الفراغ. أراد أن يتحرك لابتعد عن الجبانة حين شاهد يونس عمه، وقد جاوز التسعين وقد ضعف بصره، وهو يسير نحو الجبانة يقوده حفيد من أحفاده وهو ينادى:

- يا نور الدين.

تقدم إليه الشيخ مسرعاً وانحنى على يد ابن عمه الكبير ليقبلها كأنه طفل صغير وكأنه ليس الرجل الذى تقبل المدينة كلها يده.

- برضه متجيش تخذنى معاك.

رد الشيخ بحنان بالغ:

- محبتش أتعبك يا ابن عمى والأولاد كلهم هنا قاموا بالواجب.
- واجب إيه يا نور الدين... ده واجبى أنا قبلك وقبل أى واحد.

الشيخ يونس هو الوحيد الذى ينادى الشيخ نور الدين دون لقب، وهو يحب أن يستمع إلى اسمه منه خالياً من أى لقب. أمسك بيد ابن عمه وقد أخذ غبار الحفر يرتفع ليعطيها ودياب ينظر فيرى الغبار يتحول إلى هالة من نور.

هذا هو الشيخ نور الدين الذى كان يصفه دياب بأنه متقوقع، سجن مواهبه، ولم يرد أن يصنع مثلما صنع ليكرس حياته للمدينة وأهلها. إنه لا يدرك أنه ليس من بين أساتذته ولا من عرف من كبار العلماء رجل حقق نفسه مثلما حقق الشيخ نفسه، وليس هناك رجل استطاع أن يحصل على السلام النفسى والسعادة الحقيقية كما حصل عليها الشيخ نور الدين. ازداد ضيقاً وهو يصل إلى هذه الحقيقة فقد

ردته إلى نفسه، فتنبه إلى الضياع والوحدة اللذين عاش فيهما طيلة عمره منذ أن غادر المدينة. ليت ما غادرها. حياة كلوح الثلج مع زوج تذكره الآن بالصحراء الموحشة. إنها لم تشعر قط به. ولم تحاول أن تهتم ببيئته وعالمه. ولم تعرفهما انتباهاً ولقد ساعدها على ذلك. فلقد كان أرضاً صالحة ليتقبل غرورها وغرور أسرتها ليواجه به أهله... فلم يكثرثوا به... نظر إلى حلقة الذكر المجاورة له... نقل قدميه ليبعد عن هذا العالم فهو ليس عالمه. تذكر أمه وأخاه، وزوجته التي تريد أن تغير الأثاث الذي لم يمض عليه أربع سنوات إلى أثاث جديد وعليه هو أن يحارب أهله جميعاً من أجل هذا الأثاث. وجد نفسه أمام مسجد السيد يوسف، فكر فى أن يدخل ويزور قبر جده. التفت إلى الباب فوجد السيد أحمد النجم بن السيد يوسف، استحي منه. شعر برهبة، فلم يتوقف ليسلم عليه... استدار ليدخل أرض الكرنك القديمة... وجد نفسه أمام منزل أخته، إنه يعرف بيتها فهو بيت ابن خالته. لم يزر أخته قط منذ أن تزوجت كما أنه لم يرها قبل أن تتزوج ولم يساهم فى تجهيزها.

طرق الباب، فتح له غلام فى السابعة عشرة من عمره سأل عن حسين زوج أخته. رد عليه الولد:

- مش موجود... اتفضل تلزم أى خدمة؟
- انت مين يا بنى.
- أنا مرعى ابنه.

نظر إلى الغلام... احتقر نفسه... ابن أخته فى السابعة عشرة من عمره وهو لم يره... لم يعرفه... لم يتبينه...

الولد ينظر إليه فى دهشة:

- أى خدمة يا عمى... تيجى الديوان، عمامى هناك.

لم يستطع دياب أن يقول له كلمة سلام... توقف واستطاع أخيراً أن ينتزع بعض الكلمات خرجت مبحوحة.

- أمك موجودة... نادى أمك.

استغرب الولد أن يطلب رجل الحديث إلى أمه، وهو ليس من أهل الحى، وهندامه الأنيق، وإن تغبر، يشير إلى أنه ليس من أهل الأقصر، نظر الولد بامعان ثم خرج.

- يامه فيه واحد عاوزك.
- كانت الأم تخبز حين نظرت إلى الباب، وارتفع صوتها فى دهشة وفرح:
- مين أخويا؟
- دخل ياواد خالك.

شئ غريب أن يلتقى الخال بابن أخته لأول مرة فلا يكون بينهما ترحاب؛ فالابن لا يعرف ما يصنع والخال فى حالة من الصمت والوجوم.

حضرت أخته بعد أن غسلت يديها ومسحتها لتحتضن أخاها.

- ازيك يا أخوى.

وانفجرت فى البكاء.

- متعيطيش... بلاش تعيطى... ليه تعيطى.

- لم يجد ما يقوله أكثر من ذلك.

- أنا بيعط من الفرح... قوم ياواد يامرعى بوس إيد خالك وانداه اخواتك
يجوا يسلموا على خالهم، ده يوم عيد.

«هكذا تدخل على أختك بعد هذا العمر بيد خاوية» حدث نفسه بأسى.

حضر الأولاد كانوا خمسة وثلاث بنات. أخته لم تبلغ الأربعين ومعها هذا العدد الكبير من العيال. ذكرت له أسماءهم لم يستطع اسم واحد أن يبقى فى ذاكرته، غير اسم ابنها الصغير دياب لقد أسمته على اسمه آه ابتعد كثيراً عنهم.

أخذت أخته تحادثه عن زوجها وأولادها والروماتيزم الذى بدأ يتسلل إلى ظهرها ثم قطعت شكواها لتسأل:

- وانت ازيك وازى الولاد وأمهم... ده يوم عيد؟

لم توجه له كلمة عتاب واحدة. تمنى لو تلومه على عدم زيارتها، وعدم السؤال عنها. إنها تماماً كأمه تتكلم فى كل شئ إلا ما يجرح وما يرهق داخلها. إن نساء أهله متشابهات كالشجر... كل شجرة تمنح فرعها نفس خصائصها وهى خصائص لا تختفى، تمتد جذورها عبر آلاف السنين من النمو والخصب.

شرب الشاي. شعر بأنه يريد أن يمضى بعيداً، وأخته تصر على بقاءه،

فابنتها لىلى ذبحت ذكراً من البط، ولا بد أن يبقى ليأكل من طبيخ أخته، ولكنه اعتذر ووعد أن يعود ثانية وهو لا يعرف إن كان صادقاً فى وعده أم لا.

خرج من المنزل بصحبة مرعى ثم طلب منه أن يعود إلى أمه، وسار فى طريقه كأنه يجرى فوجد نفسه بجوار الجبانة الجديدة فدخلها، وسار حيث وصل إلى قبر أبيه. لم يزر قبر والده غير مرة واحدة حين عاد من لندن... أخذ يقرأ الفاتحة ولم يكملها حتى انفجر فى بكاء مختلط بنحيب لم يوقفه إلا أصوات زوار قادمين. مسح عينيه وانسحب عائداً إلى الطريق، وجد عربة حنطور ركبتها إلى الأقصر هوتيل، وهناك حاول أن ينام.

لم يستطع النوم فإن حملاً ثقيلاً لا يتبين ثقله يجثم على نفسه، طلب طعاماً ولكن رغبة الأكل ضاعت تماماً، سمع آذان المغرب قادماً من مسجد الشيخ أبو الحجاج. لبس ملابسه وسار فى طريقه فوجد نفسه أمام الجبانة القديمة كان الظلام قد بدأ يحل ويخفى معالم الأشياء حين دخلها. لم تعد جبانة فغداً يأتى مفتشو الآثار ليعمقوا الحفر بحثاً عن آثار جديدة ويفتحوا طريق الكباش... وجد صخرة لعلها رأس كبش من هذه الكباش جلس عليها... لم يعد قادراً على التفكير، ولا يعرف ما يصنع، وما إن وقف ليترك المكان حتى سمع صوت طفل يصرخ:

- الشبح... العفريت... الصل... ميت يمشى فى الجبانة القديمة.

أفزعه صوت الطفل فهو فعلاً شبح... ميت يمشى فى الجبانة القديمة... اخترق الجانب المقابل للنيل من الجبانة ووصل إلى أقرب كازينو مطل على باب معبد الأقصر، دخله، وجلس ثم طلب من الجرسون فنجاناً من القهوة السادة، شرب القهوة وهو يتأمل ماء النيل يلعب على ضوء الهلال الخافت. منظر رآه آلاف المرات ولكنه يشعر أنه يراه لأول مرة. فقد غاب عنه أكثر من عشرين عاماً. ترك الكازينو بعد أن دفع الحساب للجرسون. وقرر أن يتوجه إلى منزل عمه الشيخ نور الدين، قد يواجهه الشيخ بغضب، وقد يواجهه بهدوء، وهو يرجو أن يغضب الشيخ، أن يضربه كما كان يفعل عندما كان يقصر فى حفظه للقرآن.

وها هو الآن يجلس بجوار الشيخ صامئاً والشيخ يتمتم بقراءة ورده وكأنه حريص ألا يسمع أحد حديثه لربه. توقف الشيخ ليقول بحنان وهو يشعر بضيق دياب:

- تعشيت يا دياب؟
- لا يابا.
- أجيب لك عشا؟
- أنا شعبان.
- حتتعشى معايا... بعد صلاة العشا... انت متوضى... أدخل اتوضا أنا كنت حصلى فى الشيخ لكن أنا تعبان نصلى هنا جماعة.

* * *

- فرغ الشيخ من صلاته وحضرت منيرة بصينية الطعام، وصفقت خارج الحجرة لتعلن أباها أنها أعدت الطعام. فجاوبها والدها:
- ادخلى يا منيرة مفيش حد غريب ده ابن عمك الأستاذ دياب... تعالى سلمى عليه.
 - دخلت بصينية الطعام ووضعتها على منضدة فى الحجرة وسلمت على ابن عمها فى استحياء وخرجت.
 - صبب دياب ماء الإبريق على يدى الشيخ ليغتسل ثم صب لنفسه الماء، وجلس ليأكل ولكنه لم يستطع أن يبتلع الطعام.
 - سامحنى يابا مش قادر أكل.
 - وجلس بعيداً عن المائدة.
 - شعر الشيخ أنه لا بد أن يصنع شيئاً.
 - أنا مش عارف إن كان مناسب أكلك دلوقت ولا لا. لكن الرسالة أمانة يا بنى... افتح يا دياب درج المكتب فيه صرة هاتها.
 - أحضر دياب الصرة كما قال له.
 - افتح الصرة.
 - فتح دياب الصرة وأخذ ينظر فيها فإذا هى مصوغات من الفضة والذهب. أمعن النظر فيها فعرفها إنها مصوغات أمه وحزمة جنيهاات.
 - عد يابنى الجنيهاات دى.
 - لم يعدّها دياب.

- أنا مش عاوز أقول كلام كتير... لكن إذا كنت عاوز نقول كلام كتير نقول... فى النهاية انت فى رأى من معدن طيب... ولازم المعدن الطيب يرجع لأصله... ودى فرصتك.

لم يرد الشيخ أن يكسب معه حوارًا بالمنطق والعقل فشكله يدل على أنه فى حيرة ويريد أن يساعده على اكتشاف نفسه.

- طلب منى خير الدين باشا أنى أشتغل قاضى رفضت علشان مبعدهش عن أهلى. مش عيب الواحد يبعد إنما ميبعدش روحه.

دياب صامت، يتمنى أن يصمت الشيخ أو يقول شيئًا آخر.

- أنا لو منك آخذ الصيغة دى والفلوس وأروح لأمى... روح لها يا بنى محدش عارف الدنيا... لو ماتت أمك حتندم طول عمرك... ولو كنت فعلاً عاوز...

ما إن نطق الشيخ نور الدين بكلمة «عاوز» حتى وقف دياب.
- أستاذن يابا.

نظر إليه الشيخ، لا يدل شكله على أنه غاضب ولا يبدو أنه استأذن احتجاجاً على كلماته... صحيح أن قلقه قد ازداد أكثر من ذى قبل لكن هذا مفيد له.

لم يتوقف الشيخ عن الطعام حين لمّ دياب المصوغات والنقود وربطها فى المنديل كما كانت ثم قام ليقبل يد الشيخ فى حرارة... رفع الشيخ يده وقام ليحتضن دياب فهو يعرف أى عذاب يعيش ويعرف الطريق التى سيذهب إليها.
خرج دياب وتوقف الشيخ عن الطعام وهو يتمم الحمد لله... لك الحمد يارب.

* * *

أخذ دياب طريقه إلى منزل أخيه شرق البلد، كان متعجلاً، ركب عربة حنطور حتى وصل إلى المزلفان وجده مغلقاً. لم يرد أن ينتظر مرور القطار. نزل من العربة بعد أن دفع النقود للعرجى.

- متخللى يابيه... انت مركبتش حاجة.

لم يقل له كلمة.

تخطى باب المزلقان عابراً شريط السكة الحديد ليأخذ طريقه وسط المزارع حتى يصل إلى الجسر، ينظر إلى التربة التي كثيراً ما استحم فيها هو وجاموسته.

يقترب دياب من البيت ليجد أخاه جالساً خارجه على كنبه فيناديه يا أحمد فيسرع إليه ويصيح بفرح:

- يامه دياب جه.

تجرى الأم لتصل إلى الباب وما إن تظهر من الباب حتى يجرى نحوها دياب ليحتضنها. يدخل بأمه البيت ويلقى بالصره فوق فروة مفروشة على الأرض ويأخذ فى البكاء.

يتعجب أحمد أن يبكى أخوه فهو لم يره إلا صلباً قوياً لا تعرف العواطف إليه سبيلاً... إن أخاه يبكى. يطلب الأخ من زوجته وأولاده أن يتركوه مع أخيه فهو لا يريد أحداً أن يرى أخاه فى هذه الحالة. لا تعرف الأم ماذا تصنع فانطلقت فى البكاء.

- هدى نفسك يا ولدى... هدى نفسك...

يقبل دياب أمه:

- سامحيني يا أمه...

- مسماك يابنى من بحر محيط.

كلمة أمه الخالدة السماح من البحر المحيط... لم يعرف أبداً معنى كلمة البحر المحيط ولكنه يفهمها الآن، إنه يريد أن يغتسل ولن يصلح إلا البحر المحيط. لقد عاش فتوته فى عزلة عن أمه وعن أرضه وعن هذا العالم.

هدأ دياب قليلاً وأعطى لأمه الصرة فردت عليه:

- لا دى ليك يابنى... أنا عارفة أنك عاوز فلوس ومصاريف مصر كتيرة خليها ليك يا دياب.

رد أحمد إليه النقود:

- دى فلوسك ياخويا... ده إحنا عايشين من خيرك.

- شيلوا الحاجات دى... أنا عاوز أدخل... أنا... أنا... أنا سنة لقدام...

- سلامتک یا حبیبی... لما تاكل الأول.
- آیوه اكل أنا جعان قوى یا امه...
- السبطة محدش مد إیده علیها... ولا لینا نفس ناكل من امبارح... ربنا
یطرح فیک البركة ویحفظک ببركة النبی وآل بیتہ وجدودک.

دخل محمود على والده ومعه صليب فوجد بقية الطعام ما زالت على المنضدة... جلس ليأكل.

- تعال كل يا صليب.

- لأشبعان.

نظر الشيخ إلى صليب:

- متاكل يا بنى... ده بيتك.

- ماليش نفس يابا الشيخ.

مد محمود يده إلى الطعام وقبل أن يضع لقمة فى فمه سمع صوت أخته منيرة تناديه. خرج ليعرف سبب ندائها، أبلغته بالحوار الذى دار بينها وتريزا.

لقد قضى طيلة هذا الوقت مع صليب، لم يقل له كلمة عما دار بينه وتريزا فقد هيا له أنها ترفض. وظل منقبضاً طيلة هذا الوقت... ذهب مع صليب إلى المقهى... حاول أصدقاؤه أن يخرجوه من انقباضه فلم يفلحوا. دعوه للعب الطاولة فهو محترف فى هذه اللعبة، رد عليهم:

- حرام... دى تلاهى.

كلمة جديدة يدخلها محمود إلى قاموسهم... رد عليه حسيب:

- ما القهوة تلاهى.

- مش حقد عليها تانى... تحب أمش.

- لأ أحسن أقعد... نحتفى بقعادك.

نظر إليه أبو العلا وقال:

- بالمناسبة يا محمود الانتخابات سخنة... والنواب سخنين... تيجى نتلم

ونشوف مين يدفع أكثر.

- أهو انت كده دايمًا يا أبو العلا.

- ياخى بهزر.
- هزارك دايماً جد وسخيف... ياعم السلام عليكم.
- تصور أصدقاؤه أنه حزين لهدم الساحة وإزالة الجبانة فلم يتكلموا وتركوه ينصرف.
- قال حسيب:
- محمود انهارده أعصابه تعبانة.
- سار محمود ومعه صليب يقطعان شارع البحر فى صمت، فجأة تكلم محمود:
- انت بتحب تريزا قد إيه؟
- قد السما والأرض وأكثر.
- يعنى لو قالت لأ... يحصل إيه؟
- شك صليب فى الأمر... هل حادثها؟ وهل قالت لأ؟
- محمود قول الحقيقة... انت فاتحتها... أنا عارف إنها كانت عندكم.
- البيت زحمة ومليان ناس انهارده ياصليب.
- توقف عن الكلام فهو لا يريد أن يكذب كما أنه لا يريد أن يقول الحقيقة...
- استمر الصمت بينهما حتى اقتربا من المنزل. حاول صليب أن يستأذن ولكن محمود أصر على أن يأتى معه للمنزل. قبل صليب الدعوة فصحبة محمود على قسوتها اليوم أخف قسوة عليه من جلسته مع نفسه.
- لم يكن محمود يتصور ما حدث بين أخته وتريزا، كان يبحث فى ذهنه عن مخرج يخرج به من موضوع صليب، كما كان يبحث عن وسيلة ليهدئه بها وأن يخرج تريزا من رأسه... أعادته كلمات أخته إلى حالة من المرح، فدخل الحجرة مبتسماً، وجلس ليأكل بينما والده يقول لصليب:
- ما تاكل يا بنى.
- اغتنم محمود الفرصة ليحدث أباه فى الموضوع.
- أصله صليب يابا بيجب.
- ارتعش الشيخ نور الدين حين سمع كلمة ابنه، صمت الشيخ، ثم قال بصوت ريان حنون وحزين، كأنه قادم من بعيد:

- اهو انتوا كده جيل الأيام دى معندكمش إلا الحب، على كل الحب مش عيب.

وعاد الشيخ إلى الصمت، قطع محمود الصمت محادثًا صليب:

- كل يا صليب علشان أنا حكلم أبويا فى الموضوع ده.

اقترب صليب من المائدة، وقد عاد إليه الانشراح والأمل أن يحدث شيء يقربه من تريزا... ذكر محمود لوالده رغبة صليب فى أن يخطب تريزا وخوفه من رفض أهلها، وبعد أن انتهى من عرض الموضوع أخذ الشيخ يسأل:

- أبوك قابل أبوها؟

- لا...

- أصلو احنا عاوزينك انت تكلم أبوها.

يعرف الشيخ أن هناك عوائق كثيرة ستقف بين صليب حسبو وبين تريزا فهمى... فقال بعد لحظة صمت:

- يابنى أنا شايف إنه من الصعب على إنى أدخل إلا بعد ميكلم أبوك أبوها... ساعتها يبقى الكلام له معنى.

انقبض صليب لهذا رأى فهو المدخل الطبيعى لإتمام الزيجات فى الأقصر ولا يظن أنه قادر على أن يدخل فى مناقشة مع الشيخ نور الدين فكلامه منطقى تحدد فيه الأصول وتقاليد المدينة. ولكنه لا يريد أن يصد أبوها والده.

توقف عن الأكل حين سمع طرقا على الباب.

قال محمود:

- ادخل.

ولما لم يدخل أحد قام ليفتح الباب ثم عاد إلى الحجرة ومعه فهمى والأب مكارى. لم تكن مفاجأة للشيخ أن يراها هنا. فلقد كان يتوقع حضور الأب مكارى منذ العصر فهو يزوره فى كل مناسبة تستحق الزيارة، كما أن تريزا أبلغته بأن والدها سيحضر.

- أهلاً بكم... أهلاً.

وضع محمود الأطباق على الصينية وحملها، خرج معه صليب ليدخلا الحوش ويكملا طعامهما.

يضحك محمود واللقمة فى فمه:

- جالك الفرج يا صليب... أبوها ومعاه أبونا مكارى... محظوظ.
- كل وانت ساكت... احترم آداب المائدة.

قرر فهمى منذ الصباح أن يزور الشيخ نور الدين بعد غروب الشمس، إلا أنه لم يستطع أن يغلق مكتبه فقد كان عليه أن يشتري كمية جديدة من القطن، وقد أثار أحد عملائه ما أشيع من أن الدولة ستؤمم هذه التجارة. أصابه هذا العميل بصداغ، لم يشعر بأنه فى حالة تسمح له بزيارة الشيخ فاتجه إلى منزله. وهناك وجد زوجته تبدو بشكل غير طبيعى... لم يتعودها على هذه الصورة من القلق، حاول أن يعرف سبب قلقها فلم تخبره المرأة بشيء، قال لنفسه إن هذا يوم القلق لكل الناس... للمسلمين والمسيحيين على حد سواء... لم تكن له رغبة الطعام ولكنه طلبه. ذهبت المرأة إلى المطبخ مهمومة لتسخنه وهى لا تدرى كيف تفتح زوجها فى أمر زواج ابنتها، فقد وصلت تريزا إلى المنزل متغيرة، ما زالت آثار الدموع فى عينيها، وقد ابتلت ملابسها. نظرت إليها أمها فأدركت أن هناك شيئاً قد حدث لها.

- إيه فيه يا بنتى... مالك... حصل إيه؟
- أبداً مفيش حاجة.
- بتخبى على يابنتى!

خافت أن تقول لأمها الحقيقة كاملة فتسيء الظن بها فأمها لن تفهم أن دار بينها ومحمود من حوار وهى لم تكلمها عنه من قبل وإن جاء اسمه على لسانها فى حديث عابر. ألحت الأم فى أن تعرف السبب فقد ظهر قلقها واضحاً على ابنتها.

- إيه فيه ياتريزا؟

ليس أمام تريزا غير أن تلوى الحقيقة دون أن تغير منها.

- أم حجاج كلمتنى عن صليب.
- ماله صليب؟
- عاوز يخطبنى؟
- وتكلمك انت ليه... ليه متجيش هنا وتكلمنى؟

- انت عارفة انهم مهمومين وهيه مبتقدرش تخرج وتسبب الشيخ.
- ده كلام غريب يابنتى.
- هيه ماقلتش حاجة كبيرة... كانت بتقول إنها عاوزة تزورك علشان تكلمك فى صليب.
- وتكلمنى ليه هيه فى صليب... ليه أمه متتكلمش؟
- ويعنى انتو حترضوا... ليه تيجى أمه وييجى أبوه نقول لا وخلص...

انفعلت تريزا وأخذت فى البكاء... لم تكن تبكى من أجل صليب كانت تبكى من أجل نفسها، فهي تعرف أنه ليس لها دور فى اختيار عريسها وماذا يجدى أن تقول لا أو نعم فى أمر زواجها من صليب... إن أمها لم تتحمل أن تسمع أن أم حجاجى كلمتها فى الزواج فماذا يحدث لو قالت الحقيقة...؟ إنها ترغم نفسها على الكذب لماذا تكذب؟ إنها ترضيهم... وهى لا ترضى نفسها بهذا.

ازدادت عصبيتها فى بكائها وأمها تمسك بها محاولة أن تهدئها وقد فوجئت بتصرف ابنتها.

- اهدى يا بنتى وبعدين نتكلم فى الموضوع ده.

شعرت الأم أن ابنتها غريبة عنها... هناك أشياء تحدث فى حياة ابنتها وهى لا تعرف عنها شيئاً كما أنها متأكدة أن أم حجاجى لم تحدثها فى هذا الموضوع. شعرت بالخوف من إحساسها بأن ابنتها تكذب عليها. ما هى الحقيقة؟ هل تحب ابنتها صليب؟ عندما وصلت بتفكيرها إلى كلمة الحب شعرت بقشعريرة. إن ابنتها تطعننها بسكين. فإن أحداً من أسرتها لا يعرف هذه الكلمة، إنها تذكر عندما تقدم المقدس عبد المسيح لخطبتها لابنه فهمى، وافق أبوها دون أن يسألها، ودون أن ترى فهمى إلا فى الكنيسة ساعة الإكليل. وهى ابنتها تحدثها عن صليب... وهى فى هذه الحالة من البكاء.

هدأت الأم ابنتها وأخذتها إلى حجرة نومها...

- استريحى شويه... يا حبيبتي.

إنها تحب ابنتها حباً شديداً وعلى استعداد أن تصنع أى شئ لها، لكن زواجها من صليب ولد حسبو أمر صعب على نفسها، حسبو عامل فى السكة

الحديد كانت ترى أسرته تكدح وتتعب. كيف تزف ابنتها إلى عالم غير عالمها؟ وحاولت الأم أن تهدئ نفسها وحين هدأت ابنتها سألتها:

- وإذا قلنا لا؟

- أنا عارفة إنكم حتقولوا لأ...

- أصله يا بنتى دول مقامهم مش من مقامنا.

- ليه يامه...؟ عم حسبو راجل شريف مكافح وابنه راجل ليه مستقبل أحسن من كتير من شبان الأيام دى. أنا متأكدة إنه سيكون دكتور كبير.

أحست الابنة أنها تقول الكثير، فأرادت أن تسحب كلامها:

- وعلى كل أنا مش مستعدة للزواج.

أجابت الأم بحزم:

- ومقلتيش لأم حجاج ليه كده؟ وقفلت الموضوع؟

لم تجد ما تقوله، فتذكرت نصيحة منيرة.

- أنا مش حجوز خالص... حبقى عانس.

صرخت الأم:

- بتقولى إيه؟

شعرت تريزا برغبة فى الاستمرار فى هذا الدور:

- أنا بفكر أروح الدير.

- دير... دير إيه يابنتى؟!!

تضايقت الأم من هذه الفكرة... لن يحدث هذا... لن ترى ابنتها راهبة

أبدأ... يهيا لها أن ابنتها تخيرها بين صليب أو الدير. ليتها ما تعلمت، هذه نهاية

التعليم... إنها لا تستطيع أن تقول لها هذا الكلام، فقد زاداها التعليم حساسية، وأى

كلمة منها معناها انفجار تريزا فى البكاء...

أنهت الأم الحديث:

- الأمر بيد الرب وأبوك لما ييجى نشوف رايه.

لم تخرج تريزا من حجرتها حتى حين عاد أبوها.

سأل الأم وهى فى المطبخ:

- آمال فين تريزا؟
- نائمة.
- الحمد لله اللى الدراسة انتهت علشان متسافرش تانى... البنت دى بتملا على حياتى.
- ادعيلها بابن الحلال.
- لم يفكر فى زواج تريزا، ويضايقه أن تلوح هذه الفكرة فى ذهنه... وضعت الأم الطعام على المائدة أمامه... وأخذ يأكل بتناقل...
- صحى تريزا تاكل معايا.
- سيبها هيه تعبانة.
- حاولت المرأة أن تدخل الموضوع فى الحديث، فانتزعت الكلمات وهى أيضاً تحاول أن تلوى الحقيقة.
- أم حجاج... بتقول إن صليب عاوز يخطب تريزا.
- ارتعش الرجل وتوقف عن الطعام:
- صديتى نفسى يا شيخة.
- ياراجل كل... البنت بيجيلها الوحش والكويس.
- ارتفع صوته:
- إزاي الولد ده وأبوه وأى حد من أهله يجروا يجيب سيرة بنتى... وإيه دخل أم حجاج فى الكلام ده؟
- أهى كلمة يابو جورج... ومترفش صوتك البنت مش لازم تسمع.
- سمعت تريزا كلام أبيها... وهى تحب أباه، وعلى استعداد أن تصنع أى شىء فى سبيله، وأن تتزوج أى رجل يقبله زوجاً لها ولكن هذا الموقف ساءها، وحرك رغبة العناد فيها.
- إنها لن تتزوج صليب على الرغم منهما، فهذا لا تقبله، ولا تظن أن صليب يقبله أيضاً... ارتاحت لفكرة الدير...
- وتعجبت من نفسها كيف تستريح لهذه الفكرة التى لم تخطر على بالها قط.
- وصلها صراخ والدها:

- لا تسمع... والعالم كله يسمع.

وجدت المرأة صراخه بلا مبرر:

- يا أبو جورج... هو صليب ماله... حرامى؟ وأبوه ماله قتال قتلة؟ دول

ناس مسيحيين زينا.

- ده مش كفاية.

تضايق من تعليقه، ونظر إلى زوجته. هذه أول مرة ترد عليه منذ أن

تزوجها... ماذا حدث فى العالم...؟ تذكر تأميم القطن، شعر أنه وحسبو

سيتساويان... وكره الفكرة.

- كفاية كده دلوقتى.

وضع جلبابه الصوفى على كتفه وخرج... جلس على قهوة «كرنك بار»...

وشرب القهوة... حيا بعض أصدقائه ثم وقف آخذًا طريقه إلى بيت الشيخ نور

الدين... لم يكن يريد أن يزوره الآن... ولكنه الواجب... الشيخ نور الدين أحب

الناس إلى قلب أبيه عبد المسيح.

التقى فى الطريق بالأب مكارى متجهًا إلى نفس المنزل، وبعد تبادل التحية

المعتادة سارا صامتتين... كان الأب مكارى مهمومًا. قضى طفلة هذا اليوم فى

الزنية قبلى، فقد عاد بعض الطلبة من القاهرة وأخذوا يبشرون بين الأهالى

بمذهب جديد. الزنية فى نظره قلعة الأرثوذكسية فى مديرية قنا، حافظ مسيحيوها

على تراثهم، حتى إن بعض شيوخها يجيدون القبطية، حركة تبشير الكنيسة

الغربية تهدد وحدتهم... عندما كانت الأقصر قرية صغيرة لم يكن بها سوى كنيسة

قبطية واحدة صغيرة وقديمة ولكنها قوية... والآن الأقصر بها ثلاث كنائس

أرثوذكسية، وعشر لأصحاب المذاهب الأخرى... ومشكلات الطلاق التى بدأت

تقتحم عليه بيته كل يوم، وجد الشبان لها حلاً باعتراف مذهب مسيحي آخر،

والمبشرون الغربيون لهم أتباعهم، ومعهم القوة والمال وما يغرون به الشباب...

الحضارة.

وصلا إلى منزل الشيخ نور الدين... انقبض فهمى عندما رأى صليب، خاف

أن يتطرق الحديث إلى موضوعه... قرر ألا يخوض فى أى حديث عنه.

- أهلاً بنيامين.

يحب الشيخ أن ينادى مكارى باسمه قبل التعميد عندما كان طالباً في مدرسة الأقباط.

- أهلاً شيخ نور الدين... أنا آسف للتأخير... مريت عليك الصبح قلت يمكن تكون محتاج حاجة فى اليوم العصيب ده... لقيتك خرجت، وبعدين رحت الزنية، مشغوليات كتيرة علينا...
- ربنا يكون فى العون.
- افكرت انهارده أيام لقصر القديمة... كانت أيام متتعوضش.
- انت شفت منها حاجة.
- أنا شفت آخرها.
- الحمد لله... لكل زمان دولة... ورجال... الواحد حياخد زمانه وزمان غيره... هوه بس صعبان عليا أشوف نهايتها... كان نفسى جنازتى تكون فى الساحة... لكن إرادة الله، ولا راد لقضائه.

توجه الشيخ إلى فهمى:

- وانت ازيك يافهمى.
- نحمد الرب على كل شىء.
- دخل محمود بصينية الشاى، وصب كوباً للأب مكارى، وآخر لفهمى ثم خرج. قال الأب مكارى:
- محمود إنسان طيب... الرب يبارك فيه... نعم الخلف.

رد الشيخ:

- الواحد زعلان على الساحة وزمانها، مين عارف يمكن دول يكونوا أحسن منينا... أنا لما بشوف زمايله بفرح... شوف صليب مثلاً ابن حلال... أبوه لازم يفتخر بيه.

ابتسم الأب مكارى وهو يعلق على كلام الشيخ:

- ده قريبننا.
- منا عارف ولاد لقصر القديمة كلهم عيلة واحدة إن شاء الله نفرح بيه.
- شعر فهمى أن ما كان يخشاه سيحدث، ولن يستطيع إيقافه والشيخ يكمل كلامه وهو يبتسم:

- متشوفوا له يا بنيامين عروسة.

رد الأب وهو خالى الذهن عما يدور فى رأس الشيخ:

- العرايس كتير بس هوه يؤمر... مين تقول لأ على صليب؟

توقفت الابتسامة فى وجه الشيخ واكتسى جديته المعهودة التى عرفه بها فهمى منذ أن كان معلمه فى المدرسة، ووجه كلامه لفهمى:

- شوف يا فهمى أنا جايز مليش حق أتكلم فى الموضوع ده لكن انت ابنى...

واستمر الشيخ يحادثه عن صليب وعن الغنى وعن الفقر وإن أهم شيء هو غنى النفس، وإنه يرى صليب خير من يصلح لابنته ويحذره أن يتخذ المال مقياساً لاختيار زوج ابنته... أمن مكارى على كلام الشيخ وقد أدرك أنه لا يتكلم من فراغ.

- هيه يا سيدنا إنسانه ممتازة وصليب إنسان ممتاز كمان... وربنا يوفق.

رد فهمى:

- لكن محدش كلمنى فى الموضوع ده.

لم يمهله الشيخ ليكمل كلامه:

- أبوه خايف أنك مترضاش.

أسقط فى يده. وحاول أن يتخلص من الموقف:

- طب امهلنى شوية لحد مشاور عمامها.

خلصته هذه الكلمة من الحوار الطويل فى الموضوع، إلا أنه ازداد انقباضاً فقد شعر أن المشكلة تتعقد، لو قال لا بعد ذلك فسيبدو أمام أهل الأقصر رافضاً لكلام الأب مكارى وكلام الشيخ نور الدين، أى أنه يرفض كلام كل أهل الأقصر.

شعر برغبة فى الانصراف، ولكنه لا يستطيع قبل أن يبدأ الأب مكارى فى الاستئذان، خاف أن يطيل الأب جلسته... وقف بعصبية وهو يقول:

- استاذن أنا.

رد الأب مكارى:

- أنا خارج معاك.

لم تغب عن الشيخ نور الدين حالته، فوجد أن عليه أن يخفف عنه توتره وضيقة:

- شوف يا فهمى... الولد مفهوش عيب ومتعقدش المسألة... خدها ببساطة... بكره صليب حيكون لك أغلى من كل الأولاد وفكر على مهلك... بس متطولشى... بعد أسبوع إذا ما وصلنيش خبر منك والد صليب حيكون عندكم فى البيت.

ثم وقف الشيخ ليسير معهما إلى الباب وهما يلحان عليه فى البقاء ولكنه رفض.

ما إن سمع محمود وصليب صوت غلق الباب حتى أسرعوا إلى حجرة الشيخ. يقول محمود بلهفة:

- هيه حصل إيه يابا... إن شاء الله خير.
- خير يابنى... شوف يا صليب إحساسى إنه حيوافق... أنا اتفقت معاه زى انهارداه إذا مبعثليش تبعت أبوك له... لكن اعرف إذا ما وافقشى تبقى إرادة ربنا وملكشى نصيب فيها... وتنسى الموضوع ده تمامًا.

استمع صليب للشيخ بصمت المترقب للنتيجة، وقفت فى أذنه كلمة الشيخ «إذا ما وافقشى» وسرح ذهنه فى تريزا، شعر بألم شديد فى فكرة فقدتها. لم يطل فى سرحانه حتى طرق الباب طرقة عنيقا... استعاذ الشيخ بالله من الشيطان الرجيم:

- يا ساتر... يارب.

قام محمود ليفتح الباب... نظر الشيخ فإذا به أمام ريا يغطيها السواد وهى تصرخ والدموع تتساقط من عينيها.

- الحقنا يا سيدنا الشيخ... الحقنا... الخراب حيحل بينا.

قام صليب وخرج معه محمود ليوصله إلى بيته.

جلست ريا تحكى للشيخ والدموع فى عينيها قصة ابنتها الصغيرة عزيزة وكيف أن والدها وأخوتها قرروا قتلها مع الفجر. فقد حملت الفتاة وتبين الأب ذلك. وهو الآن يحاول أن يعرف الفاعل، وفى نيته ونية أخوتها أن يقتلوا فى الفجر.

اهتز الشيخ وأخذ يستعيز بالله ويدعوه الستر على ولايا المسلمين والناس أجمعين.

- والبنت قالت اسم الرجل؟
- لا... وأنا خائفة بنتى تموت وجوزى وولادى يروحوا السجن.
- وانت عارفه الشخص؟
- عارفاه كويس يونس ود مصيلحى صاحب المطعم.

كانت عزيزة أصغر من يونس بسنتين. مطعم والده بجوار بيتها، لم تكن تستتر منه. تكونت بينهما علاقة، لم يكن أحد يعلم أن تصل إلى هذا الحد. لم يتصور أحد أن يقوم يونس بهذا الفعل حتى أهلها، فهو مثل ابنهم، ولكن الفعل حدث فللشيطان مليون عين، ومليون مدخل يدخل به على البشر.

- أخذ الشيخ فى لبس قفطانه وهو يقول لريا:
- روحى انت يا ريا واقعدى ساكتة لحد ما اجى.
- روح يا شيخ نور الدين الله يحفظك ويحفظ ولادك وبناتك ويزيدك من نعيمه دنيا وآخره مين غيرك نأمنه فى الدنيا دى... روح إلهى يزيدك من نوره.

خرجت ريا وخرج وراءها، فوجد محمود مع صليب يقفان بجوار عامود النور فى الشارع، نادى الشيخ ابنه:

- محمود روح بسرعة هات لى عريية.

اقترب محمود من والده وقال وهو فى خشية عليه:

- الدنيا ليل يابا... ممكن تنتظر للصبح.
- صبح إيه يابنى... روح هات عربية وانت ساكت.

عاد محمود سريعاً بالعربة، ركب الشيخ وهو يقول للعرجى بيت مصيلحى، أوقف الشيخ العرجى بعيداً عن منزل مصيلحى، وسار بقدميه داخل الحارة الضيقة... رائحة روث البهائم المختلط بغائط البشر تزكم الأنوف، ولكن أنف الشيخ قررت ألا تشم شيئاً. كان أهالى الحارة قد فرشوا للنوم فى طرقاتها. ارتفع صوت الشيخ:

- يا مصيلحى... يا مصيلحى.

ردت زوجته وهى لا تستطيع أن تتبين القادم ولا يساعدها عشى عينيها الدائم ولا الظلام على الرؤية.

- مين؟
- نور الدين.
- نور الدين مين؟
- الشيخ نور الدين... نادى مصيلحى...

دخلت المرأة حاصلها المبنى الطين. خرج مصيلحى وهو يزعق:

- مين؟

- وبعد أن تف ونف خرج متثاقلاً فوجد نفسه أمام الشيخ:
- مين الشيخ نور الدين... زارتنا البركة... اتفضل.
- لأ هات ابنك يونس وتعال معاى عاوزك فى البيت... أنا مستنك فى العربية بره.

لم يتكلم الشيخ بكلمة واحدة إلى مصيلحى وابنه فى العربة وهو يستغرب من زيارته له ويحاول أن يخمن سبب استدعاء الشيخ لهما. فخرجت كلماته معبرة عن قلقه:

- الحكاية... لازم كبيرة يا سيدنا الشيخ؟

لم يرد عليه الشيخ وعندما وصل إلى منزله طلب من العرجى أن يرحل ودخل المنزل مع مصيلحى الذى كان يصرخ دون أن يخرج عن حد الأدب:

- إيه فيه يا شيخ نور الدين؟
- فيه جريمة منوفى حيقتل بنته فى الفجر.
- يقتلها ليه...؟ واحنا مالنا؟
نظر الشيخ إلى ابن مصيلحى الصامت... وقص الشيخ عليه القصة التى روتها المرأة له، فعاد إلى صراخه:
- ده مش ممكن... مش ممكن ابنى يعمل كده.

ظن مصيلحى أن امرأة منوفى تريد أن ترغم ابنه على الزواج من ابنتها، وأنهم يزجون بالشيخ فى الموضوع حتى يرغمه على ذلك، وهو لا يوافق على أن يزوج ابنه من ابنة منوفى فهو يراه نصاباً ويرى زوجته ريا نصابة؛ تدخل على الحريم فى البيوت لتبيع لهم الملابس المستوردة وتسرق ما شاء لها أن تسرق، ومنوفى يخرج ليبيع المأكولات فى القطارات وعينه على شنط المسافرين وصبيانهم يسرقونها ويقفزون من القطار وهو فى أقصى سرعة.
- ده مش ممكن يا شيخ نور الدين... دول ناس بطالين وانا لا يمكن أجوز ابنى لبتهم... يروحوا يدوروا على حد غيرنا.

نظر الشيخ إليه فى صرامة:
- مصيلحى هدى... البنت حنتقتل وانت عارف لو حصل ده أنا جعل فىك إيه، وبدل متقول عليهم ناس بطالين... اسأل ابنك.

نظر نور الدين إلى يونس وصرخ فيه:
- يا ولد... ده صحيح؟
أخذ الولد يجهش بالبكاء فهو لم يكن يتصور أن يصل الأمر إلى أن تقتل عزيزة الجميلة... لقد أحبها... طلب من والده أن يزوجه لها فرفض بحجة أن أهلها من الحلب سراق الحمير... نهر ابنه، وهدده بالطرد من البيت ولكن الحب غلب عليه فلم يستطع أن يمتنع عن لقائها.

دخل عليها ذات يوم... فوجدها وحيدة، فار جسده وجسدها. اغتتم الشيطان الفرصة، اقتحم الصدور والأجساد.

استمر الولد هذا الحس الجسدى، عزيزة جميلة وطرية وناعمة... لم يتوقف... حملت عزيزة، وعرف الولد، كلم والده فى أمر زواجها... نهره الأب

بقسوة فهو يرفض أن يزوج ابنه من ابنة الحلبي... أخذت الولد الأفكار... ضاق بنفسه أنه لا يستطيع أن يتزوجها بمفرده فهو لا يعمل عملاً مستقلاً عن والده، كلمته البنت في الزواج والهرب من البلد... وهو لا يدرى كيف؟... فليس معه نقود، فكر أن يسرق والده ولكنه لا يجد فرصة لذلك. صرخ مصيلحي:
- ياواد اتكلم...

رفع الولد صوته من بين نحيبه:
- أيوه.

أمسك مصيلحي بيونس وحمله بين يديه، رفعه ورماه على الأرض، وأخذ يضربه بقسوة:

- فضحتنا ياابن الكلب... ياواطي... يادون... يامخول واطي.

طلب الشيخ من مصيلحي أن يرفع يده عن ابنه، أمسكه من ذراعه، أحس مصيلحي بالألم، لم يكن يعرف أن هذا الشيخ يحوى هذه القوة، جلس على الكنبه... وقال بصوت هادئ مهزوم:

- أعمل اللي ترضاه ياابا الشيخ...
نظر إلى ابنه:

- ياواد دى عملة تعملها... انت اللي عاوز القتل.

غاب بعد ذلك في الصمت... إنه يعرف الأصول... لم يكن يريد لابنه أن يتزوج من بنت الحلبيه... ولكنه هزم، قطع عليه تفكيره صوت الشيخ ينادى ابنه:
- محمود... تعال.

أراد الشيخ أن يحضر محمود ليبقى معهما حتى يمتنع الأب عن ضرب ابنه، ثم توجه الشيخ إلى بيت منوفى وحين خرج من الشارع ووصل إلى ميدان الحوض، كان الميدان خالياً، وفجأة ظهرت عربة، وقفت بجوار الشيخ. كانت تحمل أحد المرشحين ومعه جماعة من أنصاره قادمين من الريف فيوم الانتخابات بعد غد... والمرشحون لا ينامون هذه الأيام... قبل المرشح يد الشيخ:

- ادعيلنا ياابا الشيخ... الواحد عاوز يخدم البلد. ماهو زى ما انت عارف البلد الأيام دى مفهاش حد يخدمها.

لم يسأل المرشح نفسه أين سيذهب الشيخ؟ ولم يعطه الشيخ اهتماماً كبيراً
فقد كان متعجلاً الوصول إلى بيت منوفى.

* * *

الليل طويل على منوفى... فهو لم ينم... يعرف أنه سيقتل ابنته فى الصباح
ستحمل جرتها لتملأها من ماء النهر وسيلقى بها هناك... إنه يريد أن يعرف منها
المجرم الذى لوث شرفه.

الشرف هو الشئ الوحيد الذى يحرص عليه منوفى... والشرف عنده ليس
إلا العرض... لقد سرق... ونهب هذه شطارة... ولكنه لم يدنس عرضاً لأحد...
ضاقت نفسه... صرخ:
- يارب ليه ده...؟

سمع صوت الشيخ نور الدين هب وإقفاً، لا يعرف لماذا يحضر الشيخ فى
هذا الوقت من الليل؟ هل عرف الناس بالفضيحة قال لنفسه «فضيحتك بجلال يا
منوفى».
- اتفضل يا شيخ نور الدين.

لم يكن يتصور أن يدخل الشيخ حاصله، ولكنه دخل وأخذ يلف نظراته فى
الحاصل، سأل الشيخ:
- فين عزيزة؟

كانت عزيزة فى حجرة صغيرة داخل حجرة أخرى فى الحاصل قد أحكم
أبوابها وأخوتها قيدها.

رد منوفى:

- نايمة.

- فك البنت يا منوفى.

- يا شيخ نور الدين...

- فك البنت يا منوفى... البنت متتعذّيش يوم فرحها.

- بتقول إيه يا شيخنا؟

- بقول فك البنت ولبسها وتعالى معايا...

- أنا حكتب كتابها النهارده... دلوقت.
- مش أعرف على مين...؟
- يونس ود مصيلحى.
- «عملها الكلب» حدث منوفى نفسه بذلك، وضع رأسهم فى الوحل وأرغمهم ابن مصيلحى على أن يزوجه البنت، إنه يستحق القتل لا الزواج من ابنته. كلاهما يستحقه... لم يتركه الشيخ لأفكاره:
- عجل... الفجر قرب... اليوم ده طويل... وأنا عاوز أنام شوية.
- متخليها الصبح يا شيخنا.
- صبح فى عينك قليل أدب... انت متصور إن قتل البنت أو الواد حيحمى عارك... دى فيها شئق يا منوفى... ومفيش حاجة تريحك غير زواجهم... دول عيال... يللا بينا.
- رفعت الأم صوتها بالدعاء للشيخ:
- ربنا يستر عليك وعلى ولاياك... يا ربيع الغلابة.
- لا يدرى منوفى كيف عرف الشيخ حكاية ابنته ولكن الشيخ لا يخفى عليه خافية، إنه يعرف كل شئ فى المدينة.
- وضع منوفى طاقيته الأسيوطى على رأسه وحمل شومته بيده ومشى مع الشيخ فى صمت تتبعهما ربا وابنتها عزيزة.

* * *

دخل الشيخ الحجرة وتبعه منوفى الذى سلم على مصيلحى سلاماً فاتراً دون أن يمد إليه أو إلى ابنه يداً، جلس على الكنبه المواجهة لمنوفى بينما جلس الشيخ على كرسى أمام مكتبه وأخرج دفتر العقود. فى هذه اللحظة دخلت ربا وعزيزة وجلستا فى الصالة.

رفع الشيخ صوته:

- يا عزيزة تعالى...

دخلت الفتاة الحجرة. وقبل أن ينظر إليها محمود بهت فقد رأى وجه والده يتغير تماماً وهو يرفع عينيه إلى وجهها، عيونه تتسع فوق اتساعها تتمركز فى

وجه الفتاة مشدودة إليها شداً... ارتعشت عيونه... محمود يرى ارتعاشه يده...
جسده كله يرتعش...

وقف الشيخ كمن يريد أن يستقبل قادمًا عزيزًا افترق عنه منذ مدة...
- مين... عطيات.

ردت الفتاة:

- أنا عزيزة يا سيدنا الشيخ.

جلس الشيخ على كرسيه وقد أدار وجهه، وظهر أنه يحاول بجهد أن يعود
إلى توازنه. فتح الدفتر وقال دون أن يرفع وجهه إلى عينيها:
- أهلاً عزيزة.

تمتم بصوت مسموع «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»... ثم رفع نظره إلى
ابنه محمود الذي كانت عيناه تتفرسان فيه...
- يا محمود نادى جارنا صديق... علشان يشهد العقد.

ثم وجه كلامه إلى منوفى ومصيلحى:

- وانت يا منوفى حتكون وكيل بنتك وانت يا مصيلحى وكيل ابنك ومحمود
وصديق حيكونوا شهود العقد.

- وانت يا بنتى أول ما ييجى صديق تقولى وكلت عنى والدى منوفى فى
عقد زواجى، وانت يا يونس حتقول وكلت عنى والدى مصيلحى فى عقد
زواجى... مفهوم.

رد يونس وعزيزة معاً:

- مفهوم يا سيدنا الشيخ.

خرج محمود لينادى صديق... وهو يعلم أنه سيوقظه فليس فى الشارع أحد
مستيقظ سوى محمود وأبيه. حاول أن ينادى صديق ولكن الكلمة لم تخرج من
فمه فإن عقله مع الشيخ نور الدين... ما الذى حدث له؟... وأى ألم يخفيه...
عطيات... عزيزة... هل هى زلة لسان؟ لا يمكن أن تكون عطيات... عزيزة
شخصاً واحداً... لا... وجه الشيخ وصوته والطريقة التى ارتعش بها جسده
كله... لا تجعل من عطيات غير شخص آخر ليست زلة لسان إنها شىء عميق

قوى دفين ساكن داخل الشيخ... هل هي ظنون منه؟ هل يمكن أن يكون لهذا الرجل العملاق...؟ لم يكمل السؤال... طرده من ذهنه... امرأة... حب... أوقف تفكيره... نادى صديق وعاد به إلى المنزل.

دخل صديق الحجرة... لم يدخل معه توقف في الصلاة لينظر إلى عزيزة فإنه لم يكن قد وجه إليها نظره لقد شغله الشيخ عنها.

التقت نظراته بصفائرها التي خرجت من طرحتها لتنزل على الكنبه التي تجلس عليها وعندما وقع بصره على وجهها تسمر... حبس صيحة كادت تخرج منه. كتمها على الرغم منه. حمداً لله أن لم يخرج صوته ليسمعه والده... يا الله لكم هي جميلة عزيزة... عيونها الواسعة ذات الرموش الطويلة وكأنها رسم، عليها حاجب دقيق ليس فيه شعرة زائدة وقد تحرك مع العين... إنه يعلم أن هذه الفتاة ضربت مبرحاً هذا المساء، ومع هذا فلا يبدو من عينيها غير الكحل الرباني، أنفها الدقيق يشكل مع شفتيها الورديتين تناسقاً منحتة الطبيعة لهذا الوجه، غمازة صغيرة في ذقنها تجعل هذا الوجه فريداً في جماله من بين جميع الوجوه التي رآها طيلة حياته... تحركت عيناه لتتنظر إلى بقية جسدها...

سمع صوت والده:

- محمود... تعال.

دخل محمود فنادى الشيخ عزيزة، طلب إليها أن ترفع صوتها لتوكل والدها في عقد زواجها... صوتها يخرج من الصلاة دافئاً يهزه... الشيخ نور الدين يجرى شعيرة الزواج... محمود لا يسمع منها كلمة... يفكر في عزيزة... كان هذا الجمال سيقتل اليوم... مصيلحي يرفض زواج عزيزة من ابنه... يا الله أي تناقض في هذا العالم إنهم يقتلون الجمال... يعيثون به... أو لا يفهمونه.

وقف فجأة وخرج لينظر إلى عزيزة، تذكر أغنية شائعة في المدينة عن عزيزة ويونس تحدث فيها عزيزة يونس عن جمالها ترى هل تصف الأغنية عزيزة بنت منوفى ولكن الأغنية أقدم من ميلادها وميلاده... ترى هل كانت الأغنية تمثل حلمًا بجمال قديم... وهو الآن يراه ماثلاً أمامه... خجل من نفسه ووقفته فعاد إلى الحجرة ليجد والده قد انتهى من كتابة العقد وأخذ يوجه كلامه لمنوفى:

- بنتك يا منوفى جهزها... بكره الحنة وبعده الدخلة... وانت يا مصيلحى بكره تدور لولدك على حاصل وتأسسه وتعمل للولد عربية يبيع فيها فول وطعمية، وجه الشيخ نظره إلى يونس:
- مبروك يا يونس... ابق افرش فى حنة الحوض... دى حنة كويسة... وراعى مراتك وإذا نقصك شىء تعال.

توقف الشيخ لحظة. ظهر واضحاً أنه يفكر. عاد السلام إلى وجهه. ابتسم ثم مد يده إلى دولاب مكتبه فتحه، وأخرج حافظة قديمة لم يرها محمود من قبل. قلب الشيخ فى جيوب الحافظة، ثم رفع صوته بحنان...

- عزيزة... يا عزيزة... تعالى...

حضرت عزيزة ووقفت أمامه:

- أيوه بابا الشيخ.

نظر إليها الشيخ وابتسامة تضىء وجهه وقد أخرج جنيهاً ذهبياً من الحافظة. نظر محمود إلى أبيه إنه لم ير هذه الحافظة قط من قبل، ولا يعرف أن والده يملك نقوداً ذهبية، ولم يسمع بذلك من والدته أو أى واحد من أخوته. يقدم الشيخ الجنيه الذهب إلى عزيزة وعيون الموجودين جميعاً تنظر إليه.

- خدى يا عزيزة الجنيه ده نقطة زواجك.

- ده كتير بابا الشيخ... انت عملت كتير لينا انهارد ربا مبحرنا منك.

أمسكت عزيزة بيد الشيخ وأخذت تنهال عليها تقبيلاً. سحب الشيخ يده:

- أستغفر الله يا عزيزة... أستغفر الله...

كانت الدموع تتساقط من عينيها وهى ترى هذا الرجل الكبير الذى تحلف المدينة بحياته يقف بجوارها ويمنحها كل هذا العطف.

- هدى يا عزيزة... انت حتروحى دلوقت وحتخلى بالك من يونس... متسيبهبوش أبداً... روحى يا بنتى الله يكرمك ويحفظك ويحفظ ذريتك. روحى يا بنتى مع السلامة.

لم تتوقف الدموع من عينيها حين قام مصيلحى ويونس يستعدون للخروج.

طلب الشيخ من منوفى أن يبقى وقال لمحمود:

- روح نام لك شوية.

خرج مصيلحي وابنه ومعهما ريا وابنتها عزيزة ولم يذهب محمود إلى الحوش لينام في الظل وإنما خرج معهما ليوصلهما إلى آخر الشارع لم يتمكن من رؤية عزيزة فهي تسير خلفهم. وحين وصل إلى آخر الشارع أحس محمود أن عليه أن يعود، فقد خجل من نفسه. سلم عليهم وأخذ يتابع عزيزة وهي تسير وتبتعد عن ناظره لتختفي في الظلام.

عاد محمود إلى منزله. سمع صوت والده يستنوب منوفى. دخل الحوش، وجد والدته نائمة، استيقظت على صوت خطواته... لو لم تستيقظ لأيقظها فهو يريد أن يتكلم معها عن عطيات... عن عزيزة... عن الجنيه الذهب، وجد أمه لا تعرف شيئاً، لا عن عزيزة، ولا عن عطيات، ولا عن الجنيه الذهب.

سمع صوت الباب يُفتح ثم يُقفل. إنه منوفى خارج ولا بد أن الشيخ سينام بعد هذا اليوم الطويل.

لم ينم الشيخ بعد خروج منوفى فقد استلقى على الكنبه، ثم رفع رأسه وأخذ يتمتم:

- يارب لماذا تفتننى وتفتن ابنى...
- يارب أتجربنى؟ حمداً لك وشكراً لحسن ظنك بى... ولكنى يا إلهى لا أحتمل تجربة أخرى... أكمل طريقى بالخير حتى ألقاك... ولا تفتنى يا إلهى عن حبك... هذا صعب...
- توقف... شدته الذكرى... عقله يعدو بعيداً إلى سنوات طويلة. لا يريد أن يعود... تتمم... أستغفر الله... أستغفر الله، ثم قام ليصلى لله.

استغرق فى صلاته زمناً، ثم سلم، وعاد إلى الكنبه فاسترخى محاولاً أن ينام قليلاً قبل أن يستيقظ لصلاة الفجر. ولكن الصور القديمة استعادت قوتها. فتحررت فى ذاكرته حية لم يضيّع منها الزمن شيئاً.

إنه يتذكر عندما رآها لأول مرة. كان ذلك فى عامه الخامس فى القاهرة لقد انتقل إلى بيت جديد فى حى الحسين. ذهب أول الشهر إلى منزل الحاج عبد الرحيم العطار صاحب البيت فى حى بركة الفيل ليدفع له الإيجار. طرق بابه، فتحت له الباب فتاة وعندما وقع بصره عليها تسمرت عيناه، هى، هى بلحمها ودمها صاحبة الصورة التى كانت تصلى معه فى البرية وهى تحمل طفلها الوليد بين ذراعيها. لقد رآها هناك أكثر من مرة، يعرفها معرفة وثيقة، تتمم يا سبحان الله.. هى.. هى.. عيونها الواسعة المكحلة بالكحل الربانى ذات الرموش الطويلة عليها حاجب دقيق ليس فيه شعرة زائدة وقد تحرك مع العين، أنفها الدقيق يشكل مع شفتيها الورديتين تناسقاً منحته الطبيعة لهذا الوجه، وغمازة فى ذقنها تجعله فريداً فى جماله. تقف فى جلال ملكى. جسدها يحمل الأثوثة التى رعتها يد مقدسة. يا الله... ألقى بنظره إلى الأرض فقد بادلتها الفتاة النظرة المندهشة

المتطلعة إلى وجه مألوف عاش معها دائماً وتريد أن تسحبه من ذهنها لتتأكد من حقيقة وجوده، لم يعرف أن عينيه قد استطاعتا أن تتحكما في قلب الفتاة.

سأل نور الدين عن الحاج عبد الرحيم العطار فردت عليه بصوت حنون:
- أنا عطيات بنته.

- إذا سمحت إديله الفلوس ديه.

سلمها الإيجار دون أن يرفع عينيه إلى وجهها، وحين خرج من المنزل أطلق ساقيه للريح حتى وصل إلى منزله وقد ابتل عرقاً. ارتمى على فراشه صارخاً: يارب...

لم يكن يعرف الحقيقة... لقد غابت عنه عطيات... صاحبته في الصلاة في البرية...

هل هي تجربة يختبره بها الله...!!

قضى في البيت يومين... يريد أن يعرف هل ما حدث حلال أم حرام؟ وقف ليصلي، فطرق الباب، أكمل صلاته وبعد أن انتهى قام ليفتح الباب فإذا به صديق طفولته بصيرى، احتضنه بحرارة، فيه الخير فهو لا يفتأ يزوره كلما عاد من السودان. غريب بصيرى هذا... هو ابن الحياة... لا يحده شيء عن التمتع بها، تزوج أربع مرات وهو لم يتعد الثالثة والعشرين من عمره، يضحك من كل شيء وعلى كل شيء حتى على الجمع بين زوجتين يراه حراماً لا يليق بالرجل، كلام يقوله وهو لابس لباس الجد ثم يطلق ضحكته عالية يرفع بعدها صوته: الخامسة يارب بكر.

ولكن بصيرى يدخل عليه بوجه حزين متألم، سألته عن سبب حزنه، لم يجبه إجابة واضحة:

- أصلى تعبان.

هناك مشكلة يعاني منها بصيرى ولا يريد أن يقولها. هذا العبادى يخفى أمراً لحكمة خاصة به.

- إيه فيه يا بصيرى؟

- فيه تلتيميه وخمسين جمل مستنيين فى «أم باد» ومش لاقى واحد أمين يصاحبنى فى جيبتهم لمصر.

- لا حتلاقى إن شاء الله.
- منا ملاقيه بس يرضى يروح معايا.
- فهم نور الدين غرض بصيرى فهو لا يريد أن يفهم أن هذا ليس عمله.
- قال بصيرى:
- خمسين جنيه ذهب أجر الرحلة ديه يعنى أكثر من اللى حتأخذه جراه
- من الأزهر فى أكثر من خمس سنين.
- يا بصيرى مش رايح... أنا راجل علم.
- راجل علم... راجل علم.
- صمت بصيرى وقرر أن يعود لحالته العادية حتى لا يعرف نور الدين حقيقة مشكلته. على كل حال لن يفقد الأمل فى أخذه معه.
- ومع أن بصيرى كان مهمومًا إلا أنه استطاع أن يدرك أن نور الدين مهموم أيضًا.
- أقترب بصيرى من نور الدين وحاول أن يتعرف منه على سبب همه. لم يقل له نور الدين شيئًا. صرخ بصيرى:
- يا أخى حرام عليك نفسك قل لى إيه إالى تاعبك... مش جايز أريحك.
- متقدرش.
- مقدرش على إيه؟... أنا بصيرى ابن الحياة. معرفش أقرأ ولا أكتب لكن أعرف أقرأ الحياة كويس قوى.
- أطرق نور الدين طويلاً وشعر بالرغبة فى أن يقول لبصيرى الحقيقة. خرج صوته ضعيفًا خجلاً:
- أنا بحب يا بصيرى وخايف أكون غلظت.
- حكى نور الدين لبصيرى عن عطيات. وما إن انتهى من حكايته حتى ضحك بصيرى ضحكًا عاليًا مما أغضب نور الدين منه.
- إيه فيه يا بصيرى... بتضحك ليه.
- يا أخى هو الضحك حرام؟ هو ده إالى تاعبك... يا أخى كنت تقول...
- تعرف بس أنت لو تغير من شدة طباعك دى وعنفك كانت الدنيا كلها

تجيبك. ضيعت على ميت جنيه كانت رفيقة حتهملى لو وافقت تخليها تشوفك... تشوف عينيك.

- يا بصيرى كفاية كده... إن مسكتش حرميك بره.
- ارم... يا أخى المسألة بسيطة... هو الحب حرام؟ أبدًا ده أحل الحلال...
- يا نور الدين اسمع كلامى مرة فى العمر. إلبس ويلنا.
- على فين.
- بس إلبس.

وجد نور الدين نفسه منساقا لما يقول بصيرى ولم يعارضه وهو يأخذه إلى منزل الحاج عبد الرحيم العطار، وقرب البيت طلب منه بصيرى أن يذهب إلى هناك ويسأل عن الحاج ليتأكد من تسلمه النقود.

ترك بصيرى وذهب إلى المنزل. فتحت له عطيات، فى هذه المرة لم يلق بنظرة عينيه إلى الأرض وإنما ركزهما على وجهها... هناك شىء يدفعه إلى الالتصاق بها. يقاوم.. يجرى من أمام المنزل فيجرى بصيرى وراءه.

- وقف يا نور الدين.

يقف نور الدين فيرى بصيرى عينيه قد احمرتا فيصاب بالخشية منه. لقد ألبس وجهه صورة الأسد المخيف.

- أنت شيطان يا بصيرى.

لم يرد عليه بصيرى فقد خاف أن يخرج نور الدين عن طوره. وسارا صامتين حتى وصلا إلى البيت.

لم يمكث فيه نور الدين بل خرج إلى الشارع، وجد نفسه يعود إلى شارع بيت عطيات. يلقاها مظلة من الشباك فيتسمر. ينظر إليها وتنظر إليه. أشارت إليه بيدها أن ينتظر ثم اختفت من الشباك. قلق نور الدين فهو لا يعرف ما تعنى لم يطل انتظاره فقد رآها تخرج من منزلها لابسة ملايتها السوداء وقد غطت وجهها باليشمك. تقدمته وهى تسير بسرعة. لا يدرى ما يصنع؟ إلا أنه أطلق رجليه ليسير خلفها. ترك مسافة بينهما حتى هدأت من مشيتها وهنا سارا متجاورين. لم يقل لها كلمة واحدة حتى بدأنه بالحديث:

- إزيك يا سى نور الدين.

- الحمد لله إزيك انت.
- أنا مش عارفه مالى انهارده ازاي خرجت م البيت بالشكل ده.
- لم يرد عليها نور الدين فقد وجه نظره إلى تياترو على يمينه، تطلع إلى إعلانات التياترو الجوق العربى يقدم سلامة حجازى فى شهداء الغرام الليلة وكل ليلة، تمنى لو يأخذها لمشاهدة سلامة حجازى والاستماع إليه.. صوت قادم من الجنة. نظر إليها وأمعن النظر فى وجهها. قال لنفسه الياشمك يزيد لها جمالاً.
- قالت له:
- أنا اتأخرت ياسى نور الدين.
- عاد بها إلى نفس الطريق، وقبل أن يصل إلى بيتها توقف ليودعها قالت له وهى تسرع:
- تعال بكرة الساعة حداشر فى البيت.
- عاد إلى بصيرى فوجده متوتراً من الانتظار. يريد بصيرى أن تحدد علاقة حب نور الدين بعطيات.
- يا أخى خمسين جنيه دهب لرحلة فى السودان مش حتغرم فيها ملهم واحد.
- ولا مليون يا بصيرى.
- غير بصيرى موضوع الحديث، إنه لم ييأس بعد من نور الدين:
- شكلك متغير.. سعيد.. أصله أنت شكلك ميتغيرشى إلا لما تكون سعيد... يا ناوى تمد إيدك.
- لأ سعيد..
- تغير وجهه ثانية وهو يقول له:
- لكن يا بصيرى أنا خايف أكون بغضب ربنا.
- بتغضب إيه يا بنى آدم.. أنت حجر والا صخرة.
- جايز لتنين.. أنا الأيام دى مش عارف حاجة.
- يا أخى متفكر، خمسين جنيه دهب يجوزوك أربع نسوان... يا أخى بدل متتعذب متجوز وتخلص.
- أجوز ازاي لازم أبعت البلد والبلد ترد وتوافق.. وفلوس.

- ياخى آدى خمسين جنيه دهب.
- يا بصيرى خلى فلوسك. مش رايح السودان.

انتهى الحوار بينهما وجلس نور الدين ليقرأ. وقف طويلاً أمام الكتاب. لم يفتح منه غير صفحة واحدة. لم يكن قادراً على التركيز ومتابعة الكلمات فقد كان ذهنه غائباً مع عطيات.. طالت جلسته.. أرهق.. توقف للصلاة.. جلس بعد الصلاة متألماً فقد اقتحمت عليه عطيات صلاته. أخذ يستغفر الله. هل دخل الشيطان قلبه؟ فهذه أول مرة تقتحم ذهنه ساعة الصلاة أفكار بعيدة عن الله. إنها تجربة. دعا الله ألا يجعل للشيطان على قلبه سبيلاً.

- طلب نور الدين من بصيرى أن يلبس فقد قرر أن يخرج لزيارة الحسين.
- أنا قاعد فى البيت.. روح لوحذك.

بصيرى يفكر فى السودان.. الجمال هناك فى انتظاره وهو فى حاجة إلى نور الدين ليساعده على إحضارها، كيف السبيل إلى إقناع هذا الرجل ذى الرأس الحجرية؟ ليس أمام بصيرى إلا الصبر، لن يغادر مصر دون نور الدين ولكن كيف؟ أصاب بصيرى الضيق. لبس جلبابه الأبيض وخرج مع نور الدين لزيارة الحسين. سارا صامتين حتى دخلا المقام. أخذ نور الدين فى صلاة لم يقطعها غير أذان العصر.

تصور بصيرى أنهما سيخرجان بعد الصلاة إلا أن نور الدين استمر يقطع الصلاة بالتسبيح ويقطع التسبيح بالصلاة.

- إيه فيه إيه يا نور الدين.. استشيخت قوى كده. يلا بينا.
- روح أنت يا بصيرى أنا جاى بعدك.

تركه بصيرى وأخذ يلف حى الحسين يخرج منه إلى دروب الأزهر وخان الخليلى يتابع الفتيات بنظراته. نساء القاهرة ليس كمثلهن نساء، كورود الصحراء فى الشتاء قوية الرائحة عظيمة الجمال.. إنه ينقل عينيه فما أن يتركا واحدة حتى يلتقيا بأخرى تفوقها جمالاً.

غربت الشمس وغربت معها الفتيات فعاد إلى المنزل، ولم يجد نور الدين. أخذ الظلام يلف المنزل فأشعل ضوء مصباح غازى. ألقى بجسده على سرير جريدى فى انتظار نور الدين الذى لم يعد إلا منتصف الليل. كان أسيان حزيناً.

- يا نور الدين عامل فى نفسك كده ليه.. علشان بنت.. القاهرة فيها آلاف البنات كلهم حلوين.

لم يرد عليه فهو يعلم أن بصيرى لا يفهم أحاسيسه. خلع جلبابه، وارتمى على سرير مجاور لسرير بصيرى، نظر إليه، شعر بإعزاز شديد له، فهو ابن الصحراء يطلق لنزواته العنان فلا يحدّها شىء، الحرام عنده ما يؤذى أحداً أما ما يخصه فلا حرام فيه ولا حلال. لا يعقد أمراً. الحياة عنده طريق مفتوح له ألف باب... لا يكره منه شيئاً غير علاقته بالمرأة فهو لا يراها إلا أداة للمتعة يحبها كما يحب الشمس والقمر والنجوم إلا أنه يملها وينتقل من واحدة إلى أخرى كأنما هى طريق صحراوى يعبره إلى طريق آخر. ولا يهمه أى طريق يسلك طالما أنه سيصل إلى النهاية.

- بتكلم نفسك يا نور الدين.

- لا ياخى نام.

- أنت مش هتروح السودان... أنا محتاجلك.

- بقول لك نام.

- تعرف أنت يا اللى عاملى شيخ وولى إنت عاوز لك واحدة كده زى رفيقة عليها غنج يا نور الدين... إنما غنج... تعرفك إن الله حق... أى والله... الله حق.

- اتق الله يا بصيرى... واسكت.

- أنت بتتقيه لينا احنا لتنين... والله مرضى أكون زيك ولو تضمن لى الجنة... حابس لى نفسك زى ما تكون سجن وسجان.

رفع نور الدين صوته...

- نام يا شيطان... نام... بقول لك نام.

ونام بصيرى واستغرق فى النوم بينما لم تغفل عين نور الدين حتى سمع صوت آذان الفجر. قام وخرج ليصلى الفجر فى المسجد. وعندما أقفل الباب استيقظ بصيرى وبقي على فراشه يحلم بعالم الجمال... السودان... المرأة القاهرية ثم سأل نفسه أيهما أجمل المرأة الكردفانية أم القاهرية؟ وجد السؤال سخيفاً فليس هناك أجمل من القاهرية. تأسف لأنه ليس لديه وقت لمعرفة الإجابة الحقيقية على هذا السؤال فهو لابد أن يرحل إلى السودان ومعه نور الدين. ولكن كيف يقنعه؟ لن يعدم وسيلة لإقناعه.

توقف بصيرى عن التفكير فى هذا الموضوع حين سمع صوت الباب يفتح ويرى نور الدين داخلاً إلى الحجرة:

- صليت يا خوى... صلى خلى ربنا يفتح علينا.
- إيه يا بصيرى متنام.
- فيه مشكلة شاغلانى.. أنهى أحلى المرأة الكردفانية ولا القاهرية.
- يا شيطان نام.
- أنام إيه؟ الشمس طلعت.

قام بصيرى ليعد طعام الإفطار. وجلسا معاً يأكلان ونور الدين صامت. وبعد أن انتهى من طعامه لبس جلبابه ولف عمته على رأسه وخرج. بصيرى يقول فى نفسه غريب نور الدين يعذب نفسه دون مبرر.

* * *

قضى نور الدين وقته، منذ أن ترك عطيات، فى صراع شديد بينه ونفسه.. أذهب إليها أم لا؟ فقرر ألا يذهب إليها فى موعدها وألا يراها ثانية. أحزنه قراره ولكنه صمم عليه. ضاق بنفسه فخرج من المنزل، وأخذ يسير فى حى الحسين دون هدف واضح توقف عند مقهى الفيشاوى. جلس على كرسى وطلب كوباً من الشاي الأخضر. جاءت إلى ذهنه عطيات حلوة جميلة رائعة الفتنة استسلم للصورة التى يراها ولم يحاول أن يبعدها.. جاءت فكرة لماذا لا يراها ثانية؟ هذا غير مبرر. سيتزوجها سيكتب لوالده خطاباً يبلغه بقراره ليرى رأيه ورأى عمه وأهله. والده وعمه لن يعترضا على قراره فهما يحبانه وسيسعدان بهذا، المهم ألا يعترض أحد من المشايخ الكبار فى العائلة وبالذات عم أبيه السيد يوسف. ولكن لماذا يعترض؟ فهو شيخ كبير مرفوع عنه الحجاب وسيرى عذابه وسيعرف ويوافق.

قام واشترى برقع ملين ورقاً وظروفا وعاد إلى المقهى ليجد الشاي الأخضر على الطاولة. وقبل أن يمد يديه إليه أخذ فى كتابة خطاب مختصر لوالده يبلغه بعزمه على الزواج ويسأله رأيه ورأى عمه الشيخ أحمد أبو الدقون. وضع الخطاب فى مظروف ثم شرب الشاي وسار نحو البوستان بشارع الأزهر.

وضع الخطاب فى الصندوق. توقف لحظة لا يدرى ما يصنع. أذهب إلى

جامع الأزهر؟ معظم المشايخ قد ذهبوا إلى بلادهم وليس هنا إلا القليل من زملائه؟ لم يتحمس لفكرة الذهاب إلى المسجد. احتار، أذهب إلى البيت؟ فكرة معقولة ولكنه بدلاً من أن يتجه إليه سار في الطريق المؤدى إلى بركة الفيل، حتى وصل إلى بيت عطيات. طرق الباب وهو مسلوب الإرادة لا يفكر في غير رؤيتها. فتحت له عطيات، نظر إليها لا يعرف ما يقول:

- ادخل مفيش حد فى البيت أمى راحت القرافة تزور أخوها وأبويا فى المحل.

دخل دون تردد. أجلسه فى حجرة الجلوس. تحركت برشاقة الغزال، آه ما أجملها..

- تفطر يا نور الدين.

- اقعدى.

- لا تعمل شأى الأول.

يذكر نور الدين أنه لم يتردد لحظة، لم يشعر بخوف من مفاجأة عودة أمها أو أبيها، لم ينتبه شعور اللص الذى يسرق ولا الإحساس بأنه يقدم على عمل غير شرعى لا يليق به. إنه لم يهتم بأى شىء... سيحارب الدنيا من أجلها... سيأخذها.

- عادت بالشأى وجلست على الكنبه أمامه.

- إزيك يا نور الدين...

يبدو أن الفتاة لم تجد ما تقوله فهو لم يشجعها على الكلام، ولم يحاول أن يخلق حواراً.

- أبويا بيشكر فيك كثير وفى عيلتكم.

ماله الآن وكلام العائلات، ليتهما تقف ليراها كلها.. جسدها مع وجهها.

- عطيات.

- أيوه يا سى نور...

- ممكن أشرب...

- عينى...

آه... الصوت وطريقة الكلام... لم يتعود نور الدين ذلك فهو لم يعرف غير تلك الأصوات الخشنة التى تخرج حروفًا قاسية بلا لين.

عادت إليه ممسكة كوب ماء... اقتربت منه. نظر إليها وهى تقدم الكوب أمسكه دون أن يسحبه من بين يديها. لمس يدها... اهتز، واهتزت... وضع الكوب على منضدة مجاورة وبسرعة رفع يده اليمنى لتمسك بيدها وعينه تتركزان على عينيها.

نظرت إليه، سبحت فى عينيه آه.. إنهما ساحرتان تضيعان قدرتها على التفكير. تفقد التوازن، هل يدري ما صنعت عيناه بها منذ أن رآته أول مرة يحدث والدها فى تأجير منزلهم فى الحسين. جعلتاها لا تنام الليل وهو لا يعرف أنها موجودة.

نظر إليها... غرق فى عينيها... آه منهما.

هل تعرف ماذا صنعت عيناه فيه منذ أن رآهما.

سحب يدها فتجاوب جسدها مع حركته. وقف... أمسك بشعرها... قربها... لم تقل شيئاً... تشجع... ضمها إلى صدره، رمى بها فى حنان بالغ إلى الكنبه. وضعت يديها على خديه ثم أخذت تنظر إليه فى حب عميق... ضمته إليها... لمس شفتيها بيديه... قبلها... تحركت يده على جسدها... عراها... أخذ ينظر إلى الجسد. ويدها اليمنى ممسكة بيده... يا إلهى هذا أول جسد عار لامرأة ينعم النظر إليه. خطوطه مثل خطوط جسد صاحبه التى كانت تصلى معه فى البرية... لون البشرة صاف صفاء ماء النيل وضوء الشمس ينعكس على صفحته. سحب يده اليسرى وانطلقت يدها تلمسان الجسد وهما يتحركان حركة غير منتظمة فوقه. مد يديه إلى صدرها... عراه... توقف. اتسعت حدقة عينيه. رفعت وجهه أخذت تنظر إليه. شعر بالرغبة فى ضمها... تحركت يدها على جسدها. شعر بدفء فى داخله أحس بأنه يريد أن يشبع ظمأه بحرارتها شد نفسه من بين يديها... لمس شعرها... أخذ يغطى به الجسد... انتفضت عروقه، أحس بالرغبة فى الالتصاق بالجسد... يصدر منها أنين الرغبة. يدفعه نحوها وتتصاعد الرغبة فى احتوائها فيقف ليرفع جلبابه ويخلعه أعاده ثانية... نظر إليها نظرة المشدوه التائه. اتجه نحو الباب وصوت الفتاة ينطلق حنوئاً إلى سمعه:

- أنا بحبك يا نور.

لم ينظر خلفه.. فتح الباب وأخذ يسرع هارباً إلى منزله.. ارتاع بصيرى

عندما رآه.. كان يبدو كمن خرج من الجحيم.. احمرت عيناه..برزت عروق وجهه.. التوت شفتاه.

صرخ بصيرى:

- إيه فيه يانور...؟ إيه فيه؟

نسى بصيرى السودان والجمال، ولم يعد يهمه شيء إلا نور؛ إذ لا بد أن شيئاً قد حدث له فهو لم يرد عليه. دخل حجرته وأقفل بابها على نفسه. طرق الباب عليه كثيراً. حاول أن يكسر الباب صرخ نور...

- يا بصيرى سيبنى فى حالى. واسكت.

- يا نور إيه فيه؟

- مافيش حاجة.. سيبنى فى حالى.

توقف بصيرى فقد أصابته الحيرة ولم يدر ما يصنع؟ فقرر أن يلزم الصمت فهو يعرفه جيداً، لن يقول له شيئاً إلا حين يرغب من ذات نفسه أن يقوله، يعلم أنه تعود أن يعيش همومه بمفرده. ولقد أدرك أن هذا همٌ فريد فى حياة نور همٌ من نوع آخر.. سرح بصيرى، ربما يكون الحب، فهو لا خبرة له بعالم النساء.. ليته يقول له مشكلته فهو خبير بهن عليم.

لم يكن بصيرى يعرف أن نور يسكب الدموع ألماً لما صنع اليوم، لقد أحس أن إبليس نفسه هو الذى وقف وراءه، أفقده البصر والبصيرة، وضعه أمام نزواته التى لم يتصور يوماً أنه يملكها، لقد تعود كبح جماح نفسه حتى انقادت له. قسى على الخاطنين.. آه يا نور طردت صديقاً من البيت؛ لأنه نظر خلصة إلى جسد امرأة.. وها أنت تقتحم بيتاً دون إذن من صاحبه لتعذب بحرmates. يؤلمه أنه صنع كل ما صنع بعطيات دون تردد، لم يكن يشعر بأنه يفعل حراماً. كانت نفسه مطمئنة إلى فعله، إنه يكتشف فى نفسه القدرة على فعل أشياء لم يكن يتصور نفسه بقادر حتى على التفكير فيها.

لمس وضم وقبل ورأى جسد الفتاة، ملأ يديه وجسده وعينييه بشظايا من نار جهنم بل بنار جهنم السابعة. ولا غفران لك يا نور. أنت لا تستحق حتى هذا الاسم نور، والدين أيضاً، هذا كثير عليك فلتمسى من الآن ظلاماً، هذا حسبك وهذا حقك. رفع يديه إلى السماء:

- يا رب إنى أحترق.. كيف أصل إلى الغفران؟ يا رب إنى عاص.. كيف السبيل إلى عفوك؟

يستمتع بصيرى إلى أنين نور ولا يعرف ما يصنع.. لم يخرج يوماً كاملاً من حجرته، لم يأكل، لم يشرب، لم يتوضأ ليصلى ماذا حدث له، ما يرهق بصيرى أنه لا يعرف؟ ولا يستطيع المساعدة.

صرخ بصيرى:

- يا نور خمسين جنيه ذهب تزوجك عطيات.. أزودهم عشرين مقدرشى أدفع أكثر من كده.

يبكى نور حين يسمع بصيرى. كان يمكن أن يكون ذلك قبل أن يصنع ما صنع، أما الآن فلن يزيل خطيئته كل ماء بحار الدنيا آه يا إلهى، واستغرق فى البكاء.

يعود بصيرى ثانية إلى قلقه فقد مر يومان ونور لم يشرب ولم يأكل شيئاً.

- يا نور حرام عليك نفسك.. أنت بتنتحر كده.. ده حرام.

ليسته يموت ليرتاح من هذا الإحساس المروع بالخطأ.. لم يحدث هذا لأحد من أهله. لقد قاومهم ليذهب إلى الأزهر ليكون شيخاً عظيماً وقبل أن يحقق شيئاً من أحلامه يسقط فى الخطيئة، إنه لم يحقق علماً ولا فضلاً.

يومان لم ينم فيهما لم يأكل ولم يشرب. لا يشعر بحاجة إلى الطعام. قتلت فيه الرغبة فى الحياة فلا يريد أن يرى أحداً ولا يراه أحد، إنه مدنس بفعل الشيطان. الظلام يلف جسده وقلبه وروحه.

تعب فاقفل عينيه وقبل أن يستغرق فى النوم سمع صوت بصيرى يناديه:

- يا نور افتح.. كل لك لقمة واحدة..

بصيرى خير منه يعيش حياته دون ادعاء، يصنع ما يريد، لا يخفى شيئاً من حياته.

لا تتبدى بصورة القديس وتصنع صنيع الشيطان.. أنت منافق يانور.. ارتفع صوته:

- يارب.. كيف السماح؟

الساعات تمر على بصيرى مرهقة. صديقه فى محنة لا يستطيع لها دفعا. واليوم الثالث فى طريقه للانتهاك ونور لا بد أن يقتله العطش والجوع. لن يستسلم بصيرى لنور ولن يتركه لنفسه. أخذ يدفع الباب بقوة حتى كسره، فوجده راقدًا منهوك القوى ضعيف الحركة، لم يستطيع حتى أن يصرخ فى بصيرى كعادته حين يصنع شيئًا لا يرضيه. أجلسه بصيرى وهو يسنده على صدره ووضع كوز ماء فى فمه. يمج نور الماء يسيل على ملابسه.

- اشرب يانور... اشرب يا أخويا.

- ابعده يا بصيرى... ابعده عنى.

لماذا يشرب؟ أليعيش؟ وهل يستحق الحياة؟ وقد خان كل ما كان يؤمن به؟

ولكن بصيرى لم يبتعد، أصر على أن يشرب ولم يتركه إلا بعد أن شرب. قدم له طعامًا. لم ينجح بصيرى فى أن يجعله يأكل. فكر أن يذهب لعميه أبو الحجاج وحسين عليهما يساعداه فى إقناع نور بأن يأكل. تردد بصيرى فهو لا يريد من أحد أن يرى نور فى هذه الحالة فهو يخفى سرًا. ومن الخير ألا يقحم أحدًا فى هذا الموقف، لكن اليوم الرابع انتهى ونور يأخذ فى الضعف.

- إيه فيه؟ قل لى.. أنا أخوك.

أخرج نور كلماته ضعيفة خجلة:

- خنت الله يا بصيرى.

- يا أخى الله غفور رحيم.

لا شك أن إيمان بصيرى بالله أقوى منه، فهو يراه غفورًا رحيمًا، أما هو فيراه جبارًا منتقمًا. بصيرى لم ينافق أما هو فنافق ربه. ادعى لنفسه مالا يمثل حقيقته، لقد تكشف على الحرام، وهم بالزنا لولا أنين المتعة الذى تعالى من فتاته والذى أخذ يحركه نحوها ويذكره أيضًا بأنه يفعل المنكر لثم كل ما أراد الشيطان.

أخذ يتمتم بالآية الكريمة فراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلفت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله ثم رفع صوته، قلبت الآية يا نور.. قلبت الآية.

بصيرى يرجوه أن يأكل فلا يسمع منه إجابة غير دموع يسفحها.

مر اليوم الخامس جلد نور يدهش بصيرى. إصراره على ألا يأكل غير مفهوم له. جسده يزداد ضعفاً ليس الطعام وحده مصدر تعبفه فهو يعذب نفسه من الداخل، قال بصيرى لنفسه لا بد أن أصنع شيئاً. ذهب إلى منزل عبد الرحيم العطار. وجده حزيناً فابنته أيضاً مريضة. تركه وانصرف فعالم نور كله مريض.

عاد إلى نور فى المساء.

- يا نور عطيات عيانه وبأين عليكم حتموتوا سوا.. ياخى كل...

قوم.. اصح..

وضع له ملحاً فى الماء وأسقاه إياه، عينا نور تتمركزان فى السقف تائهة بعيدة عنه.

- يا نور قوم صلى.

كيف يواجه الله فى صلاته وقد خاته.

نام بصيرى فقد أجهده نور. الحياة معه أصعب بكثير من الرحلة فى الصحراء ومفاجأتها.

استيقظ بصيرى على آذان الفجر.

- قوم يا نور صلى.. يا أخى رد.

جلس بصيرى على الأرض وقد شعر بالعجز عن صنع شيء لنور، ولو أنه استمر على ذلك أياماً فلا بد أنه ميت، لن يجلس هكذا مترقباً هذه اللحظة، سيصنع أى شيء حتى يأكل ولو اختطف عطيات وجاء بها إلى هنا. آه يا نور لماذا لا تأخذ الحياة ببساطة؟

لم يكن بصيرى قد استقر على شيء محدد يصنعه حين فتح الباب ورأى الشيخ الطيب يسير فى الصالة ويدخل على نور حجرته.

انخلع قلب بصيرى من المفاجأة، واسترد أنفاسه ليحمد الله على حضوره، فقد أدرك أن مشكلة نور قد حلت، فوقف مكانه لا يستطيع حراكاً.

رفع الشيخ الطيب صوته بحنان الأب:

- يا نور الدين... يا نور الدين.

رأه نور... عرفه... تمنى لو مات قبل أن يولد على أن يراه الشيخ الطيب
ملوثاً بالخطيئة... التف حول ذاته... تداخل... أغمض عينيه حتى لا تريا الشيخ
وكانما يخفف بذلك من حدة إحساسه بالخجل منه. فلقد افتضح مع الله ومع
الناس.

عاد الشيخ الطيب إلى ندائه وقد رق صوته رقة صوت الطائر المتفانى فى
عالم الحب:

- يا نور الدين... يا نور الدين.

افتح عينيك يا نور الدين لترى الحقيقة... لترى النور... لترى الحب.

فتح نور عينيه:

- شيخنا...

خرجت كلمته مبجوحة حزينة.

- يا نور الدين أتقتل نفسك؟

أخذت الدموع تتساقط من عينيه واستمر الشيخ فى قوله:

- يا نور الدين قرأت آية وتركت آية... نسيت همت به وهم بها لولا أن

رأى برهان ربه. ولقد رأيت برهان ربك... يا نور الدين إن الله جميل

يحب الجمال فأراك الجمال لا ليفتنك وإنما ليثبتك ولقد ثبتك الله.

يا نور الدين الحب طريق محفوف بالمخاطر ومن أرادنا فلا بد أن

يخاطر. وطريقنا طريق الحب... فهو نور السماء وروح الأرض وقلب

الإنسان... من لا يعرف الحب لا يدخل طريقنا... من لا يعرف حب

الناس لا يعرف حب الله.

يا نور الدين إن الله حبيب محب يحب الأحباء... وسيلته حب واستغفاره

حب ورحمته حب...

يا نور الدين لا تفسد الحب بالقنوط من حب الله، فحب الله رحمته

وسعت كل شيء.

اختبرك الله بالحب ليعلمك الرحمة ويملاً قلبك بنور الحب فهو نور

الإيمان. إنما يملأ الله قلب عبده بالإيمان حين يملؤه بالحب فلا إيمان

بغير حب ولا حب بغير إيمان.

فإنه لم يعط الإنسان اسمًا من أسمائه غير اسم واحد هو: الحبيب.
فاسكن أيها الحبيب للحبيب ولا تفسد الحب بالقنوط. ستتزوجها يا نور
الدين...

استرد نور الدين قوته. قفز نحو الشيخ وأخذ يقبل يده. سحب الشيخ يده
وقبل رأس نور الدين وأجلسه. وغاب عنه من حيث أتى.

انتعشت روح نور الدين كما انتعش جسده وعادت إليه الحياة ثانية وأكل
كثيرًا وقبل أن ينتهي من طعامه نظر إلى بصيرى الذى اكتسى وجهه صورة الأبله
من الدهشة. فهو لم يستوعب ما حدث.
- أنت قلت سبعين جنيه ذهب.

رد بصيرى وهو مازال فى ذهوله:

- أيوه قلت.

- وأنا حروح أجيب الجمال معاك من أى حته إن شاء الله تكون النوق
العصافير من أرض النعمان.

عاد بصيرى إلى نفسه وهو يرد على نور الدين:

- يا سلام يا نور الدين... دى حتبقى رحلة العمر بعديها مش حتسلى
السفر.

- مش لازم تفكر فى بعديها... أنت معاك كام منهم دلوقت.

- عشرين وبعد منرجع تاخذ الخمسين.

- طب هات العشرين.

- بعد الظهر.

- لا... دلوقت.

أخذ نور الدين النقود ثم لبس ملابسه.

- زينة الرجال يا نور الدين

لم يرد على بصيرى... تركه وخرج متوجهًا إلى بيت عميه أبو الحجاج
وحسين.

كان الصباح فى أوله فوجدهما يستعدان لتناول الإفطار. يتعجب لنفسه لقد
شاركهما الطعام وكأنه لم يأكل منذ ساعة واحدة.

كلم عميه عن رغبته فى الزواج، عارض حسين فى أن يتم الزواج قبل أن يصل رأى العائلة فهذا أمر خطير لا يجب أن يتقرر فى مجلس العائلة الصغير فى القاهرة. كان رأى أبو الحجاج أن يتم الزواج فهذا شرع الله يمكن أن يتخطى فيه موقف الأسرة.

رفع حسين صوته:

- ده ميحوزش.

أبو الحجاج:

- ليه ميحوزش؟

تكلم نور الدين:

- الشيخ الطيب جانى انهارد وادانى الإذن بالزواج.

تعجب حسين من قوله:

- الشيخ الطيب مش فى القاهرة!

- لكن جانى!

ابتسم الشيخ أبو الحجاج:

- هو من أهل الخطوة.

رد حسين:

- أنا مآمنشى بالحاجات دى.

قال نور الدين:

- أنا متأكد أنه حيصلى المغرب فى الحسين.

تصاعد الجدل بينهما حول أحقية نور الدين فى الزواج ولم يرد أبو الحجاج

أن يطيل الجدل فى الموضوع:

- إذا كان الشيخ الطيب هنا ناخده معانا ده أبونا كلنا... مش كده والا إيه؟

كان صمتهما يعنى الموافقة. وتركهم نور الدين على موعد أن يلتقاهما فى

صلاة المغرب فى الحسين.

مرت الساعات بطيئة حاول أن يقطعها بشراء حاجيات لعروسه من سوق

الموسكى، اشترى لها ذهباً وقماشاً حتى انتهت نفوده قرر أن يذهب إلى المنزل

ليأخذ نقوداً من بصيرى فلم يجده. لقد غاب بصيرى ولم يعد إلا قبيل الغروب.
ليخبره أنه لم يعد يملك غير مصاريف الرحلة.

أخذ نور الدين بصيرى إلى مسجد سيدنا الحسين ليلتقى بعميه. ووصلوا
جميعاً صلاة المغرب فى المقام. وبعد الصلاة طافوا حول المقام فوجدوا الشيخ
الطيب جالساً يتمم بورده.

وعندما أحس بنور الدين أمسك بيده وأجلسه بجواره وسلم على أبو
الحجاج وحسين وبصيرى وقد التفوا فى نصف حلقة حوله.

وجه الشيخ الطيب كلامه إلى أبو الحجاج وحسين وقال:
- اتفقتم يا مشايخ... يلا بينا على بركة الله.

توجهوا إلى بيت الحاج عبد الرحيم فسر بزيارتهم سروراً عظيماً.

فاتحه الشيخ الطيب فى رغبة نور الدين فى الزواج بابنته رحب الرجل إلا
أن غمامة حزن طافت على وجهه.

- بس يا سيدنا الشيخ هيه عيانة. رد عليه الشيخ الطيب:

- إن شاء الله تشفى... بس انت قل لها الشيخ نور الدين والمشايخ هنا
عاوزينك.

ذهب الرجل وعاد فرحاً:

- هيه جايه يا سيدنا الشيخ.

كان من رأى الشيخ الطيب أن يكتبوا عقدها الليلة وأن الهدايا التى أحضرها
نور الدين هى شبكتها أما الدخلة فتؤجل.

صمت الشيخ قليلاً ثم قال:

- سيدبر نور الدين المهر... وما يصنعه الله بعد ذلك فهو أمره.

لم يعلق نور الدين على كلامه فهو متأكد أنه يعلم بأمر رحلته وإلا لما ذكر
العقد وتأجيل المهر.

رحب الحاج عبد الرحيم بالفكرة.

- ده شرف كبير إن إحنا ناسب المشايخ الأشراف... والله عطيات دى

غالية عليه قوى... وتسفيرها الصعيد شىء صعب على نفسى لكن أنا موافق علشان خاطركم. ونور الدين أصله غالى على كمان. وهيه هدية مننا ليه.

قاطعه نور الدين:

- المهر خمسين جنيه ذهب حدفهم بعد مرجع م السودان.

فوجئ أبو الحجاج وحسين بخبر رحلته إلى السودان ولم يعلقا على ذلك. فقد حضرت عطيات. نظر الرجال الثلاثة بصيرى وأبو الحجاج وحسين إليها.

أقسم بصيرى أن هذا الجمال لا تعرفه الملائكة والجن والإنس. هذا شىء مختلف عن كل جمال رآه أو تصوره. قال فى نفسه وقعت يا نور الدين وقعه.

قال أبو الحجاج لنور الدين بعد وقت طويل من هذا التاريخ قضيت أسبوعاً أستغفر الله من نظرتى لها فقد كانت فتنة تمشى على الأرض. ذكرها حسين بشكل عابر لامراته بأنها كانت تشبه المساخيط وقد حدد حسين لزوجته صورتها بأنها تشبه بالذات أجملهم وكأنها صورة الملكة المرسومة على جدران معبد الأقصر التى تحمل طفلها بين يديها. لكم هى فاتنة!

تمتم حسين الملك لله.

لم تتوقف أحاسيس الإعجاب بالفتاة بعد أن خرجت، وحتى بعد أن انتهت مراسيم الزواج الشرعية.

كتب عقد الزواج، كان وكيله الشيخ أبو الحجاج كما كان وكيلها والدها وشهد العقد حسين وبصيرى بينما كان الشيخ الطيب يلقي الصيغة الشرعية للزواج.

خرج نور الدين مع صحبه وهو أسعد الناس جميعاً.

ليلة لم تتكرر فى حياته لم يصنع فيها شيئاً مختلفاً، ولكن أحاسيسه كانت مختلفة تماماً عن ذى قبل.

لقد تركهم الشيخ الطيب ومضى بصحبة نور الدين رافضاً أن يصحبه شخص آخر.

قال بصيرى لنفسه: هذا سر.

مشى أبو الحجاج وحسين إلى منزلهما واتجه نور الدين ومعه بصيرى إلى زميل سكنه القديم الذى طرده من البيت ليعتذر له، بصيرى يتعجب من نور الدين فهو يعتذر ويعترف بأنه أخطأ. إنه يتغير لم يعد الشخص القديم. ما أجمل صحبتك!!

أخذ بصيرى ونور الدين بعد ذلك يستعدان للرحيل فقد قررا أن يسافرا الأسبوع القادم صباح الخميس، ذهب ليلة السفر إلى بيت عطيات، جلست معه فى صحبة أبيها وأمها ثم تركاه معها. كان الأب يأمنه ويثق فيه ويأمن ابنته ويثق فيها وعلى كل فهي حلاله.

كانت ليلة. ضمها قبلها... رأى جسدها دون أن يشعر بتأنيب الضمير ودون أن يمزقه الشعور بالإثم.

طلبت منه أن يأخذها معه إلى السودان. قال لنفسه، إنها لا تعرف المشاق التى سيواجهها. وقالت لنفسها لماذا يذهب نور الدين الحبيب إلى السودان ويتركها وحيدة هنا؟ لقد مرضت حين تركها، وغاب عنها والآن يتركها ليغيب مدة طويلة. طلبت منه أن يدخل عليها. قال لها:
- بعد مرجع... جازر أموت هناك.

صرخت الفتاة وبكت.

- بعد الشر.. لازم ترجع يا نور الدين وإذا كنت مسافر علشان تجيب المهر بلاش منه.. أبويا بيحبك وهو مش عاوز منك مهر.
- مش لازم هو يعوز أنا لازم أجيبه ليكى... دى الدنيا كلها أقل من مهرك لو عاوزه نوق النعمان وقميص بنته أجيبهم لتنين.. وده مش كفايه..

ولم يدعها تحاوره إذ جذبها إلى صدره ثم عاد ليقبلها قبلة لا تنقطع إلا ليستردا أنفاسهما. لم يتوقفا إلا حين سمعا صوت آذان الفجر فودعها ومضى إلى المسجد ليتوضأ، ويصلى الفجر وهو أكثر الناس إحساساً بالسلام.

عاد إلى المنزل فوجد بصيرى فى انتظاره وقد أعد حاجيات السفر. حملها وركبا عربة حنطور واتجها إلى محطة مصر.

ركب القطار مع بصيرى وتوقفا فى أسوان ليركبا الباخرة حتى وادى حلفا، ومنه أخذوا مركباً بخاريًا يتجه بهما إلى دنقلة.

مرت أكثر من ثلاثة أشهر قبل أن يصل نور الدين وبصيرى إلى سوق الجمال بفرشوط.

بقيا يوماً واحداً فيها ثم ودعا خبراء الجمال ورعاتها، الذين ركبوا القطار إلى أسوان ومنها إلى السودان ثم ركب بصيرى ونور الدين القطار متجهين إلى القاهرة.

أخذ القطار في رحلته يومين قبل أن يصل إليها، قلق الانتظار أشق عليه من رحلة درب الأربعين. إنه يريد أن يصل إليها، يراها وتراه محملاً بمهرها. انطلق إلى بيته، وجد خطاباً من والده فى انتظاره، سعد بالخطاب فقد كان يتضمن موافقته وموافقة أهله، استحم ولبس ملابس نظيفة ومضى وهو مملوء شوقاً إلى عطيات.

ترى ماذا تقول حين تراه؟ هل تعرف مدى الجهد الذى بذله ليحصل على مهرها؟ هل تدرك صعوبة المخاطرة؟ إنها تستحقها وهو على استعداد لأن يأتى بالجمال من بلاد واق الواق.

وصل إلى بيت عطيات وقلبه يخفق وجسده يرتعش. سيتزوج هذا الأسبوع.. بل الليلة.. إنه لا يحتمل تأخير الزواج أكثر من ذلك.

طرق الباب فتحت له الأم، وجهها مصفر ممتعض، نظر إليها، دهش للتغيير الذى حدث على وجهها، ارتعشت شفتاها، اهتزت عيناها تقلصت عضلات وجهها وهى تنظر إليه ثم أخذت تصرخ فى هysteria...

- ماتت... ماتت عطيات... ماتت... ماتت يا نور الدين... آه... آه... آه يا بنتى.

اهتزت الأرض تحت قدميه.. احتبس الكلام فى حلقه ضربت منطقة الشعور فيه. وقف صامتاً لحظة، والمرأة مازالت تصرخ:

- ماتت يا نور الدين ماتت بنتى الوحيدة... ماتت...

تسمرت عينا نور الدين فى الفراغ. توقفت المرأة عن الصراخ. أخذت تنظر إلى وجهه الذى تحول إلى صورة مخيفة. احمرت عيناها الواسعتان وقد ازدادت سعة. فتح فمه لحظة قبل أن تخرج صرخة حارقة..

- ما... ما... ماما... تت.

يبدو وكأن فمه أصيب بشلل، ثم خرجت الصرخة واضحة.

- ماتت... ماتت.

رد فعل نور الدين جعل المرأة تتحول من الألم على ابنتها إلى الألم عليه.
قالت والدموع تخرج من عينيها:
- أيوه ماتت... ماتت يا بنى.

وامبارح كان الأربعين... اتفضل يا بنى ادخل.

لم يدخل نور الدين... وقف أمام الباب مشلولاً. المرأة تنظر إليه وقد توقفت دموعها وفجأة جلس على العتبة فقد عجزت قدماه أن تحمله وضع يديه على وجهه وأخذ فى بكاء عميق.

ربت المرأة على كتفه:

- هدى يا بنى... كلنا لها... دى كانت بتحبك أوى يا بنى.

عادت المرأة إلى البكاء. صمتت دموع نور الدين كما صمت صوته فقد أخذت النيران تحرق قلبه. تذكر عطيات... السودان... طريق الأربعين... اللصوص... الجوع... العطش... المهر... تموت عطيات... رفع رأسه، نظر إلى السماء.

- يا ربى هذا كثير... كثير... أستغفر الله... فهذا قدرنا.

وقف، وسأل المرأة عن عنوان مقبرتها... أخبرته المرأة بصوت مرتعش، ثم أخذ طريقه إلى المدافن... وقف أمام قبرها... لم يبك وإنما أخذ يقرأ القرآن. استغرق فيه... ثم توقف. أخذ صوته يرتفع بنحيب مر.

يا إلهى... يا إلهى... يا إلهى.

ترك القبر ومضى نحو البيت، وما إن دخل حجرته حتى أخذ فى نشيج محموم.

كان بصيرى نائماً فاستيقظ مذعوراً على صوت نشيجه لقد انتظره طويلاً ليعرف منه ما حدث مع عطيات وأهلها. لم يكن يتصور أن يعود نور الدين فى هذه الحالة الدامية. أدرك بصيرى أن هناك شيئاً قد حدث عرفه فيما بعد، وتآلم له لقد ماتت عطيات بحمى أصابت المخ... قالت له أمها إنها كانت تهذى فى مرضها باسم نور الدين... كانت تريد أن تراه وتخشى أن تموت قبل أن يعود، وماتت وآخر كلماتها نور الدين.

توقف نور الدين عن البكاء، ومن يومها لم يبك إلا هذا اليوم. قضى أسبوعاً في حجرته يخلو إلى نفسه ليعبد الله. يحاول أن يستمد من الإيمان عوناً على مصيبتة الكبرى. ولكن الخلوة والعبادة والإيمان لم تنفعه فالألم يضرب في النخاع.

وعندما سمع آذان الفجر هتف:

يارب عونك... صبر الصابرين... صبر المؤمنين... صبر أولى العزم صبر موسى وعيسى ومحمد. مكروب.. مهود... مهود يا إلهي.

قام ليصلي، وقبل أن ينوي الصلاة فتح الباب ودخل الشيخ الطيب إليه في حجرته.

يقسم بصيرى أنه رأى عيني الشيخ الطيب وقد اختفى بياضهما وبدا سوادهما واضحاً قوياً.. خرج منهما ضوء تركّز على وجه نور الدين وهو ينادى: - يا نور الدين... فتنت فلم تفتن، سترها يا نور الدين فلا تفتن.

لقد عبرت... لقد عبرت... أن الأوان أن تأخذ الطريق يا نور الدين، الناس تبحث عنا ترحل الأميال لتأتينا ونحن نبحت عنك الأميال للنفاك، امدد يدك.

مد يده إلى يد شيخه وأخذ عنه العهد وسمع نصائحه بالواجبات والفروض الجديدة عليه، ثم سحب الشيخ الطيب يده ومدها إلى صدره في الناحية اليسرى مجاوراً للقلب وأخذ يدعو الله:

اللهم امنحه يقيناً بك... ويقيناً بالناس.

وسلاماً يدوم معه في الحياة والموت.

خرج الشيخ وقد شعر نور الدين بعد خروجه بأن سحباً تغطي هذه اللحظة من حياته. قليلاً ما تذهب السحب عنها غير أنه لم ينسها قط. كان يحس بأنه يعيش معها عالماً واحداً يفصلهما حاجز ما أسهل اجتيازه يفصل ما بين الحياة والموت. وما هي اليوم تعود إليه قبل أن ينكسر ما بين الحاجزين ليعطيها آخر جنيته ذهبى من مهرها.

لقد قال شيخى سترها فلا تفتن.

- اللهم شكراً.. اللهم شكراً.. اللهم شكراً.

قام ليصلى، وبعد أن انتهى من الصلاة أخذ في التسبيح فبدأ صوته يهمهم.
- هو... هو... هو...

ثم انتقل منها إلى لفظ الجلالة.
- حق... حق... حق...

وتوقف ليرتفع صوته بالتسبيح يا حبيب يا الله... يا حبيب يا محمد...
يا حبيب... يا حبيب... يا حبيب لم يكن لفظ الحبيب جزءاً من ورده ولكنه
استمر يردده فى خشوع حتى مطلع الفجر ثم ذهب إلى المسجد.

ارتمى محمود على سريريه فى الحوش... الحرارة لم تهدأ... الريح متوقفة... اليوم يوم طويل وغريب... لقد مضى على وصوله إلى منزله أربع وعشرون ساعة... يوم كامل لا يستطيع أن يعد ساعاته ودقائقه وثوانيه فى حياة رجل هذا الرجل هو أبوه... هل ترك له شيئاً ليصنعه...؟ هل ترك شيئاً لأحد... هل يمكن أن تعطى الحياة رجلاً مثل نور الدين... إنه كشجرة الجميز الكبيرة تظلل الناس جميعاً، ولن يستطيع فرع أن يحمل مكانها... إنها قوية وعاقلة حكيمة... شىء واحد يريد أن يعرفه.

عزيزة... عطيات... الجنىيه الذهب... حدث نفسه بصوت مرتفع آه لو عرف، ثم نظر إلى السماء فى اتجاه الغرب ليرى النجم ذا الذنب، تأمله، إنه الآن يبدو مختلفاً ولكنه جميل وعظيم ورائع... ولكن لماذا غير مكانه..؟ قلق محمود... واعتدل من نومته... هذا الرجل أى نوع من الرجال هو؟

بدأ الدجاج يتحرك حركة بطيئة ثم أخذت الحركة ترتفع تبعثها أصوات بقية الطيور... صاح ديك... وقفزت دجاجة إلى الحائط؛ إنه الفجر فقرّر أن يترك والده نائماً ويذهب إلى مسجد الشيخ أبو الحجاج ليصلى هناك. خطر له أن يوقظ والده ولكنه أشفق عليه، أرادته اليوم أن ينام ويستريح من الجهد الذى بذله طيلة يوم أمس.

سار نحو المسجد وقد اختلطت الأفكار فى ذهنه، حاول أن يوقفها لم يستطع.

دخل المسجد ألقى نظرة إلى صحنه فوجد والده يصلى السنة وبجواره منوفى وقد أخذ وحيد الحفنى خادم المقام طريقه إلى المئذنة ليبدأ فى الدعاء السابق للأذان.

وبعد أن انتهى محمود من صلاة الفجر انطلق مسرعاً إلى النهر قبل أن

يسراه والده، نظر إلى الجميزة ثم نزل المنحدر المؤدى إلى مياه النهر، قرر أن يخلع ملابسه وينزل الماء.

لم تكن له خبرة طويلة بالعوام، كانت خبرته بالسباحة محدودة بالترعة، لم ينزل ماء النهر إلا مرات قليلة لم يخرج بعيداً إلى مناطق الخطر كما أنه لم ينزل هذه البقعة أبداً. إن حركة الماء التى تلف لفات حلزونية تخيفه، ويخيفه أكثر القصص التى تروى عن غرق فى هذا المكان فالنهر يأخذ أضحياته هنا.

ألقى بمخاوفه بعيداً، وشعر أن قوة خفية تدعوه لأن يلقى بنفسه فى الماء.

رمى بنفسه فى النهر، وجد الماء ثقيلًا فى البداية وعندما اقترب من منتصف النهر استهواه الماء واستهوته حركته، وجده يخف وكأنه يحرك بيده خيوطاً قطنية.

وصل والده إلى النهر فهاله أن يرى شخصاً يعوم حتى منتصفه. نظر إلى الملابس الملقاة على الشط فأدرك أنه ابنه. أصابه الخوف عليه فى البداية فهو ليس متأكداً من معرفته بالعوام. أزال الخوف عنه بقراءة القرآن والدعاء لربه أن يحفظ ابنه... وأخذ ينظر إليه. إنه يغوص فى الماء، ولا يخرج إلا عندما يصل إلى الشط الآخر ثم يعود إلى سطح الماء ليغوص ثانية ويظهر فى منتصف النهر.

بدأت الحركة سريعة هذا الصباح على النهر فالقوارب تتحرك شرقاً وغرباً وابنه يقف فى منتصف النهر يقفز ويقفز، تستهويه الحركة فيستمر فى القفز.

شعر محمود أنه يتواءم مع الماء ويصبح جزءاً منه. إنه لا يتابع الماء ولكن الماء يتابعه وكأنه حين يرمى بجسده فإنما يرمى به فوق حاجز من المطاط يعيده ثانية إلى الهواء.

أخذ محمود يضرب الماء بيديه وهو يراه يزداد حمرة وارتفاعاً. نظر إلى السماء يدعو الله بدعوة أبيه أن يجعل الفيضان هذا العام رخياً مباركاً على الناس أجمعين.

الماء يعلو... ويعلو... يعلو مع قفزات محمود والأب يتابعه ويتابع علو الماء. أحس بالراحة، فقد اطمأن أن الفيضان قد بدأ... ألقى بأخر نظرة على ابنه وهو يسحب نفسه نحو الشط الشرقى للنيل. أخذ طريقه إلى منزله وقد بدأ يحس بالتعب والجهد.

مر الصيف هادئاً على محمود. أصدقاؤه يظنون أنه تغير... أصبح صامئاً لم يعد يدخل فى أية مهاترة من مهاتراتهم أو عبث ولو كان بريئاً. كانت الأشياء تتحرك داخله.. غطت مياه النيل الأراضى الظمأى... نقل الفلاحون ثمار الأرض إلى الأقصر. كانت هذه الثمار سمكاً طرياً، لم تشهد مدينة الأقصر فى موسم من مواسمها هذا الكم الكبير من السمك حتى وصل سعر أجود أنواعه إلى قرشين. وفى المساء كان الباعة يتركون بقية السمك فى السوق ليحمله من يريد حمله. لم يكن أحد يهتم أن يشتري ثلجاً ليحتفظ به لليوم التالى. فثمن لوح الثلج أغلى من ثمن السمك وغداً سيأتى الفلاحون والصيادون بسمكهم طازجاً... جمع الفقراء السمك وملحوه فى جرار... موسم غريب هذا العام لم يأكل أحد اللحم هذا الصيف. ولم يشفق إليه... الناس يقولون إن طعم السمك هذا الفيضان مختلف فهو أذ سمك أكلوه فى حياتهم. أهل الأقصر مبالون للمبالغة ولكن فى قولهم هذا شىء من الحقيقة...

انحسر الماء على الأرض وأخذ الفلاحون يسوون الأرض ويحرثونها استعداداً لزرع جديد. أخذت بشائر الزرع تظهر، وأخذت الحرارة تخف قليلاً عن المدينة. الناس جميعاً متفائلون هذا العام.

الانتخابات ظهرت نتيجتها الأولية. إعادة بين محمد عياد والعديسى. وقف أهل الأقصر مع محمد عياد، ووقف محمود مع أهل بلدته. أداروا معركة ساخنة تحت شعار الحرية والتقدم وضرب الإقطاع. نجح محمد عياد وهدأت الضجة، لتظهر ضجة أخرى: التكوينات الجديدة للاتحاد القومى. عناصر انتهازية قديمة يلجأ إليها محمد عياد. كل واحد يريد مكاناً فى الاتحاد القومى. بقية الناس لا يعبأون بشىء، يحبون عبد الناصر ويكرهون الاتحاد القومى، أشياء لا يعرفون لها تفسيراً، والأهم من ذلك نجحت شلة القطار جميعاً. وتزوجت أخته منيرة من ابن عمته.

التغيرات تحدث فى حياة الناس حتى الشيخ نور الدين شملتة التغيرات؛ بدأت حركته تضعف وأخذ يشكو من تتميل فى يده. لم يعد يخرج كثيراً، محمود يراقب والده فى قلق... الخوف ينتابه، يحاول أن يطرده، فأبوه بخير، فهو مازال قادراً أن يمنع حالات الطلاق. لم يطلق أحد زوجته هذا الصيف، كثرت حفلات الزواج. حدد زواج حسن من ليلى يوم الخميس وصليب من تريزا يوم السبت كتب الشيخ عقد زواج حسن من ليلى... عاد الشيخ من منزل حسن ليجد عمه الشيخ الشافعى أمام مسجد محسوب فى انتظاره يسأله أن يصلى بالناس الجمعة فى المسجد، فالشيخ الشافعى سيذهب إلى المطاعنة لزيارة الأحباب والمريدين... خطب الشيخ الجمعة. يذكر الناس أنها لم تكن خطبة تقليدية، لم يحدثهم عن الجنة والنار وإنما حدثهم عن الحب والعطاء وعمل الخير والنية الحسنة. عاد الشيخ إلى منزله ليجد يده اليمنى ثقيلة الحركة. كان ابنه محمود بجواره وهو يحاول أن يحرك يده.

- بابا متسكتش على كده... لازم أجيب لك دكتور.

- مفيش داعى...

ولكن محمود خرج مسرعاً يستدعى أحد الأطباء، كان تشخيص الطبيب أن الشيخ مجهد يحتاج إلى الراحة... الحالة تزداد سوءاً.

حضر صليب ليدعو الشيخ إلى حفل زواجه... ابتسم الشيخ:

- مبروك يا بنى... يا ريت أقدر.

كان صليب يعرف أن الشيخ لا يذهب إلى حفلات الزواج، هو فقط يقوم بكتابة العقد ثم يرحل، لذا لم يلح. سأله الدعاء له. قام صليب فقد شعر أن الشيخ فى حاجة إلى أن يكون بمفرده. قبل أن يخرج صليب دخل دياب ومعه زوجته؟ هذه أول مرة تحضر زوجته إلى المدينة، سلمت على الشيخ ثم دخلت لتكون مع أسرته.

- إزيك يا دياب.

ظهرت على الشيخ الفرحة بحضور دياب كان يتوقع مجيئه.

سأله الشيخ:

- خير... مأمورية ولا زيارة.

- أنا انتقلت ناظر لمدرسة الأقصر الثانوية ومراتى جايه هنا رئيسة قسم فى تفتيش الأقصر.
- عال... الحمد لله... والأولاد.
- واحد حيدخل الجامعة فى مصر والبنتين حيدخلوا المدارس هنا.

قرر دياب بعد سفره ألا يبقى فى غربته فى القاهرة وأن يعود إلى مدينته... لم يستغرقه ذلك وقتًا فى إقناع زوجته فقد بدا واضحًا عليه منذ عودته من الأقصر أنه دياب آخر غير الذى تعرفه حتى إنها خافت أن تسأله عن ثمن الأرض أو عن سبب تغيره. كان حازمًا وجاقًا، ابتعد عنها بقلبه وروحه وجسده. هجر فراشها دون سبب واضح... إنها تعرف دياب ولا تظن أن هناك امرأة فى حياته، حاولت أن تسأله فلم تستطع، كانت عينه تبرق وكأنها قادمة من الجحيم.

انتظرت... تألمت أن تكون صاحبة السطوة فى المنزل وعاجزة حتى عن سؤاله.

جاءها مرة بعد عودته من عمله ليعلن لها خبر قراره أنه سيسعى لينقل إلى الأقصر.

صرخت:

- إزاي متقليش؟
- أقولك إيه...؟ أنا تعبت من مصر وعاوز أقضى بقية حياتى فى بلدى عاوزه تروحي معايا تروحي مش عاوزه أنت حره.

ردت المرأة بعنف:

- لأ مش عاوزه أسافر من مصر بعد الأولاد ما كبروا... كنت تقول كده من زمان.
- إنت حرة.

راقبت المرأة زوجها وهو يسعى لإتمام نقله. لم يفتحها بشيء. عرفت عن طريق الصدفة من وكيل وزارة التربية أن زوجها قد تم نقله، شعرت بالضيق. ذهبت إلى المنزل لم تجده، أخذت تتخيل المنزل دونه. كانت قوية تشعر بأنها أقوى منه، لم يقل لها قط كلمة لا، كانت تقوده، توجهه، كانت تريد أن تصنع منه

رجلاً آخر. حاولت أن تقطعه عن ذلك الجذر الصعدي غير المتحضر، تصورت أنها أفلحت حتى ذهب إلى الأقصر، فإذا به يعود بعيداً عنها مسترداً كل الجذور التي حاولت أن تحرقها. ماذا حدث هناك؟ ليبتها تعرف. فكرت طويلاً... لقد منحها عمره. حاول أن يتغير، فلماذا تتركه الآن؟ ولماذا لا ترد له ذلك الحب وتعطى للصعيد فرصة؟ لقد كبرت وربما يكون الصعيد مكاناً مناسباً لتقضى فيه بقية حياتها. ذهبت فى اليوم التالى إلى وكيل الوزارة وفاتحته فى أمر نقلها إلى الأقصر، رحب الرجل فليس هناك امرأة واحدة تقبل أن تذهب إلى هناك. أبلغها أنه سينقلها إلى التفتيش لحين إخلاء مكان فى مدرسة الأقصر الثانوية للبنات.

أخذت تعد العدة للسفر إلى الأقصر دون أن يعرف زوجها خبر نقلها. عاد ذات مرة وهو يحمل نفس التقطية القاسية.

- يا أخى افرد وشك.

لم يرد عليها.

- أنا حقك خبر.

لم ينظر إليها.

- أنا انتقلت الأقصر.

- صحيح.

قام دياب من على كرسية ليحتضن زوجته فى سعادة غامرة.

* * *

دخل الشيخ الشافعى ليجد دياب:

- أهلاً دياب.

أحمد قابلى وقال لى إنك وصلت إنهارده الصبح.

- أيوه.

- مبروك يا بنى الحمد لله بلدنا محتاجلكم.

نظر الشيخ الشافعى إلى الشيخ نور الدين:

- سلامتك يا شيخنا!

- الله يسلمك... دى باينها النهاية يا عمى.
- لا... متقولش كده... ربنا يدريك طولة العمر.

انتقل خبر مرض الشيخ إلى الأهل بسرعة وكان الريح نقلته إليهم فأخذوا يتوافدون على منزله... والجميع فى حيرة هل هى وعكة... أم هى مرض خطير؟ إنهم لا يتصورونها النهاية. حل المساء وذهب محمود إلى فراشه، رأى النجم ذا الذنب مازال مضيئاً ولكن ضوءه خافت. نظر إليه طويلاً وقد أصابه الخوف ثم قام وقد ازداد قلقه على والده وأمه جالسة بجوار قدمى الشيخ والدموع تسيل فى صمت من عينيها. عاد إلى سريره فى الحوش، أخذ ينظر إلى النجم حتى غاب فى النوم.

استيقظ محمود ليجد إخوته جميعاً قد حضروا... فقد وصل الحاج حجاجى من أسوان، كما حضر سعد من نجع حمادى، وأنور من قوص، وحضر أخوه الشيخ كمال من القاهرة مع أخته الكبرى وزوجها الحاج يوسف، وحضرت أخته الوسطى من قوص مع زوجها الشيخ حسين، كما حضر المدنى زوج منيرة.

لم يحضر أى واحد منهم وهو على علم بمرض الشيخ ولم يكن حضورهم على اتفاق. شىء ما جذبهم نحو الحضور. قلق خفى عرفوه بالشوق، أرادوا إسكاته بالحضور.

أخذت يد الشيخ تتأقل. ظهر الجهد عليه وكان واضحاً أن المرض قد احتل مكاناً فى جسد الشيخ. ذهب الحاج حجاجى ليحضر طبيباً آخر غير الذى حضر أمس قرر الطبيب أنه إجهاد.

حضرت منيرة وزوجها لتجد الازدحام فى بيت أبيها، حاولت أن تصرخ منعهما زوجها. اليوم يمر بطيئاً وقاسياً والشيخ يعانى وهو يحاول الوضوء. أخذ يصلى وهو يشير بيده إلى القبلة.

حل الليل ولم ينم الشيخ، ولم ينم أبناؤه. وقفوا بجواره، كل يريد أن يصنع شيئاً، جاء اليوم الثالث وقد أنهك الجميع وكان واضحاً أن المرض ليس إجهاداً... أحضروا أكثر من طبيب، ظهرت الشكوك، ربما يكون القلب. لكن الحالة ليست خطيرة، والشيخ لا يشكو ولا يظهر عليه أنه يتألم، ولكن حركته تزداد بطناً، وجهه متجه إلى القبلة. يتمم بآيات من القرآن الكريم.

حضر فى هذا اليوم الأعمام وأبناء الأعمام، وامتلأ البيت والشوارع بأهل الشيخ وأحبابه. كانت الساعة التاسعة عندما نام الشيخ. سكت الجميع سأل الحاج حجاجى إخوته أن يناموا على أن يبقى محمود مع الشيخ هذه الليلة ويوقظهم قبل أن ينام. كان من المعروف لدى إخوته إنه سهار لا ينام إلا عند الفجر وهو لم يكن يشعر هذه الليلة بالرغبة فى النعاس، كيف ينام وأبوه على فراش المرض؟ ولكن الغريب أن عينيه أغمضتا وغاب فى النوم ورأى نفسه فى أرض أجداده بجوار مشايخ عطية وقد تحول إلى جنة يبحث فيها لأبيه عن قصر يسكنه.

استيقظ محمود فى الفجر. صوت أبيه يطلب منه كوب ماء. سأل والده إن كان قد نام جيداً فعرف أنه نام نوماً عميقاً. أحضر محمود لوالده الماء ليشرب كما أحضر الطشت والأبريق ليتوضأ. صلى الشيخ الفجر جالساً فأدرك محمود أن رؤياه تحققت وأن والده يعود الآن للشفاء.

استيقظ الأخوة جميعاً ليجدوا أباهم وقد بدا وكأنه يسترد عافيته تحسنت يده وقد أخذ يحركها حركة عادية... مرت حالة الخطر، أحس الجميع بسعادة كبرى.

كان محمود متأكداً أنها وعكة نتيجة الإجهاد وأن والده لن يصاب بسوء وحين خطر له خاطر الموت أبعدته سريعاً وهو على يقين أن والده لن يموت... مستحيل أن يموت الشيخ نور الدين مستحيل، مستحيل أن يموت رجل مثله.

فى الساعة الواحدة طلب الشيخ نور الدين الحلاق. حلق شعره وشذب ذقنه البيضاء الملتفة حول وجهه... صلى الظهر جالساً.

قال أبو المجد يونس:

- أنت بخير يا شيخ نور الدين... الحمد لله على سلامتك.

قص محمود على والده الرؤية وبعد أن انتهى منها سأل الشيخ:

- خلاص؟

- خلاص!

رد الشيخ:

- خلاص.

ثم أخذ الشيخ يداعب أحفاده من أبنائه وأبناء عائلته.

وفجأة طلب منهم جميعاً أن يغادروا الحجرة ويتركوه مع ابنه الأكبر الحاج حجاجى. استغرب الجميع من تصرف الشيخ فى هذه اللحظة إلا أبو المجد فهو يعرف أن الحاج حجاجى موضع سره. كان واضحاً فى هذه اللحظة على أبو المجد القلق فهذا التصرف يعنى شيئاً... حاول أن يطرد الأفكار من ذهنه حتى فتح الباب وخرج الحاج ومعه صندوق أعطاه لأمه حتى تضمه فى خزانة حوائجها.

دخل الجميع لرؤيته. كان وجهه الأسمر محمراً، سأل الشيخ:

- بصيرى جه؟

رد الحاج:

- لا يابا...

بعدها أخذ يتمتم بآيات من القرآن الكريم، أخذت التمتمة تعلو وتعلو وقد قوى صوت الشيخ وهو يردد لا إله إلا الله محمد رسول الله... الموت حق... والبعث حق... اللهم غفرانك. شعر محمود أن هذا الصوت ليس صوت والده، كأنه قادم من عليين، ارتفع، ارتفع، ثم توقف، وسقط الشيخ على فراشه فى إغماء طويلة...

حضر معظم أطباء الأقصر... وأجمعوا على أنهم لا يستطيعون شيئاً للشيخ فقد أصيب بجلطة فى المخ... إنه يقضى لحظاته النهائية ليرحل بعيداً إلى حيث أجداده. كان يبدو على الوجه المعاناة، ظهرت التجاعيد وبرزت عظام الوجه ثم خفت الصوت تماماً فى الساعة التاسعة والنصف مساءً لتظهر ابتسامة واضحة على الوجه ولتختفى التجاعيد ويكتسى الوجه بلحم الشباب، ويبدو الشيخ فى قمة وسامته جميلاً وحيّاً يعيش سلام صاحب اليقين.

صرخ أبو المجد مات الشيخ نور الدين... الأمر لله... لم يصدق محمود أن يموت والده... مستحيل حركه وحركه وحركه... أخوه الحاج فى قمة تماسكه يبعد الناس عن والده محاولاً أن يخرجهم من الحجرة وصوته الجهورى يهتف: لا إله إلا الله... بلغت الرسالة وأديت الأمانة يا أبى، سمعت منيرة بكلمة الموت فجرت نحو الحجرة:

- يابا... يابا...

فوجدت أخاها محمود قد ارتمى على الأرض فاقد الوعي. أدرك من سمع

الصرخة الأولى من بيت الشيخ نور الدين أنه قد مات. أخذ الخبر يتناقل من فم إلى فم حتى عم المدينة كلها.

بدأ الناس يتقاطرون على منزله، ما إن يلتقى فرد ذاهب إلى المنزل بشخص آخر حتى يسأله سمعت الخبر وقبل أن يستمع إجابته يكمل الآخر الشيخ نور الدين مات.

تقبلت المدينة وفاته على أنها حقيقة ولكنها حقيقة كانت غائبة عنهم فان أحدا لم يفكر في وفاة الشيخ نور الدين، الكبار والصغار على حد سواء. لقد رأوه - منذ أن وجدوا - يسير في المدينة ويدخل بيوتهم، يحل أزمتهم ويرفع عنهم أثقال الزمن بصوته الحنون المتسامح، وروحه التي تتغلغل في نفوسهم وعقله الذي يجد لكل مشكلة حلاً.

كان روحاً من الحب والحنان والدفع حلت بعالمهم، لم يسألوا أنفسهم متى ولد الشيخ؟ فهو قد ولد منذ زمن بعيد ولم يتصوروا أن يغيب عنهم فهو معهم بالأمس واليوم وسيكون غداً معهم عونهم على أشواك الحياة. عطاء من الله لهذه المدينة التي لا تعرف الراحة.

لقد تصوره ولد مع المدينة، بدأ بها وسينتهي معها، ولكنهم يفاجأون به الآن ميئاً، مثل أى حي في هذا الوجود.

امتلاً البيت والشارع بالناس حتى الشوارع المجاورة غصت بالقادمين لا أحد يعزى أحداً، فهم قادمون ليعزوا أنفسهم فيه. صرخات ترتفع من منزل الشيخ. وصرخات ترتفع خارج المنزل ونداء لصامت تخرج من أعماقه صيحة لا إله إلا الله - الموت حق.

الليلة مظلمة تماماً... أضاعوا أنوار الكلوبات ولكنها مظلمة في داخلهم، نسائم الخريف تلفح الوجوه ولا تخفف من الحر. العرق الغزير يخرج من المسام كأنه خارج من قلوبهم الحزينة.

وصل الشيخ الشافعي وأخوه الشيخ الحفنى، وانطلقت صرخات الرجال الكبار... ابن عمه يونس مهدم سقط أخوه وحبيبه... بموت نور الدين ضاع الأخ والحبيب.

صرخ الشيخ يونس أخرجوا الأولاد من المنزل وهو يعنى بهم أبناء الشيخ. تعالت صرخات النسوة وهى ترى الأولاد يغادرون جثمان أبيهم ليخرجوا مع الرجال. الأبناء كلهم انهاروا إلا الحاج حجاجى بقى واقفاً تسيل الدموع من عينيه دون صوت. تظهر الحيرة على وجهه. يؤمن أن والده مات، يريد أن يصدق أن هذا حقيقة يكره الكفر بها. محمود وأنور فى صرخات هستيرية. الشيخ كمال أقعده الحزن. وسعد يرفع الصوت الحزين فى سبيل الله يا أبى.

الليل الطويل... والشيخ يونس مهدود ولكنه قادر على التفكير... ينادى على الرجال فى الشارع أن يذهبوا إلى بيوتهم فالجنازة فى الصباح.

ذهب بعض الناس وحضر آخرون... لم تنقطع الحركة حتى الفجر موعد الشيخ للذهاب إلى مسجد جده... محمود يأكل قلبه الألم... لا يمكن أن يكون والده قد مات... كيف...؟ لقد رآه يرفع ماء النيل.. يحرك الحياة فى الجمارد يوقف الموت... يبعث الحب. هل يمكن أن يموت الشيخ نور الدين... مستحيل... لكنهم يقولون إنه مات... رآه بنفسه صامتاً لا يتحرك ولكن هل يبتسم الموتى... إن والده يبتسم، يكلم الملائكة... آه ما أقسى الموت... ما أقساه... تجمع حوله أصدقاء القطار... حسن وصليب وحسبو وعلى وأبو العلا وأصدقاء آخرون يهدنون منه ولكن صراخه لم يهدأ وبكاءه لم ينقطع، وانفجر معه حسن وصليب فى بكاء مر.

وصل رجال على حميرهم من القرى، كثير منهم كان حاضراً يوم إزالة الجبانة.

قدم أيضاً رجال على جيادهم ليودعوا الشيخ، يعرف محمود منهم القليل وإن كان مشغولاً عن تبين أحد.

تعالت أصوات النساء عندما دخل أعمام الشيخ ليغسلوه، تبين صوت أخته يرتفع رثاءً لأبيها:

- إياك أبونا، وإياك والى الكل
- متقوللى على كام يوم تيجى تطل
- كان معاى دركة بجوز سلام
- كان أبويا سبع الرجال وراح

- أيا بوى عوامد بيتنا مالت
- أيا بوى عوامد بيتنا وقعت

اهتز مع صوت أخته وازداد نحيبه، تعالى صراخ النسوة، أخذ الشيخ يونس يشتم النساء ويطالبهن بالصمت، والدموع لا تتوقف عن الانهمار من عينيه. لم تسكت الأصوات. تبين صوت ريا وهى ترد على أخته...

- يا بنيتو هذى الجرد كله
- أبوك حلف ما عاد يدخل له
- يا بت أبوك تحت والأ فوق
- ده أنا معايا وجيعة من عديم الذوق
- يا بت أبوك فين أنا قل له
- حطى العمامة فى طاقة الديوان
- ما تشكى الولية كل ما تنضام
- ترد عليها منيرة ابنة الشيخ:
- قولوا لنا شيخ العرب ماله
- إلتى هجر بيته وديوانه

وارتفع صوت يخرج كأنه الغناء الحزين:

- من يوم ما غابوا حتى المواوى غاب
- ولا عمرت الجلسات خشم الباب
- ما للمصلى اليوم ما صلى
- ولا سمع الجارة ولا على
- طريق الجوامع تبكى عليك تبكى
- تبكى على من كان يروح وييجى
- طلعت نجوم الليل من غربه
- مالقيوا المصلى عاقل على الركبة

دغدغت المرأة حواسه بصوتها، هزت روحه، عرف فيما بعد أنها رفيقة أخت الحاج ركابى. تعالت أصوات النسوة بالصراخ، فقد وضع الشيخ فى المحفة. فوجئ محمود بمحفة الشيخ يحملها الرجال، ليتجهوا به إلى مسجد جده ليصلوا عليه هناك.

تقدمت المحفة صفوف من الرفاعية وأهل الطريق ينادون لا إله إلا الله..
وصفوف من أبناء أسرته وأهل مدينته تقرأ القرآن. وأصوات تعلو بالنحيب. كل
يبكى شيئاً عزيزاً على نفسه يغيب عنه إلى الأبد.

تمت الصلاة عليه في جامع جده أبو الحجاج، في المكان الذي أم فيه كثيراً
من الناس ثم خرجوا لتبدأ رحلة الجماعة بالمحفة نحو مقبرة الأقصر الجديدة في
الكرنك، ليدفن مع أبيه وعمه وأهل أسرته، وليهيلوا عليه التراب الذي كان
يحرص عليه بالأمس.

عاد الرجال إلى المنزل ليجدوا النسوة في صراخهن متجدداً قوياً. قال الشيخ
يونس:

- لقد هدت الساحة، كان يتمنى أن تكون جنازته فيها، ولكن الأمر لله..
فقدنا الساحة والشيخ نور الدين في صيف واحد... الجنازة في بيتي.

لم يعترض أحد من أبناء الشيخ نور الدين، فالكبير كبير، والشيخ يونس
والدهم.

صفت الدكك في الشارع وامتدت إلى الشارع المجاور. رأى أبناء الشيخ
نور الدين رجالاً لم يعرفوا من أين أتوا، حتى الكبار من رجال الأسرة لم يتعرفوا
على الناس جميعاً، ولكنهم يعرفون أنهم من أحباب الشيخ، وما أكثر أحبابه!!
رجال فقراء وأغنياء، صغار وكبار، فلاحون وعمال من المدينة ومن أهل القرى
المجاورة.

مر اليوم الأول ثقيلاً بطيئاً، محمود يريد أن يخلو لنفسه فلا يستطيع، لا أحد
يتركه. يريد أن يبكي أباه بمفرده.. لقد دفنه.. رآه بعيني رأسه يدخل المقبرة
ويهال عليه بالتراب.. مات الشيخ نور الدين ولن يراه.. سيبقى بينهما حاجز كبير
حتى يذهب إليه.. أصدقاء محمود بجواره.. لماذا لا يذهبون؟! والناس تأتي
للعزاء.. لماذا لا يذهبون؟! حتى يبكي والده بمفرده. إنه يريد أن يخلو لأحزانه
ولا أحد يتركه.

طلب الشيخ الشافعي من محمود ألا يجلس مكانه فهو رجل، وعليه أن
يستقبل المعزين، كانت كلمته أمراً.

أخذ يتحرك بين الناس يقدم لهم السجائر.. ولكن أحدًا لم يأخذ منه سيجارة، فانعزل فى ركن وأخذ يدخن سيجارته الأولى.. قد تنسيه آلامه.. وقد تنسيه غيبة الأب.. إنه يعلم أنها لن تستطيع وهى ليست بقادرة حتى أن تمنحه الصبر.

مر اليوم الثانى ثقيلًا.. بدأ محمود يدرك أن فى كل فراق أملًا فى جمع الشمل إلا هذا الفراق.. مد يده إلى سيجارته الثانية لم تساعد، جعلت رأسه يدور، ليته يفقد الوعي. نظر إليه أخوه الأكبر فرمى السيجارة من يده.

الأعمام وأبناء الأعمام وأبناء أبنائهم وأصدقائه حوله.. الناس جميعًا حوله.. ولكن ليس بينهم الشيخ نور الدين.. ترى هل تمضى الحياة دونه، ألا يمكن أن يتوقف الكون. نسمات الخريف تزداد برودة.. يشعر أن كل شىء يتحرك فى موعده لا يتوقف.

* * *

تعجب محمود كيف استطاع أن ينام.. كيف تغلب عليه النوم وعلى ألمه؟ إنه فعلاً نام ساعات.. شعر بالذنب، كيف ينام وقد مات والده!!!

صلى الفجر ومعه جماعة من أهله وراء عمه يونس.

بدأت الحركة تدب قوية، فاليوم هو الثالث. ذبحت الذبائح أخذوا فى قراءة الصلوات، وقراءة القرآن الكريم على روح الشيخ. أخذت الوفود تكثر قادمة من الأرياف للعزاء.

قدم الطعام للفقراء والمساكين. وضع محمود وجهه بين يديه وبكى كثيرًا.

اقترب منه رجل ورفع صوته:

- بتبكى ليه يا محمود.. خلفكم رجال، واللى خلف ما متشى.

قال محمود لنفسه ليته ما خلفنى.. كيف أعيش عمرى فى شوق إليه..!!؟

عرف محمود صاحب الصوت دون أن يرفع يديه من بين عينيه.. إنه يوسف الطاهر مفتاح، زميل أخيه الأكبر، وفى الوقت نفسه صديقه: لقد كان يعجب بالرجل، كان كاتبًا وخطيبًا من رجال حزب مصر الفتاة. فرح بالثورة ونقل أحاسيسه إلى عبد الناصر، ولكن خيبة أمل كبيرة أصابته فى هيئة التحرير ثم

الاتحاد القومى، كان قوياً وصادقاً، له أصدقاء يحبونه وأعداء يخشون لسانه الحارق.

هز يوسف كتف محمود بيده:

- عيب كده.. عيب.. أقف قابل الناس.

رفع محمود عينيه.. سلم على يوسف دون أن يقف.. دخل محمد عياد نائب الأقصر الجديد وحوله حاشيته، أكثر من عشرين رجلاً، هم رجال العهد الجديد رجال الاتحاد القومى.

جلس محمد عياد عن يمين محمود بعد أن سلم عليه وعلى يوسف.

قال محمد عياد:

- أنا جيت من مصر مخصوص.. الشيخ نور الدين أبونا كلنا.. الأمر لله.

ساد الصمت لحظة.. كسره يوسف الطاهر وهو يحدث بكير المحامى:

- إيه الأخبار؟

- الحمد لله عال..

لم يتوقف بكير عن الكلام، وقد أخذ يقحم السياسة فى حديثه محاولاً أن يؤكد أنهم الآن يحاولون أن يقطعوا دابر الانتهازيين والرجعيين. أخذ يقص القصص عنهم، ثم أضاف:

- كله إلا السليبيين أعداء الثورة.

قاطعه يوسف ساخراً:

- ومين همن...

أخذ بكير يتكلم بحماس عن السليبيين أعداء الثورة الذين لا يعجبهم شىء يقدمونه سوى النقد، أوقفه يوسف الطاهر:

- أنت حتخطب.. مين هم السليبيين.

- فلول الوفد.

- يبقى لازم بتهاجموا الشيخ نور الدين، انتة عارف إنه مؤسس الجماعة الوفدية هنا.

تضايق محمود من ملحوظة يوسف الطاهر، فهو لا يريد أن يقحم والده فى

عبث شخص انتهازي مثل بكير المحامى. لقد عرفه عندما كان فى القاهرة فى السنة الثانية، وكان بكير يدرس دراسات عليا فى كلية الحقوق، لم يدخلها حباً فى الدراسة العليا، وإنما لأنه كان من زعماء اتحاد طلاب أبناء الصعيد وكانوا مكلفين بضرب أى صوت مخالف للحكومة فى هذه الأيام.. كانوا يعملون تحت اسم عبد الناصر ويشوهونه ويشوهون الثورة. عرفه أبناء الأقصر فى القاهرة بتقاريره للمخابرات العامة.

حاول البعض أن يبتعد عنه حرصاً على نفسه، كما حاول البعض أن يتقرب منه طمعاً فى مكسب يجمعهم. وعندما قامت حرب سنة ١٩٥٦ كان بكير أول شخص يركب القطار عائداً إلى الأقصر.

وفى هذه الانتخابات عمل بكير مع العديسى وبعد سقوطه أخذ يتقرب من منافسه محمد عياد ليصبح مسئولاً مهماً فى الاتحاد القومى.

قام محمود ليستقبل المعزين القادمين محاولاً أن يبتعد عنه بينما يستمع محمد عياد لما يقوله بكير دون اكتراث فإنه لن يكون زعيماً للأقصر ولن يهز مكانه، ووجوده بجواره أمان له.

إنه يفكر جيداً فى الحفاظ على مكانته فى الأقصر ألا يأخذ شخص منهم مكانة قوية فى الاتحاد القومى.. إن أحداً لن يرحل عنه عن دائرته. نظر إلى محمود الواقف عن بعد، لو كان هناك شخص سيأخذ منه هذا المكان، أو يرحل عنه فهو محمود.

قال لنفسه: فى الحقيقة هو الشيخ نور الدين.

يريد محمد عياد أن يغادر الجنازة قبل أن يحول يوسف الطاهر بكير المحامى إلى سخرية الجالسين، فقد استهوته كلمة السليبين فرفع صوته:
- نعم على الاتحاد القومى أن يقاوم فلول الأحزاب والإخوان والشيوخيين.

أوقفه يوسف الطاهر:

- ولية متقولشى والاشتراكيين والبلد كلها.

اتكأ يوسف على كلماته وهو يقول:

- يا ولدى اعقل.

رفع بكير صوته:

- خبر إيه يا يوسف.. إنت ضد الثورة والا إيه؟
- لا أنا ضدك.

تراجع بكير وهو يبتسم ليوسف:

- يا أخى دانا حبيبك.

قام محمد عياد فقام أتباعه جميعاً، وتحرك يوسف ليجلس بجوار محمود ثم وضع يده على كتفه:

- يا أخى اتحرك.. يا أخى كفاية عبوس.. ده بكير المحامى ممكن يودينا كلنا فى داهية علشان عبوسك ده... لأنك سلبى... الأمر لله يا محمود... كم علمنا الشيخ الكثير.

صمت يوسف فى حزن، لقد علمه فعلاً الشيخ الكثير، كان صديقاً لوالده منذ تكوين الجماعة الوفدية التى قادت مظاهرات مديرية قنا. وحركت الإضراب العام ومقاطعة البضائع الإنجليزية والحرب ضد المستعمر.

لم تنقطع زيارة الشيخ نور الدين لبيتهم بعد وفاة أبيه إذ كان يقوم له مقام الأب. دمعت عينا يوسف، فترك الجنازة دون أن يسلم على أحد.

الحركة مستمرة فى الجنازة لم تنقطع حتى منتصف الليل. وبعد خروج آخر زائر جلس محمود بمفرده بعيداً عن أخوته يفكر فى الشيخ نور الدين، وكأنه لم يمت، وكأن هذه ليست جنازته. ارتمى على دكة يلقي عليها جسده. أخذ ينظر إلى السماء فارتاع... لقد اختفى النجم ذو الذنب... أخذ يبحث عنه بعينه، لم يجد له أثراً. وقف وسار إلى ميدان الحوض دون أن يلقي نظرة على السماء.

النجم القطبى فى مكانه... النجوم التى يعرفها ثابتة لم تتغير... ولكن هذا النجم الذى كان يراه فى السماء، منذ أن عرف كيف ينظر إلى النجوم لا يجده. لم يصدق عينيه... أمعن النظر. رأى مجموعة النجوم التى كانت تحيط بهذا النجم فى مكانها بضوئها الخافت، محتفظة بالمسافة بينها، لكن مركزها فارغ.

فى صباح اليوم الرابع عاد محمود وإخوته إلى منزلهم، ليستقبلوا المعزين هناك. لم يحضر فى هذا اليوم غير أقربائهم وأصدقائهم.

كان يبدو على الأخوة شعور بالتوتر والقلق. فهذا اليوم هو أول يوم يدخلون فيه منزل والدهم، ينتابهم شعور بالعجز عن مواجهة واقعهم.. إحساس يتجسد داخلهم بأن الواحد منهم لم يعد كلاً مجتمعاً، وإنما أجزاء منهارة فقدت أهم شيء يشعرها بالأمان وهو الروح. إحساس بالضيق في هذا العالم فقد غاب الرجل الذي كان يوحد صلابتهم، ويجعلهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم كائنات قوية واعية بالوجود ممتدة فيه قدرة على بناء شيء في داخله.

لم يعد العالم كما كان بالنسبة لهم منذ أربعة أيام... يشعر محمود أنه عار تماماً. صراع في داخله... يعوى... يعرض... ينهش.

يأكل القلب، السؤال الذي كان يلح داخله، ويبحث له عن إجابة. هل يبقى في الأقصر ليعمل مدرساً فيها، أم يعود إلى القاهرة لينهي دراسته العليا. كان شيء ما يشده للبقاء في الأقصر ولعل أهمها صورة الشيخ نور الدين، فهو يريد أن يحذو حذوه، أن يكون مثله في عالم هذه المدينة. أن يجد في داخلها السلام الذي استطاع الشيخ أن يحصل عليه، وكان يجذبه إلى القاهرة طموح لإنهاء دراسته العليا والحصول على الدكتوراه.

يشعر أنه مربوط بين حصانين، يتجه أحدهما إلى اليمين، والآخر إلى اليسار، يتمزق ولا يدري كيف يعيد الأجزاء إلى وحدة وانسجام. شعر هذا اليوم بأنه قد استقر على رأي، إنه لا يحس أن أحداً ينظر إليه في المدينة على أنه محمود فهو جزء من كل، هذا الكل راقد مع أجداده، وهو يعرف أنه لن يخرج عن دائرته ولا يريد. طلب الحاج حجاجي إلى إخوته أن يتبعوه إلى المنزل في حجرة الشيخ. تركوا الأهل والصحب وتبعوا أخاهم الأكبر.

جلس الحاج في نفس المكان الذي كان يجلس عليه والده، وبجانبه الصندوق الذي أعطاه إياه والده قبل أن يموت وقد أخذت حركته وسمته يلبسان وقار الشيخ نور الدين. في البداية أخذ الحاج ينتزع الكلام انتزاعاً، ثم انطلقت كلماته كما كانت تنطلق كلمات الشيخ هادئة وقوية:

- المدينة كلها بتتكلم عن ثروة أبونا.. الثروة دي كانت حياته...

وخلفنا وخلف لنا البركة، ودي أهم حاجة حنعيش بيها طول عمرنا كأكبر ثروة يخلفها أب لأولاده.

أمسك الحاج بالصندوق ووضعه على حجره:
- أبويا ادانى الصندوق ده، وأنا خليته مع أمى... الإشاعات كتيرة فى البلد بتتكلم عن الصندوق ده، ناس كتير متصورة انه فيه كنز، وأنا جامعكم علشان تعرفوا إيه اللي فى الصندوق ده.

فتح الحاج الصندوق، وألقى بمحتواه على الكنبه بجواره... ظروف خطابات مقفلة.. ومجموعة أوراق.

- الورقة دى حجة البيت... ودى حجة قطعة الأرض اللي ورثها أبونا عن أجداده فى أرض مشايخ عطية، أبوكم حافظ عليها لأنه شايفها بركة من جدوده، وبيقول لكم كل واحد يعمل أى حاجة بأرضه...

أمسك الحاج بورقة أخرى:

- ودى أسماء ناس أبوكم كان بيديهم رواتب كل شهر.. هو حاطط مبلغ فى مظروف هنا، وقال إن الفلوس دى لمدة سنة، انتو أحرار تدوا الناس دول بعد كده والا لا.

أشار الحاج إلى بقية المظاريف:

- ودى فلوس أمانات لناس كانوا بيثيلوها عنده، ودى حنرجعها بكرة الصبح لأصحابها.

أمسك الحاج بمظروف من هذه المظاريف، ونظر إلى محمود:

- المظروف ده ليك.. فسيه مصاريف السنة دى، أبوك بيقولك كمل دراستك، ومتترجعش عنها أبداً.

صمت الحاج قليلاً ثم أكمل:

- بالمناسبة أنا انتقلت من أسوان رئيس إشارات منطقة الأقصر.

نادى الحاج والدته فدخلت الحجرة. كبرت عشر سنوات فى هذه الأيام الأخيرة.. بقايا دموع تظهر على جفونها المتعبة.

احتضنها أبناؤها، فقد كانت هذه أول مرة يرونها منذ وفاة الشيخ، أعطاها الحاج الصندوق لتعيده مكانه.

* * *

جلس محمود على الكنبه بجوار عمه يونس وغرق داخل نفسه.. لقد عاش

صراعاً بين الأقصر والقاهرة حسمه والده فلقد اختار له أن يذهب إلى القاهرة ليكمل تعليمه واختار لأخيه الحاج حجاجي أن يكمل دوره ببقائه في الأقصر.. إنه يثق في حكمة والده، ولكن لماذا لم يختار له أن يبقى في الأقصر؟ ولماذا اختار ابنه الأكبر؟ إنه يعلم أن والده يثق في حكمة وصبر ابنه الأكبر... يعرف أنه من الممكن أن يمتد فيه... وأنه قادر أن يكمل طريقه في هذا العالم المتغير... وهو مختلف عن أخيه، ضيق الصدر عصبى، صفات لا تصلح لقيادة الجماعة في هذا المنعرج الضيق من أرض الوادى.. لم يعد قادراً حتى على الكلام وهو ينظر إلى أخيه في أخريات الجلسة وقد تغير حتى كاد يصبح نسخة طبق الأصل من أبيه.. لولا سواد شعره وشباب وجهه لظنه والده.

لم يترك الشيخ نصيحة لابن من أبنائه سواه فقد همس الحاج حجاجي في أذنه وهو خارج معه من المنزل بأن والده أخبره أنه يخاف عليه من خضراء الدمن، الحسنة في المنبت السوء، فهو عاطفى انفعالى وقد يسقط معها سقطة كبرى.. يرتفع همس الحاج إلى صوت مسموع:

- أبوك يقول لك احذر من خضراء الدمن..

ابعد عنها على قد متقدر.

لماذا يحذره أبوه من خضراء الدمن...؟ أخافه هذا التحذير.. هل عرف أبوه قصته مع إلهام... لقد كان دائماً يخاف أن يعرف والده قصتها والآن إنه على يقين بمعرفته... فالموتى يعرفون كل شيء... تمنى أن يكون تحذير والده متوقفاً عند قصته مع إلهام وأنه لم يكن ينظر إلى الغيب فما أقسى أن يكون في قدره إلهام أخرى!... استبعد هذا الخاطر، وسيحاول أن يترسم طريق والده... صحيح أن الطريق طويل ولكنه سيسيره.

أصابه التوتر... شعر بالاختناق أراد أن يغادر المكان، وقبل أن يتحرك من مكانه سمع صوت صراخ رجل من أول الشارع:

- فى سبيل الله يا خوى... فى سبيل الله يا شيخنا... فى سبيل الله يا نور الدين.

توجهت نظرات الجالسين إلى صاحب الصوت وقف الحاج حجاجي. قال الشيخ يونس:

- ده بصيرى العبادى.

وقف الجميع فيما عدا الشيخ يونس واتجهوا نحو صاحب الصوت؛ بينما
تعالى صراخ النسوة داخل المنزل فقد حرك صوت بصيرى الأحران التى لم تنم.

أخذ الحاج حجاجى بصيرى إلى حجرة الشيخ ليتناول طعام العشاء وقد سار خلفهما محمود. كان الطعام قد وضع على المنضدة ولكن بصيرى يرفض أن يأكل فيلح الحاج حجاجى وأخوه محمود عليه فلا يفلح إلحاحهما.

دخل أبو المجد يونس ودياب أبو محمد الحجرة قال أبو المجد:

- لازم تأكل يا عم بصيرى.
- أكل إزاي يا بنى هو ده وقت أكل.
- الأكل ملهوش دخل بالحزن.
- حزن... حزن إيه يا ولدى... انتو متعرفوش نور الدين... أنا عرفته أنا عرفته... شفت سره... شفت نجمه بيطلع وبيغيب.

يا نور الدين... يا نور الدين مدد.

كان دياب يريد أن يتدخل ليلح على بصيرى أن يأكل... ولكنه توقف... لقد رأى هذا الرجل سر نور الدين... ترى هل يعرف هذا العبادى نور الدين... تذكر ما صنعه نور الدين له... وكيف غسل قلبه وطهره. ارتفع صوت بصيرى:

- آه يا نور الدين... الفراق صعب.

وهنا انفجر دياب فى بكاء مر...

اتجه الحاج وأبو المجد إلى دياب يهدئانه... بينما لم يتحرك محمود من مكانه.

لقد عرف بصيرى سر نور الدين... ما هو هذا السر؟ والنجم الذى رآه محمود يغيب، يقول بصيرى إنه رآه يطلع ويغيب. قال لنفسه لست واهماً... لقد رآه معى بصيرى يغيب.

أخرج الحاج حجاجى وأبو المجد دياب من الحجرة، فبقى بصيرى ومحمود وحدهما فى صمت قطعته امرأة عجوز دخلت عليهما الحجرة تحتفظ بحيويتها،

يظهر عليها جمال الكبر، وجهها يشده فيه قوة وحضور.
- ازيك يا بصيرى.

نظر إليها فوقف ليسلم عليها:
- ازيك يا حاجة رفيقة.

سلمت عليه ثم تقدمت نحو محمود وقالت:
- أنت محمود؟

وقف محمود وقد مد يده ليسلم عليها ف وقعت عيناه على جنيه ذهبى معلق
بسلسلة ذهبية فوق جيدها.

لم تأخذ يده وإنما احتضنته وقبلته فوق رأسه. وقد عادت إلى ذاكرته صورة
الشيخ نور الدين وهو يعطى عزيزة الجنيه الذهبى. هل هذا جنيه الشيخ؟ أم أنه
مجرد جنيه ذهبى مما تعودت النساء أن يتزين به؟

أصاب محمود الضيق... إنه لا يعرف. قالت المرأة:
- فيك ريحة الشيخ.

تركته وجلست:

- كل يا بصيرى.

- آكل إيه يا حاجة... هو ده وقت أكل... شيخنا مات يا رفيقة سابنا
وراح.

- أيوه سابنا وراح.

- فاكرك عمل فينا إيه؟

- فاكرك... لولاه كنت دلوقت فى جهنم.

صمتت المرأة... وغابت عنهما... ودموع صامته تسيل من عينيها.
- آه يا نور الدين...

توقفت الدموع، مدت يداً إلى طرحتها، رفعتها إلى عينيها لتمسحها، ثم
غابت عنهما وقد ساد الحجرة صمت غريب.

* * *

كانت رفيقة تعود بذاكرتها إلى حوالى ستين عاماً مضت حين كانت أشهر

غازية فى إقليم قنا وقد تعدت شهرتها الإقليم. كانت ترقص وتغنى فى الموالد والأفراح.

الرقص حياتها فهي لم تعرف شيئاً منذ طفولتها غير الرقص والغناء. ولدت فى أسرة غجرية لا يعمل رجالها شيئاً بينما تحترف نساؤها الرقص والغناء وإمتاع طالبى المتعة. كان لهذه الأسرة تقاليد صارمة فى هذه الحرفة فهم يعدون البغاء حرفة. ما إن تصل الفتاة إلى سن المراهقة حتى تتزوج برجل من أقاربها، لا يمسهها هذا الرجل وإنما تعطى لمن يدفع أكبر ثمن فيها من أهل المنطقة، ثم تخرج الفتاة بعد ذلك إلى عالم الرقص والغناء والبغاء. كان عالماً سرياً ولكنه معترف به... لم تتدخل الحكومة فى عالمهم فهم قوم متنقلون من بلد إلى بلد. يعلن الجميع رفضهم حين يحلون، ولكنهم كانوا يجدون دائماً طلاب المتعة الذين يحتفلون بوجودهم، حتى أعطت لهم الحكومة صفة شرعية حين صرحت بفتح بيوت البغاء فاستقر والدها فى الأقصر فهي أنسب مكان له فى الإقليم. فهي مدينة مسالمة مفتوحة على العالم كله، أخذ الغرباء يفدون إليها من كل مكان طمعاً فى الكسب من وراء السياحة.

قاوم أهل الأقصر وجود الكرخانة لكنهم لم يستطيعوا لأنها موجودة بحكم القانون والغرباء يمنحونها القوة؛ فهم دائماً فى ازدياد وتكاثر فى المدينة، فصمت أهل المدينة محاولين أن يصنعوا حاجزاً بين أبنائهم وبين هذا العالم الغريب.

كانت هناك مساحة من الأرض الزراعية تفصل ما بين الأقصر القديمة وبين البيت، وكان أهالى الأقصر القديمة يراقبون الطريق فمن دخله احتقروه إلا أن المدينة أخذت تتسع وتقترب من البيت فخفت مراقبة الأهالى لزواره.

ثار مطران الأقباط على وجود البيت بجوار جبانتهم القديمة وقدم شكوى للمديرية فى قنا، فلم يسمع له أحد فهم موجودون بحكم القانون. ذهب إلى الساحة والتقى بالسيد يوسف شيخ المسلمين الذى تلقاه بترحاب يليق به، واستمع إليه وكان الشيخ الطيب موجوداً وبجواره نور الدين، وخقراء الآثار الذين ضربهم نور بجوار البرية.

قال السيد يوسف:

- الحكاية بقيت خطيرة ومينسكتش عليها والحكومة الأيام دى بتحلل الحرام وتحرم الحلال.

قال الشيخ الطيب:

- هذا أمر الله...

والتفت إلى نور الدين وقد ظهرت الابتسامة واضحة على وجهه.

- متخافوش... نور الدين حيقلها.

نظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم البعض، السيد يوسف والشيخ الطيب والمطران ثم اجتمعت نظراتهم على نور الدين، وكأنما أحسوا جميعاً أن في هذا الفتى سرّاً قد يستطيع به أن يقضى على مصدر الشر في المدينة.

لم تسقط نظرة الرجال عن نور الدين حتى قال السيد يوسف وقد ابتسم ابتسامة عريضة، وقال كمن يؤمن على كلام الشيخ:

- إن شاء الله... يا طيب.

قال المطران:

- باركه الرب.

شرب الجميع القهوة، واستأذن المطران في الانصراف.

وقف السيد يوسف ووراءه الرجال ليسير مع المطران حتى باب الساحة.

حين خرج المطران قال له أحد مصاحبيه:

- الحاجبية... ناس مسالمين... ومبيعملوش حاجة.

ظل المطران صامتاً مدة ثم نظر إلى الرجل وقال له:

- متقولش كده... نور الدين حيقلها.

تعجب الرجل مما يقول المطران، فهو لم يفهم ما يعنى، وصمت وقرر ألا يفكر في الموضوع.

بعد أن خرج المطران عاد السيد يوسف إلى جلسته بجوار الشيخ الطيب، صمت قليلاً وأرخى رأسه ليستقر ذقنه على مقدمة صدره، ثم عاد ورفع رأسه ونظر إلى الشيخ الطيب وقال له وهو يشير إلى نور الدين:

- هذا ابنى يا طيب... أتركه لك...

- نعم ما أعطيت يا شيخنا يوسف.

أصبح عمه الشيخ أحمد أبو الدقون متأكداً الآن أن في ابن أخيه سرّاً، وسراً

كبيراً؛ فالشيخ الطيب صاحب بصيرة تخترق الحجب، يرى في الظلمات ما لا يراه المبصرون. إنه لا ينسى قط حين بات الشيخ الطيب في الساحة في ليلة من ليالي الصيف، وكان ابنه يونس يقف على خدمته وقد أراد أن يقضى حاجته في الغائط، أن صرخ:

- يا يونس... يا يونس... روح دورة المياه فيه عقرب هناك.

قال يونس لنفسه.. الشيخ الطيب يهزر.

كان يريد أن يرد على الشيخ بأنه ليس هناك عقارب ولكنه لزم الصمت أحضر مصباحاً غازياً واتجه إلى دورة المياه. صعد يونس وهو يرى العقرب واقفة على أرضية الدورة وقد رفعت ذيلها في انتظار القادم لتفرغ سمها فيه.

قتل يونس العقرب.. وذهب إلى الشيخ الطيب وقد امتلأت نفسه رهبة وخجلاً من شكه في قوله:

- قتلتها يا شيخنا

- قتلتها ليه يا بنى كنت بس قطعت ذنبها.

وضحك الشيخ وهو يقول:

- أصله السم في الذنب.

أمسك يونس يد الشيخ الطيب، وقاده إلى الدورة، وقد امتلأ بالدهشة. وهو يسائل نفسه من منهما الأعمى.

ذهب يونس إلى أبيه وهو يرتجف ليقص عليه ما حدث.

هدأه والده وحاول أن يكشف له سر الشيخ الطيب، فهو قد أصيب برمد ربيعى فى عينيه وحضر إليه الدكتور شاكراً طبيب العيون الوحيد في المديرية. كشف على عينيه وقرر أن الحالة غير خطيرة وأعطاه مرهماً ليضعه في عينيه.

أخذ الشيخ الطيب المرهم، ثم أحنى رأسه وأخذ يفكر، ثم رفع رأسه ناظراً إلى السماء وقد فتح يديه ورفعهما إلى أعلى ثم قال:

- اللهم إن كان هذا اختبار منك فزدنى، منذ هذه اللحظة فقد الشيخ الطيب نظره وأبدله الله به بصيرة نافذة.

طلب الشيخ أحمد من ابنه يونس أن يذهب إلى الساحة من فوره ليكون

بجوار الشيخ يقوم على خدمته، فهو لا ينام الليل إلا قليلاً، وقد يحتاج إليه.
الآن يفهم أحمد أبو الدقون لماذا يكون نور الدين هو الوحيد من بين أبناء
عائلته الذى يعشق المرماح، فلقد كان الشيخ الطيب فى صباه فارساً كبيراً.

وقف الشيخ أحمد أبو الدقون، سار نحو ابن أخيه، وحين اقترب منه ربت
على كتفه وهو يهمس فليباركك الله؛ بينما نور الدين يرى ويسمع كل ما يقال
فلا يفهم شيئاً. تصور أن عليه أن يذهب ويقوم فى لحظته إلى هذا البيت ليهدمه
على من فيه وسيأخذ معه محمد وبصيرى اللعين الذى عرف الطريق إليها
ليهدمها، بصيرى لا يرفض له طلباً.

وقبل أن يستمر فى أفكاره أيقظه صوت الشيخ الطيب وهو يصرخ فيه:
- فعمز.

كان الشيخ غاضباً لم يدر نور الدين ما يصنع فجلس وقد أصابه الخوف.
هل قرأ الشيخ دخيلة أفكاره؟

قال السيد يوسف:

- الطريق طويل عليه يا طيب.

وضع الشيخ الطيب يده فوق رأس نور الدين وأخذ يربت على شعره، ثم
وقف مستأذناً فى الرحيل إلى القرنة غرب الأقصر. خرج معه كل من فى الساحة
وعند الباب طلب من السيد يوسف ومن معه أن يبقوا وألح فى ذلك.
- نور الدين بس حيوصلنى للمعدية.

أخذ الشيخ أحمد أبو الدقون يتابعهما بعينه والطريق يتسع ويتسع أمامهما،
وفوجئ بهما يختفيان فجأة عن ناظريه وكأنما اختفيا وراء جدران غير موجودة.

* * *

لم يقم نور الدين بأى عمل فى الساحة فى هذا اليوم؛ فهو قلق متوتر يشعر
بقسوة المجهول تدق قلبه. ما حدث له اليوم كثير ولا يمكن أن يستوعبه، شعر
برغبة أن يركب حصانه يجرى به فى أى مكان بلا غاية ولا هدف حتى يستريح.
تذكر أن هذا اليوم هو مولد الشيخ أبو الجود فى قرية أبو الجود شمال الأقصر
فذهب إلى منزله وأسرج حصانه، وانطلق به إلى هناك.

كانت الحياة تدب فى الميدان... عربات تبيع المأكولات... رجال يلعبون

لعبة الثلاث ورقات... حلقة ذكر... قرداتي يلعب قرده... حاوى قد كتفه صبيه
وجمهور يلتف حوله... خيمة صغيرة للاعب القراقوز.

نصب المرماح وسط الميدان.. الفرسان يتسابقون... تجمع أناس كثيرون
يحمسون الفرسان... حلقة مزمار بلدى ترقص على نغماتها رفيقة الغازية وقد
تجمهر حولها عدد غفير من الناس.

ظهر نور الدين فى الميدان فوق فرسه.. رآه زيدان أبو دياب فارس
التماسيح، توقف، تعجب من نور الدين فهو الفتى الوحيد من أسرته الذى لا
يستكشف اللعب فى المرماح.

كثير من الناس يتعجبون كيف سمح له أهله باللعب فيه.. هذا الغلام بز
أقرانه جميعاً. عمره فى حلبة المرماح لا يزيد عن عام ومع ذلك فهو يذهل
الفرسان جميعاً بقوته وسرعته فى لعب الزانة، ودربة حصانه ومهارته فى
تحريكه. قال الرجل فى نفسه رؤية نور الدين يلعب فى المرماح خير من اللعب
معه.

وقف نور الدين بحصانه بجوار المرماح بين الجمهور، لم يدخل الحلبة
احتراماً لتقاليدها حتى يأتى دوره فى السباق، إلا أن زيدان أبو دياب ناداه:
- يا نور الدين... ادخل المرماح حنلعب بالزانة.

تقدم نور الدين بحصانه إلى الحلبة وقد اهتزت الجماهير الملتفة حولها؛
فسيصبح المرماح معمعة كبرى لنزال الفرسان، ترى ماذا يصنع هذا الغلام
لزيدان، وحلبة المرماح لا تعرف سناً فقد يؤذيه زيدان دون أن يراعى سنه.

وتعالت الأصوات المعبرة عن توتر الجماعة للعب لا يعرف الرحمة ولاعبين
مقاتلين لا يستطيع أحدهما أن يتغلب على الآخر.

استطاع نور الدين أن يجد له جمهوراً كبيراً يشجعه وهو يحاول أن يسقط
زيدان من على فرسه. سرى حماس المتفرجين إلى بقية الحلقات فأخذ الرجال
والنسوة يتزاحمون حول الحلقة. توقفت رفيقة عن الرقص كما توقفت فرقتها عن
العزف. هذه أول مرة تصبح رفيقة بلا جمهور، شعرت بأنها أهينت فى أعز شئ
لديها، قدرتها على جذب الناس حولها ليروا جسدها وهو يتحرك فى رقصاته على
أنغام المزمار.

تحركت رفيقة تصاحبها فرقتها نحو الحلقة لترى من الذى لفت انتباه الناس فجعلهم ينفضون من حولها. وقفت لحظة قبل أن تتبين الرجلين، ثم أخذت تنظر إليهما، إنهما يتحاربان فعلاً، دهشت أن ترى زيدان شيخ التماسيح يلعب فتى حدثاً وازدادت دهشتها وهى ترى الفتى يقترب بعصاه من عصا زيدان ويدفعه بقوة شديدة. كانت تتصور أن يصد زيدان الدفعة ولكنها فوجئت وهى تراه يسقط على الأرض، فيترجل الفتى من فوق حصانه، ليمد يده إلى زيدان ويرفعه عن الأرض وهو يقول بأدب جم:

- آسف يا عمى.

فيربت زيدان على كتف نور الدين:

- لا... راجل... ابن راجل... اللعب مفهوش كبير.

يسحب زيدان فرسه ليخرج من الميدان فهذه أول مرة يسقطه فارس من فوق حصانه بينما نور الدين يعود إلى فرسه ليعتليه والأصوات تتعالى:

- نور الدين... نور الدين.

أخذت رفيقة تنظر إلى نور الدين، فانسحب قلبها متجهاً إليه، شدها هذا الغلام الذى يذكرها بأبى زيد الهلالي سلامة وهو يقاتل والده رزق بن نايل.

رفع الفتى زانته يطلب لاعباً آخر. تبدو عيونه وكأنها تحمل سر الأرض التى أنجبته.. حركة وجهه لا تعبر عن طفل بل رجل ترتسم عليه كل معانى الرجولة.

أخذ قلبها يدق، ترى هل يزور الكرخانة؟ لو أنه دخلها فلن تتركه سيكون لها، ستحتفظ به، ستسحره بجسدها حتى ينسى فرسه وفروسيته وأهله ونفسه والعالم كله، ترى من يكون هذا الفتى؟

سألت جمعة الزمار:

- ولد مين ده؟

- ده ولد الشيخ مصطفى يونس.

آه من الحجاجية أعداءها الكبار. قالت بصوت سمعه الزمار:

- حاخذ منهم نور الدين ولو أروح فى الحديد.

- بتقولى إيه يا رفيقة.

- ولا حاجة.

- ابعدى عن الواد ده لحسن أهله يقرأوا فينا عديّة ياسين. همن مش سايبينا من غير حاجة.
- يقرأوا اللي يقرأوه.

توقف الحوار بينهما فقد ارتفعت أصوات المتفرجين؛ إذ أسقط نور الدين عصا الفارس الذى يلاعبه.

انشغلت رفيقة عن الزمار، وأخذت تتابع نور الدين وهو ينازل الفرسان ويهزمهم واحداً بعد الآخر حتى جاء غلام فى سنه على فرس ووقف بين المتفرجين، وما أن لمح نور الدين حتى أوقع بالفارس الذى يلاعبه، ثم خرج عن الحلقة ليلتقى به. سمعت الفتى يكلمه.

- خرجت ليه يا نور الدين.
- عشان ملاعكش.
- هو انت كده.
- يا بصيرى عيب الكلام ده... روح لاعب حد تانى أنا كفاية على كده النهاردة.

تعرف رفيقة بصيرى جيداً، زار بيتها كثيراً، لم تهتم به كانت تسلمه إلى نساء أخريات. إنها الوحيدة من بين الغوازي التى تختار رجالها. لم يعترض على اختيارها أحد من أهلها؛ فهذه هى الحرية الوحيدة التى تعتز بها وهى تبيع جسدها.

لوى نور الدين لجام حصانه، فتحرك ليسير به بعيداً عن الميدان، تابعه بصيرى فقد قرر أن يسير مع صديقه.

قالت رفيقة لنفسها:

- الأمر سهل.. بصيرى حبيبته.

* * *

الليل طويل على رفيقة، إنها تفكر فى الغلام الذى هزم كل فرسان الأقصر ونواحيها.

حاولت أن تطرد التفكير من ذهنها فلم تستطع، فقد اقتحم عليها - هذا

الغلام - جسدها، هزها، دغدغ الحواس، رفضت أن تعمل هذه الليلة، قررت أن تبني بمفردها. لم تنم، ترى نور الدين فوق فرسه يضرب بالزانة، وجهه يعبر عن القوة ولكن فيه حناناً. نزل من على صهوة جواده ليأخذ بيد البطل زيدان.

حضر عمدة الغرب يريد رفيقة نادها والدها لم ترد. حضر بنفسه فتح باب حجرتها.

- العمدة سيد أبو حسين الزغابي عايزك.

- عيانه... ومش حقايل حد.

غضب العمدة ولكن غضبه لم يستمر فقد قامت الفتيات في الدار بالواجب معه. هدا وقال لوالدها:

- قل لرفيقة أنا مسامحها انهارده لكن سيد أبو حسين الزغابي محدش يقول له لا.

علت رفيقة بقوله، غضبت، أحست بالامتهان. إنه يمس حريتها، هي التي تختار وليس سيد أبو حسين أو أي عمدة في البر كله. تتمنى أن تراه يلعب نور الدين سيهزمه حتماً سيهزمه نور الدين حتماً كما هزم أبو زيد جده الزناتي خليفة.

نسيت سيد أبو حسين فقد احتواها الفارس نور الدين، تألمت أنها تسجن، تفقد حريتها كلما فكرت فيه.

الليل طويل.. صوت البنات يزعجها... خرجت من حجرتها. أنفاس الحشيش تملأ الصالة الكبيرة زجاجات الخمر الفارغة ملقاة على الأرض. الرجال أصحاب الوقار فقدوا وقارهم. البنات يرقصن.

رأها سيد أبو حسين الزغابي وقف:

- أهلاً رفيقة.

- أهلاً يا عمدة.

- نورت.. سلامتك كلنا فدا رفيقة.

جلست رفيقة على حشية، وأمسكت بالطار، أخذت تضرب عليه وهي تغنى:

يونس خطر في السوق ولد الهالية

سلم على التجار ردوا له التحية
نزلوا بنات هلال فيه ورا فيه
فى جنبنة العلام تاه الدليل بيه
فانسسه من الشباك وزه عراقيه
من دون بنات هلال كام حلوه ياربه
جرح الغرام مكار احتاروا الطبابة فيه
من جرح تقولوا آه إشحال أبو ميه
قسموا البلد نصين طلع الكثير ليه
عيان ورايح أموت متقلبوش فيه
تسعه وتسعين دكتور غير التمرجييه

قدم لها سيد أبو حسين كأساً رفضت أن تشربها. دقت جليلة، إحدى البنات،
على الطار، وقفت رفيقة وأخذت ترقص. يقسم سيد أبو حسين والجالسون حولها
أنهم لم يروها ترقص مثل رقصتها هذه الليلة. اهتزت، قفزت، لفت الحلقة، كلمات
حزينة تخرج من شفتيها:

من جرح تقولوا آه إشحال أبو ميه
عيان ورايح أموت متقلبوش فيه
تسعه وتسعين دكتور غير التمرجييه

أخذت تكرر عيان متقلبوش فيه وطبقات صوتها ترتفع وتنخفض، ثم أخذت
تضحك وتبكي. وتلف جسدها لفات سريعة، ثم سقطت على الأرض وأخذت فى
نشيح هستيرى.

رمى سيد أبو حسين الكأس من يده واتجه نحوها. توقف المجتمعون عن
الشراب، تركوا كنوسهم والتفوا حول رفيقة. قالت جليلة:
- ابعادوا انتم.

أخذتها إلى حجرتها وقد ساد صمت حزين بين الرجال والفتيات.

جلس سيد أبو حسين وقد شعر بأن شيئاً غير عادى يشده الآن إلى رفيقة.
لقد كان يأتى باحثاً عن المتعة فى هذا المكان، يريد أن يفرغ كم الجهد الذى يبذله

فى قرىته. هناك لا يهتم بما يقوله الناس عنه فهم لا يستطيعون مواجهته، وهو لا يظهر نزواته لأهل قرىته باستثناء الأتباع الذين يسرون خلفه حين يأتى إلى البندر لقضاء الأعمال الخاصة به وبقرىته، ثم يترك أتباعه ليقضى ليلته فى هذا البيت ليعود إليهم فى اليوم التالى وقد لبس وقاره الذى خلعه. كثيراً ما يقرر ألا يعود إلى هذا المكان، ولكن ما إن يفكر فى الذهاب إلى البندر حتى يتحرك فيه الحنين إليه وبالذات إلى رفيقة. يتعجب من نفسه له زوجات لا يجد من بينهن من يعطيه عطاء رفيقة إنهن خفر ولو تزوج ألفاً من قرىته لما أشبعنه كما تشبعه رفيقة ينساها فى قرىته فتعود إليه فى البندر وكأن العالم ليس فيه إلا رفيقة. يعرف لماذا يعجب بها؟ جمال وجهها، سحر جسدها، عطاؤها الذى تمنحه باسترخاء، ولكنه فى هذه اللحظة يرى شيئاً آخر غير الجسد.

خرج وقد عاد إليه وقاره، ذهب إلى المعديّة فقد قرر أن يعود إلى قرىته وصورة رفيقة لا تغادر تفكيره.

فى صباح اليوم التالى قال بصيرى لنور الدين:

- مش رايح مولد الشيخ الطواب؟ أنا رايح هناك.
- مش عارف يا بصيرى إذا وافق أبويا أروح... بس أنا خايف الحصان يتعب م المشوار. قوص بعيدة.
- دول ثلاثين كيلو. يعنى فركة كعب.
- الأجر عزيز على ومحبش أتعبه.
- يا أخى متخفش على الأجر... يا عنتره.
- بتتريق يا بصيرى.

افترقا ليلتقيا ظهراً، وانطلقا إلى قوص ليشاركا فى احتفالات مولد الشيخ الطواب. وصلا قوص وقد تجمعت، وكل قراها، للاحتفال بالمولد، استراحا وأراحا فرسيهما ثم انطلقا إلى النهر، وأخذ كل منهما يغسل فرسه فى مائه. وبعد أن انتهىا قال نور الدين لبصيرى:

- امسك الحصان وخلي بالك منه.

خلع نور الدين ملابسه وألقى بنفسه فى النهر، وراح يسبح وبصيرى يقول له:

- يا أخى هو ده وقت سباحه متطلع.

ولكن نور الدين قد ابتعد عن بصيرى كثيراً.

النهر فى هذه المنطقة يتسع كثيراً عنه فى الأقصر وهو لن يتوقف حتى يصل إلى الشط الآخر. إنه لا يستطيع مقاومة النهر، فما إن يقترب من الشط حتى يلقى بنفسه فيه ويغيب وكأنما بينهما علاقة حب حية لا يهدأ منها نور الدين حتى يلمس روح النهر.

ضاق بصيرى بنور الدين فليس هناك وقت فالمرماح قد نصب، فكر أن ينزل النهر ولكنه تراجع، ليست لديه الرغبة فى أن يلمس الماء فرمى بجسده على الشط مستلقياً يتطلع إلى الأفق يغمض عينيه لينظر إلى الشمس وهى تقترب من الجبل، إنها قد تخطت ثلثى الأفق، عاد نور الدين وأخذ فى لبس ملابسه، أحس به بصيرى فوقف.

- مبدرى متقاعد هناك ياكش تطلع لك عروسة البحر تاخذك بعيد.

لم يرد عليه نور الدين، ركب حصانه فتبعه بصيرى ومضيا نحو مسجد الشيخ الطواب. دخل نور الدين المسجد صلى ركعتين ثم زار مقام الشيخ وخرج ليجد بصيرى قد وصل به الضيق درجة كبيرة.

- أنا حمشى يا عم.. إحنا جايين للمرمح والا نستحم ونصلى ونزور المشايخ، ركب نور الدين فرسه ومضى مع بصيرى إلى حلبة المرمح.

حرك بصيرى عينيه ينظر إلى الحلقات المنصوبة فى الميدان، توقف نظره عند حلقة الرقص ليرى رفيقة ترقص وكأنها تصلى لروح مجهول تحاول أن تكسب رضاه.

- يا نور.. آه لو تشوف رفيقة وهى بترقص.

لم يرد نور الدين عليه، تمنى لو يضرب بزانتة كل الموجودين حول حلقة الرقص التى لم يوجه إليها ناظره بينما ارتمت عينا رفيقه صدفه على نور الدين وهو فوق فرسه فتوقفت عن الرقص. صرخ بصيرى:

- أهى بطلت رقص ياسى نور الدين...

أنت مشكلتك إنك إنسان ملكش قلب... ولا حس.. متعرفش رفيقة... لو شفت فخاها ولا حركة وسطها ولعب ردفها... يا بوووى.

لم يسمع منه نور الدين كلمة كان حصانه يتحرك بسرعة إلى حلبة المرمح بينما توقف حصان بصيرى وهو يمعن النظر إلى رفيقة.

تركت رفيقة الرقص، ومضت إلى حلبة المرمح دون أن تغير من ملابسها وما إن اقتربت من نور الدين حتى وجدته يدخل الحلبة بحصانه، تركزت نظرة عينيها عليه، حتى الحصان أصبح جزءاً من كينونته. قفز قلبها مع حركته، توتر وأثير مع كل حركة من حركاته. لأول مرة تجد نفسها تنظر إلى السماء لتخاطب الله: يا رب محد يهزمه... يا رب احفظه. دعوتها هذه غريبة فإن أحداً لم يكلمها عن الله فهي لا تعرفه ولم تحاول أن تعرفه. إنه بالنسبة إليها شيء مجهول لا يذكره الناس أمامها إلا فى أيمان مغلظة ليؤكدوا صدقهم بينما هى متأكدة من كذبهم. تسمع كلمة الله صادرة كأنها لعنات حين يذكرها الرجال الذين كانت لا تهتم بهم...

يا شيخة حرام عليكى... خافى ربنا... روى ربنا يخرب بيتك.

وهؤلاء الناس يعرفون أنه لا بيت لها فمكانها بيت من يدفع الثمن، وهامى الآن تتجه لهذا الروح المجهول لها، تناديه ليحفظ نور الدين، رأت رجلاً يوجه عصاه بقسوة إلى وسط نور الدين، أغضت عينيها وخرجت كلمة حارة منها يارب.

لم تفتح عينها إلا حين دوى التصفيق فقد أسقط نور الدين الرجل على الأرض ولم ينزل ليرفعه فهو لا يستحق ذلك، كان حريصاً على أن يؤذى نور الدين، تخلصى عن آداب اللعبة، صفقت... تحركت لتقترب من الخط الفاصل بين الجمهور والفرسان.

الناس يلتصقون بها، يحاولون لمسها. لم تكن تهتم بذلك من قبل بل كانت تحبه، ولكنها الآن تكره منهم هذا الفعل. ألقت نظرة على جسدها فعاد إليها إدراكها، إنها شبه عارية. خرج نور الدين من الحلبة خافت أن يراها على هذه الصورة، تركت الحلبة ومضت بعيداً لترى بصيرى قد نزل عن حصانه وهو يكلم جليلة اقتربت منهما:

- ازيك يا رفيقة...

- ازيك يا بصيرى.

- ايه اللى جابك؟

- انت ايه اللى جابك؟

ضحك بصيرى:

- ايه اللى جابنا احنا لتنين؟

لقد جاءت لترقص فلم ترقص، وجاء ليلعب فى المرماح فلم يلعب، رأى نور الدين قادماً تحرك نحوه.

- ابعدوا لحسن نور الدين يسود عيشتنا.

مضت رفيقة، وجليلة، دون أن تشعر بضيق فهى لا تريد لنور أن يراها على هذه الصورة.

* * *

ذهب نور الدين إلى مسجد الطواب ليصلى المغرب. قضى الوقت بعد الصلاة فى قراءة القرآن حتى صلى العشاء، ثم خرج لينضم إلى حلقة ذكر بقى فيها حتى منتصف الليل ثم ذهب ليبحث عن بصيرى فى وكالة العزيزى بالسوق فلم يجده ولم يجد حصانه هناك فبصيرى قد تابع جليلة ورفيقة، فقد قررت رفيقة ألا ترقص الليلة ومضت لتبقى عند أقربائها فى كرخانة قوص.

يقول بصيرى إنه قضى ليلة تعد من عمره. لقد تقبله أهلها على أنه صديق رفيقة وجليلة. عاملته رفيقة برقة لم يتعودها من أحد من بنات قبيلتها، لم يسأل بصيرى نفسه لماذا تعامله رفيقة بكل هذه الرقة، لم يتصور أن تحبه فهو يعرف أهلها جيداً؛ إنهم يتاجرون بأجساد بناتهم، دفعته جليلة أن يسرق والده ليعطيها نقوداً. يذكر أنه سرق جدياً من جيرانه باعه وأعطاه ثمنه ثم اكتشف أمره، ضربه أبوه فى هذا اليوم ضرباً ترك آثاراً باقية فى جسده.

تفاجئه هذه المعاملة.

قالت رفيقة:

- آمال فىن صاحبك دلوقت؟

- تلاقيه بيصلى أو بيزكر..

- روح له ليستعوفك أو يشغل عليك.

تأخر فعلاً على نور الدين. نسى نفسه مع هاتين الشيطانيتين. استأذن فى الخروج فتفاجئه رفيقة بالسؤال:

- معاك فلوس؟

تصور أنها تريده أن يدفع ثمن هذه اللحظة فضحك.

- من فين... ولا سنتيم!

تضع رفيقة يدها داخل رقبة جلبابها لتلمس صدرها ثم تخرج له قطعة نقود

فتلقاها لبصيرى الذى يتلقفها ويفاجأ حين ينظر إليها بأنها جنية ذهب.

- ايه ده يا رفيقة؟

- عايز تانى؟

- لأ كفايه... ليه ده؟

- يا أخى بحبك...

خرج بصيرى وهو لا يصدق ما حدث، فالغوازى فى نظره لا يعرفن الحب،

فك حصانه وحصان نور الدين، وربط لجامه فى سرج حصانه ومضى إلى وكالة

العزيزى، وجد نور الدين خارجاً منها:

- ايه ده يا بصيرى؟

قال بصيرى بجدية مفتعلة:

- كنت فى مهمة خاصة...

- طيب يلا بينا...

- على فين؟

- نروح...

- وليه منباتش هنا؟!

- لازم أرجع... بكره حصاد القمح يا بصيرى وضرورى أكون هناك.

لا تنفع المناقشة مع نور الدين، إنه دائماً يضيع اللحظات الجميلة بالأحاديث

الجادة.

قال بصيرى وهو فوق حصانه:

- مش أحسن نتعشى؟!

- ماليش نفس...

- أنا دعيك... معاى فلوس.

أخذ بصيرى نور الدين إلى مطعم بجوار الشيخ الطواب، وبعد أن أكلا وضع بصيرى يده فى جيبه ليدفع الحساب فلم يجد الجنيه الذهب لقد اختفى. صرخ:
- ضاع منى الجنيه الذهب...

دفع نور الدين الحساب بينما بصيرى يبحث فى كل جيب من جيوبه عنه، لقد اختفى دون أن يعرف كيف ضاع.
ضحك نور الدين فضحك بصيرى ضحكة عالية:
- مال تجيبه الريح تاخذه الزوابع...

ركبا فرسيهما وسارا نحو النيل ليتجها جنوبًا إلى الأقصر.

عندما وصلا إليها أخذ نور الدين طريقه شرق المدينة إلى مشايخ عطية لبييت فى منزلهم المجاور للأرض كى يقوم مع الفجر ليبدأ حصاد القمح بينما اتجه بصيرى إلى منزلهم فى الأقصر القديمة لينام هناك.

استيقظ بصيرى فى الظهيرة ليبدأ أول عمل فى يومه بالذهاب إلى جليلة التى لم تكن قد استيقظت بعد، ولكنه وجد رفيقة جالسة على كنبه أمام البيت. رحبت به رفيقة ترحيبًا حارًا وأدخلته حجرتها، كان بصيرى يريد أن يسأل عن الجنيه الذهب ولكنه تأكد أنه لا رفيقة ولا جليلة أخذتاه منه.

تbasطت رفيقة مع بصيرى الذى وجدها فرصة أن يقضى لحظة جميلة معها. لكم تمناهما فأعرضت عنه هذه الغازية الحجرية القلب التى تختار الرجال بمزاجها الخاص. ترى أدخل المرحلة التى تعجب به امرأة مثل رفيقة دون أن يدفع لها الثمن؟ هذا مستحيل ولكنها أعطته أمس جنيهاً ذهباً، لابد أن فى الأمر شيئاً.

خرجت رفيقة دون أن تستأذن. وعادت ومعها جليلة تحمل صينية طعام.. دجاج محمر قال فى نفسه: إيه الحكاية...المسألة فيها سر.

جلست جليلة بجواره تأكل معه بينما سهمت رفيقة وشردت عيناها بعيداً عنها. لقد قضت الليل كله ساهرة مع جليلة حتى أخذوا قطار الصباح ليعودا إلى الأقصر، قالت لها جليلة:

- انت مش عجبانى اليومين دول...

لم تخف عن جليلة همها... نور الدين يدخل فى دمها، فى عقلها، فى قلبها ولا تريد أن تصده.

صرخت جليلة:

- نور الدين ود الحجاجيه.

- ينهار أبيض افتحى علينا فاتحة.

رفيقة لا تهتم بالعالم كله لو تحصل على نور الدين.

فى الحقيقة هى تهتم، لقد اتجهت إلى الله لأول مرة فى حياتها، كرهت عريها استحييت منه. قالت بحرقة:

- أنا عايزاه يا جليلة عايزاه... يأخذه... يا حموت...

فكرت جليلة فليس هناك شخص غير الولد العبادى بصيرى.

جليلة تداعبه ورفيقة شاردة... الأمور تتركب تركيباً غير واضح فى ذهن بصيرى، دجاج محمر وشأى، سألتها جليلة:

- أجيب لك خمرة؟

- أنا مبشرىش... أعمل أى حاجة إلا السكر... آه لو سكرت ونور الدين شم ريحتى... مش حيحصل طيب.

عندما سمعت رفيقة اسم نور الدين عادت بعينيها إلى بصيرى، أصغت السمع إلى كل كلمة يقولها، لم يرغب عن بصيرى هذا التغير، قالت رفيقة:

- انت بتخاف منه يا شيخ العبادية؟

- مفيش عبادى بيخاف يارفيقة بس أنت متعرفيش نور الدين. اتولدنا سوا وتربيننا سوا، مفيش حد عقله زى عقل نور الدين.

- لأ. انت بتخاف.

- أيوه يا رفيقة بخاف... عايزه إيه؟

- ولا حاجة.

حاولت جليلة أن تهدئ غضب بصيرى فقال بصيرى:

- مالها هيه... أخاف مخافشى... ومالها ومال نور الدين؟!

- أنا مقلتش حاجة يا بصيرى...

مالت رفيقة على بصيرى تحتضنه، ضمها وهو يقول:

- هو ده وقت تجيبوا فيه سيرة نور الدين.

ضمته بشدة وهى تتمنى أن يذكر نور الدين ويكرر ذكره دون توقف.

خرجت جليلة، وتركت رفيقة بصيرى لتخلع ملابسها وهو ينظر إليها بعينى الصقر. جميلة... جميلة رفيقة حرك يده على جسدها حملها بين ذراعيه، ألقاها على السرير... ضمته... ضمها... حاول أن يقتحمها صرخت ثم أخذت فى البكاء:

- مش قادرة يا بصيرى.
- غطت جسدها بملاءة.
- مش قادرة... مش قادرة...

دهش بصيرى لسلوكها فى هذه اللحظة. كل ما حدث منها منذ ليلة أمس يدهشه ويحيره. وما يحدث الآن لا يفهمه بصيرى ولا يجد له تفسيراً.

وقف بصيرى، لبس ملابس، ربت على كتفها، ضمها بحنان:

- مش عاجبك ولا إيه يا رفيقة؟ عايزه حاجة؟ أسرق لك جمل من أبويا...
- أسرق لك كل الجمال اللي عندنا.
- لا يا بصيرى... الحكاية مش كده أنا بحب يا بصيرى... فاهم؟ بحب.

تحركت أفكار كثيرة فى ذهنه. هذا زمن العجايب، غازية من العجر تحب... ما دخله فى هذا... تضمه. تخلع عارية. تبكى. صوت نحيب رفيقة يرتفع. قلب بصيرى يرق لها، هى إنسانة على كل حال.

- هدى يا رفيقة... بتحبنى وماله.. هو الحب عيب.
- أعمل إيه يا بصيرى؟

قال بصيرى بتلقائية متصوراً أنه يقول الحكمة:

- اللى بتحبيه ده... نامى معاه... اجوزيه... اعملى أى حاجة وبطللى عياط.

- مقدرش أعمل أى حاجة لوحدى.. تساعدنى؟

فكت كلمتها هذه الألفاظ التى حدثت الأمس واليوم. فالجنية الذهب والدجاج لم يكن لسواد عيون بصيرى. وإنما لسبب آخر.

ماذا تريده هذه المرأة أن يكون؟ قواداً لها. هذا آخر الزمان. أين أنت يا نور الدين لتترى صاحبك؟

لم يغضب بصيرى منها. شعر بالرغبة فى أن يعرف هذا الشخص:

- ومين المحظوظ ده يا رفيقة؟
- صاحبك نور الدين.
- يا بنت الأبالسة ملقتيش غير نور الدين.. طب عيطى.. معاك حق تعيطى ابكى كمان شوية.. شويتين زى متحبى.
- ساعدنى يا بصيرى.

دخلت جليلة لتقول:

- أيوه ساعدها... وليك ميت جنية ذهب.
- أذى صاحبى للشيطان بميت جنية ذهب حرام عليكم... ولا مليون.
- وإيه يعنى هو انت بيهمك.
- لما يكون الشيطان بيلاعبنى ألاعبه لكن نور الدين لا... نضافته أجمل شىء فى حياتى.
- وإذا قلت لك أنا لك على طول يا بصيرى!!
- برضه لأ.
- يا عبادى يا زفر...

ضحك بصيرى:

- ماله العبادى الزفر؟ .. مش حبييع صاحبه.
- عاد لرفيقة تماسكها:
- يا جليلة متشتميش بصيرى ده راجل جدع... بس أنا مش عايزه من نور الدين أى حاجة... عايزه بس أقعد معاه أشوف عينيه.

أراد بصيرى أن يختم الموقف:

- بس كده... أحاول.
- تركهما بصيرى وانصرف، وقد اختلطت الأمور فى ذهنه ولم يعد يتبين شيئاً.

رفيقة الغازية تحب نور الدين. ولماذا نور الدين بالذات؟ إنها لا تعرفه، كل ما رآته منه لمحة وهو يلعب فى المرمح. نور الدين بيضاله فى القفص... «يدى الفولة للى بلا أسنان.

رفيقة التى تهز المديرية ويلقى إليها الأعيان الذهب تحت قدميها تحب نور الدين. لماذا نور الدين بالذات؟ والشيخ الطيب أين هو؟ ليرى ويسمع... لقد سمعه بصيرى يقول إن نور الدين سيقفل هذا البيت وهاهى سيدته تحبه... رفيقة عنيدة لن تهدأ حتى تدخله بيتها.

كان بصيرى يسير مسرعاً وهو يتجه إلى مشايخ عطية ترى ماذا سيقول نور الدين عندما يعرف ما حدث اليوم؟ مائة جنيه ذهباً ثمناً للحظة ترى فيها رفيقة عيونه.. ثمن نور الدين أغلى من ثمن رفيقة.

وصل بصيرى إلى منزل نور الدين فى مشايخ عطية.. طرق الباب لم يسمع رداً ففتحه، دخل فلم يجد أحداً، خرج إلى الأرض لينظر نور الدين، وجده لابساً سرواله يجمع السنايل ويحزمها، إنه يعمل بمفرده. أحبتك رفيقة وهى لم تر منك إلا رجلاً على فرس، ولو رأيتك الآن لأدركت أنك تستحق أكثر من حبها وحب كل البشر.

نادى بصيرى نور الدين:

- يا نور الدين... يا نور الدين...

رد عليه نور الدين:

- تعالى يا بصيرى لم القمح معاً.

- كفاياك كده الشمس سخنة قوى... تعالى نقعد فى الساقية...

- أهو انت دايما تعطل...

ترك نور الدين السنايل واتجه نحو بصيرى ومضيا إلى الساقية يجلسان تحت ظلال تكعيبية يغطيها نبات الخروع.

استلقى نور الدين على الأرض المفروشة بالتبن وارتقى بصيرى.

فكر بصيرى أن يقص على نور الدين قصة رفيقة، لم يستطع، وجه نور الدين يصدده... يمنعه من فتح أى موضوع.

أخذ بصيرى ينظر إلى أوراق الخروع:

- يا أخى كنت زرعتهوا عنب مش خروع!!

- الخروع فيه الشفا من كتير من الأمراض... يا أخى بطل نقد.

- إلا قل لى يا نور الدين... انت عندك قلب؟
- تقصد إيه؟
- يعنى عندك قلب؟!
- يا أخى ليه مش إنسان والا حيوان... يا بصيرى انت جاي تعطلنى
- علشان تقول لى عندك قلب... ولا معندكشى.
- أصلى بحب.
- بتحب؟
- بحب جليلة...
- جليلة مين؟
- الغازية...
- يا فتاح يا عليم يا صباح يا كريم!!
- احنا قربنا العصر دلوقت...
- بتحب جليلة وعاوزنى أعمل لك إيه؟
- اسمعنى يا أخى... ساعدنى!!
- يا بصيرى بطل هزار... انت مش حتوب... الله يتوب عليك أنا كنت
- بفكر أروح أهدم البيت دكهه ع اللى فيه... وكنت متصور إنك حتكون
- معاى.
- تهدمه.. الواحد يعيش من غيره إزاي؟!
- مش جهدمه... ربنا يهدمه.
- آه لو شفت رفيقة.. الصدر إيه.. والوسط إيه.. عليها سيقان ولا نعومة
- الكافور والرديف يا بوى..
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... بصيرى قوم روح.
- قال بصيرى وهو يضحك:
- رفيقة عايزاك.. عايزة تشوف عينيك وتدينى ميت جنيه دهب.
- قام نور الدين وحمل بصيرى بين يديه..
- أنا حرميك فى الساقية..
- وألقى به فى بئرها، وبصيرى يصرخ وقد تعلق بحبال قواديس الماء.
- والله انت معندك رحمة... شوفها وأنا آخذ الميت جنيه...

خرج بصيرى مبلولاً ليرقد فى مكانه، بينما أغمض نور الدين عينيه وغاب فى النوم.

عرفت رفيقة أنه لا أمل لها فى لقاء نور الدين. لم تياس.. أخذت تتابعه فى كل مرماح، اكتفت برؤيته وهو يلعب الفرسان.

قالت زميلاتها وقربياتها فى الكار إنها تغيرت، كما قال الرجال ذلك، أصبحت شاردة لا تهتم بأحد، لم تعد تعطى المتعة من داخلها، تحولت جسداً بارداً ولكنه جميل.

ذهبت رفيقة إلى أكثر من مولد لترقص، توقفت عند كل حلبة مرماح لم تجد نور الدين، قالت لجليلة:

- نور الدين مش موجود... غايب ليه مدة يا جليلة.. حتى الشوفة اتحرمت منها!!

كان وجهها مصفراً وهى تكلم جليلة.. شفتها تهتران بارتعاشة ظاهرة، عيونها متعبة.

- مش حرقص الليلة.. ومش حنام مع حد.. الرقص والرجالة قلنا وعد ومكتوب... طب وغياب نور الدين برضه ده وعد ومكتوب يا جليلة... وعد إيه ده يا بوى؟ يكنشى عيان والا حصلت له حاجة.

عادت إلى البيت وعادت معها جليلة، بصيرى غير موجود لتعرف أخبار نور الدين... سافر العبادى اللعين إلى السودان. هو أيضاً وعدا ومكتوبها.

لبست جليلة بردة وغطت وجهها ومضت نحو الساحة.

وجدت امرأة قرب الساحة سألتها عن بيت الشيخ مصطفى والد نور الدين، أشارت المرأة إلى البيت. تشجعت جليلة وسألتها عن ابنه نور الدين أخبرتها المرأة أنه سافر إلى مصر ليتعلم فى الأزهر الشريف... تركت المرأة كأنها تتجه إلى منزل الشيخ مصطفى وعادت أدراجها إلى البيت.

أخبرت جليلة رفيقة بما سمعت، قالت لجليلة بصوت حزين:

- سافر وسابنى والله لروح له آخر الدنيا.

- تروحي فين يا بنتى دى مصر عالمها كبير... انت عارفه هوه فين ولو عرفت حتقولى له إيه؟.

حقوله يا نور الدين... عايزاك وعايزه أتوب... ده الحب وعد ومكتوب.
وفى الصباح اتجهت رفيقة إلى المعديّة لتأخذ مركباً إلى نجع حمادى لتركب
القطار إلى مصر.

مصر مدينة كبيرة عالم مختلف... ولكنها امرأة جميلة، لها دائماً مكان فى
أية بقعة من الأرض... اتجهت إلى حى الأزهر فلا بد أنه هناك ولا بد أن تجده.

مرت أيام وهى تسير ما بين حى الأزهر والحسين والغورية، تنظر إلى
الوجوه فلا تجد نور الدين، طال انتظارها، انتهت نقودها، عادت إلى حرفة الرقص
تمتّع رواد المقاهى والموائد برقصها... أعجب بها الرواد كثيراً فهى حس جديد
يختلف عن راقصات مصر، بحيويتها الدافئة... لم تتوقف عن البحث، عاشت حياة
غريبة ترقص بالليل وتزور مشايخ القاهرة بالنهار لعله يكون بين الزوار.
اهتزت فى مقام الحسين، بكّت وهى تمسك بخشب مقام السيدة زينب وتدعو الله:
- يا رب أقابل نور الدين.. أشوفه يا ست ببركتك...

ولكن الله لم يستمع إليها والسيدة أعرضت عنها فلم تر نور الدين. هكذا تقول.
أصابها اليأس من لقائه، كرهت القاهرة ضاقت بحاناتها وبمشايخها لا أحد
يفهم.. رجعت إلى الأقصر لتمنح نفسها لطلاب المتعة.

فرحت جليّة بعودتها كثيراً، كان البيت مظلماً دونها، خف الزوار، وقل دخل
البيت، وقد أصاب جليّة السأم أن تعمل دون رفيقة.
قالت جليّة:

- كل حاجة حترجع حلوه زى زمان...

لم ترد رفيقة، فلن يعود شيء مثل زمان، إنها لا تعرف هذا الزمان. كل ما
تعرفه أن المقدر والمكتوب ألقيا فى طريقها بنور الدين، الرجل الوحيد الذى لا
تستطيع الحصول عليه.

تغيرت صورة رفيقة بعد عودتها من القاهرة، خفتت ضحكتها، وسكتت
روحها، لم تعد تختار رجالها، تساوا جميعاً فى نظرها... فقدت الحرية الوحيدة
التي كانت تمنحها لنفسها. لم يكن أحد يهتم بهذا التغيير غير رجلين بصيرى
العبادى وسيد أبو حسين الزغابى.

كان بصيرى الوحيد من بين الرجال الذى تأنس إليه. كان يحترمها ويفهمها، لم يمسه ولم يشتهها فهي عاشقة صديقه، كانت عندما تراه ترحب به وتترك زوارها وتقضى اليوم كله بصحبته وصحبة جليلة التى عمقت علاقتها به. كانت تسأله عن نور الدين وعن أحواله، ولكن بصيرى لم يعد يأتى بانتظام، فقد ورث عمل أبيه فى تجارة الجمال، يذهب إلى السودان ثم يعود منها إلى القاهرة ليتوقف عندها وقتًا قصيرًا. تتمنى أن يعود ليحدثها عن نور الدين.

قال لها ذات يوم وكان فى زيارتها:
- نور الدين هنا.. رجع خلاص ويشغل فى قنا.

اهتزت... وقالت بصوت حزين عميق:
- نفسى أشوفه يا بصيرى... نفسى أكلمه كلمة واحدة.
- والله معارف إزاي يا رفيقة... نور الدين اتغير معدش بيروح المرماح..
ولا بيغضب... وقلبه رق رقة الميه.. نور الدين طمطم يا رفيقة..
محدث عارف... أنا عارف وأنا متأكد... وشفت السر.
- وأنا متأكدة طول عمرى إنه طمطم... هو حد يعمل فيه كده إلا راجل
طمطم، دى زانته كان فيها سر. تعرف يا بصيرى أنا مبشتهيش نور
الدين، أنا نفسى أشوفه بس... أقعد معاه...

دخل عليها سيد أبو حسين سكران، كان يعرف الصداقة الحميمة التى
تربطها ببصيرى.

- ازيك يا بصيرى...
- أهلاً يا عمدة...
- جيت م السودان؟

خرج بصيرى وتركهما منفردين، إنه يعرف أن هذا الرجل يحبها. قال
بصيرى لنفسه.. يا سبحان الله الدائرة مبتتقلشى أبدًا.. كل الأشياء التى تلتف
حول نور الدين تتغير. بصيرى، رفيقة، سيد أبو حسين. منذ أن سافر معه إلى
السودان لم يعد يجد متعة فى زيارة جليلة. إنه يذهب بحكم العادة. الجلسة فى هذا
البيت لها طعم خاص لا يستطيع أن يتخلص منه، وقد بدأ شىء ما يتحرك بداخله
يعذبه كلما عاد من عند جليلة. وعذابه الأكبر حين يلتقى بنور الدين. إنه لا
يستطيع أن ينظر إلى وجهه. إنه يتعجب منه، ما الذى يجعل نور الدين يتقبل
صداقته؟

ورفيقة يأكل الحزن عينيها ومع ذلك يزيد لها جمالاً، مات أبوها فتولت رعاية البيت والبنات، تزداد رقة وقسوة.

وسيد أبو حسين هدأ وانهد، أصبحت كلمة رفيقة لديه أمراً. يأمر وينهى في قريته ليعود إليها طفلاً وديعاً وكأنه ليس عمدة أقسى قرية في المديرية ومع ذلك يقود أهلها بالقوة والجبروت.

قال لها في ذلك اليوم:

- أنا عايز أجوزك يا رفيقة.

لم تأخذه مأخذ الجد كان سكران.

- يا عمدة اعقل... أنت سكران.

- أنا بكلم جد.

- لأ أنت سكران.

تركها وانصرف ثم ذهب إلى وكالة النخيلي لم يخرج من حجرته. انشغل رجاله عليه.

طرق باباه واحد منهم:

- مش عايز حاجه يا عمدة؟

- روحوا انتوا... وأنا جاي بكره.

لم يناقشه الرجل فقد تعودوا أن يسمعوا كلمته على أنها أمر لا يناقش.

شعر سيد أبو حسين أن شيئاً في داخله يأكله، أصبح يضيق بعالم رفيقة ويغار عليها ويريد لها.

لم ينم ليلته، قام مع طلوع الفجر، ذهب إلى رفيقة وجدها نائمة، طلب من إحدى البنات أن توظفها، كانت نائمة مع رجل آخر تركته لتقابل سيد أبو حسين الزغابي.

- إيه فيه يا عمدة؟

- أنا عاوز أجوزك.

- أنت سكران.

- لأ مش سكران أنا عاوز منك كلمة.

- أنا منفعكش وانت متنفعنيش.
- بقى كده يا رفيقة.

تركها وانصرف، مضى نحو النهر ليركب مركباً إلى بلده، توقف بجوار الجميزة، نظر إلى الأفق، إلى النيل، عادت رفيقة قوية إلى ذهنه. يتعجب من نفسه رآها نائمة مع رجل وعرض عليها الزواج وهى ترفض، اتجه إلى المعديّة، ولم يعد إلى رفيقة.

استاءت رفيقة من تصرفها مع الزغابى، لا تدري لماذا عاملته بهذه القسوة؟ منحت جسدها لكل من دفع الثمن. لم تفرق بين أى واحد منهم، أما قلبها فلم تمنحه إلا لنور الدين ولن تتزوج حتى تكون حرة فى أن تمنح هذا القلب له. كان عليها أن تكون رفيقة مع الزغابى. على كل فهذا خير من إعطاء الأمل له. إنها لا تريده أن يضايقها بمطلبه هذا. هو لا يعرف ما يقول، مندفع بعاطفته. سيتغير غداً ويحاسبها على حياتها، إنها تظلمه لو قبلته. سيظل قلبها بعيداً عنه وعن العالم. تأوهت... خرجت الآهة حارة حارقة... نظرت إلى السماء...

- وبعدين يا ربى!؟

لم تعد إلى حجرتها، ذهبت إلى حجرة جليلة... ارتمت على السرير بجوارها، أخذت تبكى وجليلة تحاول أن تهدئها.

كانت جليلة تلومها على حب بلا أمل، تترك جميع الرجال لتحب رجلاً لا تعرفه ولم تلتق به. رفيقة تصنع شيئاً لم تصنعه بنات عائلتها. إنهم لم يخلقوا للحب، ولكنها تفهمها الآن جيداً فهي أيضاً تحب بصيرى العبادى حباً أخذ يسرى فى قلبها فى هدوء وصمت، لم تتبينه فى البداية حتى كبر وعجزت عن إيقافه. وبصيرى لا يشعر بشيء. كان يأتى إليها ليقضى وقتاً ممتعاً.

هذا العبادى يدغدغها بلمساته الحسية. إنه أرضى كآته خلق من طينتها. وهو الآن يتغير يأتى إليها يقضى وقته معها فى الكلام والحديث. كلام هذا العبادى لا تمل منه أبداً. يمر عليه وقت قبل أن يلمسها وهى تشعر بأن حبها له يزداد يوماً بعد يوم. هذا العبادى اللعين لكم تحبه.

* * *

بدأت أعمال بناء بجوار البيت فقد هدمت جبانة الأقباط، وأنشأت الجمعية الخيرية القبطية مكانها مدرسة جديدة.

أعطت المدرسة حياة للبيت، فقد أصبح بعض الطلبة القرويين من رواد البيت المنتظمين.

وذات يوم حضر بصيرى إلى البيت فوجد الطلبة، طردهم فغضبت جلييلة ورفيقة من فعله.

قال بصيرى لجلييلة:

- دول عيال يا جلييلة!!
- وانت مالك؟ أنا حرة...
- مهو يا جلييلة.. انت حره آه.. لكن العيال دول فى البيت عارفة معناه أيه.. إنى أنا حهده على اللى فيه.

قالت رفيقة:

- متقدرش تهده... ده مفتوح بأمر الحكومة.
- بأمر الحكومة... بأمر الدنيا كلها... عيب... وإلا انتو متعرفوش العيب!
- على كل يا جلييلة أنا كان رأيى فيكى غير كده... وعلى كل إذا اتمسكتوا بحكاية العيال مش حتشوفوا وشى تانى.

سكتت جلييلة، فهى تحب بصيرى وتوافق على كلامه.. تغضب منه وتثور عليه، ولكنها لا تريد أن تخسره فهو الوعد والمكتوب. لو يتزوجها هذا العبادى ويأخذها معه بعيداً إلى السودان لارتاحت من كل ذلك. إنها لم تعد تتمتع بهذا البيت.

قالت لبصيرى:

- خلاص يا عبادى يا عقر... أنت تكسب.
- هدأت كلمات جلييلة من بصيرى ولم تثره رفيقة وهى تقول له:
- لا مش خلاص... محدش يفرض رأيه علينا.

قال بصيرى بهدوء وقد اقترب من جلييلة ووضع يده على كتفها وقربها

منه.

- اسمعى يا رفيقة... الشيخ نور الدين انتقل من قنا وبishtغل هنا فى المدرسة دية وإذا سمع بحكاية العيال مش حيحصل طيب.

ما إن سمعت رفيقة كلام بصيرى حتى جلست على أقرب مقعد وقد اصفر وجهها ولم تتكلم، كان ذلك إعلاناً منها بالموافقة. بصيرى متأكد أن أى طالب لن يدخل هذا البيت ثانية.

لقد حدث تغيير فى جغرافية المكان الذى يوجد فيه البيت فلم يعد منعزلاً بعيداً عن المدينة، إذ إن الأهالى بعد أن أمرتهم الحكومة بإخلاء مساكنهم أخذوا يتجهون إلى المزارع القريبة من منازلهم القديمة، وعمرت المنطقة وأسموها الأقصر الجديدة.

عرفت رفيقة المكان الذى بنى الشيخ فيه بيته، وأخذت كل صباح تلبس الجبة والقناع الريفى وتقف فى الطريق التى يمر بها الشيخ وهو خارج من بيته فى طريقه إلى مدرسة الأقباط. قلبها يهتز. روحها ترتعش. أحست بالاكتماء وبالرضا. إنها الآن تراه: كانت جليلة تعترض أحياناً على سلوكها غير أنها فى أعماقها تستريح لحبها لنور الدين وتعجب به فهو المقدر والمكتوب.

* * *

ذات يوم استيقظت جليلة على صوت بصيرى وهو يطرق حجرتها، قامت من فورها سعيدة، احتضنته أدخلته الحجرة.

- جيت يا بصيرى.

- انهاردة الفجر.

سمعا طرقا على الباب، فتحت جليلة لترى رفيقة، قالت جليلة لنفسها ليس هذا وقت حضورك يا رفيقة.

قالت رفيقة:

- ازيك يا بصيرى حمد الله ع السلامة.

- أهلاً رفيقة.. ادخلى.

- أنا منمتش الليلة دى. بقالى مدة مبمشى.

- خير!؟

- مانت عارف.. والله بفكر أموت.

- بعد الشر يا زينة النسوان.

جلست رفيقة، غلفهم جميعاً الصمت، وبعد قليل قالت رفيقة:

- مش عارفه أعمل إيه.. مفيش دوا فى السودان للنسيان.. رحت للسحرة واللى بيكتبوا منفعش.. أنا تعبانة يا بصيرى.. تعبانة.. فكر بصيرى طويلاً.

- والله معارف أعمل لك إيه..؟ يعنى كل اللى عايزه تعملية إنك تشوفيه؟!

- أيوه يا بصيرى...

- الشيطان طماع يا رفيقة...

- كفايه أشوفه...

- انت تروحي له البيت...

- إيه..؟

- أيوه هو دلوقت مأذون البلد ومسؤول عن الناس.. روحى اعملى نفسك عايزه تسأليه فى مشكلة.

- فكرك كده.

- مفيش غير كده.

تركت رفيقة الحجرة ومضت إلى حجرتها لتنام نوماً عميقاً.

استيقظت لتعد نفسها لرحلة إلى بيت الشيخ. لبست جلباباً أسود وبردة، لم تضع مساحيق على وجهها، غطت شعرها بطرحة سوداء ومضت إلى بيت الشيخ نور الدين.

أفكار شتى تتنازعها فقد مر عمر طويل أكثر من خمسة عشر عاماً على علاقتها بنور الدين هى تسميها علاقة، ستدخل بيته الآن، ترى لو أرادها نور الدين أتعطيه نفسها؟ أتقبل أن تخرجه من عالمه إلى عالمها؟ ضايقها هذا الإحساس فهى لا تريده فى عالمها إنها تريده فى عالمه.

وصلت إلى بيت الشيخ طرقت الباب، فتحت لها زوجته وكانت حاملاً فى طفلها الأول، نظرت إليها وهى ترتعش.

- سيدنا الشيخ موجود؟

- مين حضرتك؟!

- أنا رفيقة...

دهشت الزوجة أن تكون رفيقة شيطانة الأقصر فى منزلها ياما خربت هذه المرأة بيوتًا عامرة لماذا تأتى إلى هنا.. الشيخ لا يصد أحدًا والبيت مفتوح لكل الناس.

أدخلتها إلى حجرة الشيخ وهى تناديه:

- يا سيدنا الشيخ رفيقة هنا...

حضر الشيخ نور الدين وجلس على الكنية...

لم يحيها. طلب من زوجته أن تغادر الحجرة، فغادرتها قلقة. تمت لو بقيت أو اعترضت على كلام الشيخ ولكنها استسلمت، غير أنها جلست بجوار باب الحجرة المغلق تحاول أن تصغى لما يقال.

مكث الشيخ وقتًا ليس بالقصير يتمم بورده. ولا ينظر إلى رفيقة التى أحنّت رأسها ولم تستطع أن تنظر إليه.

كان محفوقًا بنور من الجنة أعشى عينيها، أخذت ترتعش، لم يتوقف الشيخ عن تلاوة ورده، لكنها سمعت صوته قويًا حنوًا:

- ماذا أتى بك يا رفيقة، سبعة عشر عامًا طويلة وأنا أنتظر حضورك.. فلا تأتينى.

ذعرت المرأة.. ينتظرها.. كيف؟ ولماذا؟ إنه حتى لا يحس بها، أترأه كان يحبها؟ توقفت عن التفكير، ركزت انتباهها لتستمع إلى كلماته.

- سبعة عشر عامًا يا رفيقة تنصبين حبال الشيطان فى المدينة. لا يردك راد ولا يوقفك وازع... تدفعين الناس للشر، تأكلين الدود وتبيعين جسدك رخيصًا بغير تمن.

الشيخ لم يفهم أنها لم تبع جسدها رخيصًا أبدًا... كان يدفع فيه أغلى سعر يدفع لامرأة.

يا رفيقة لن تتوقفى حتى يحل عليك غضب من الله ينزل بجسدك وروحك العذاب الأليم.

كان العذاب الأليم قد بدأ فقد أحست بدوار... صدام يتحرك يلف رأسها يحتويها بنار حارقة. رأت جهنم دخلتها... آه ما أقساها... السنة اللهب تحرقها...

تموت مع كل كلمة من كلماته وتعود إلى الحياة لتحرق من جديد.

- يا رفيقة سيذهب الجسد وتبقى الخطيئة حيث لا توبة ولا ندم... عودى لنفسك فالطريق مازال مفتوحاً. لا تبيعي نفسك للشيطان، فهناك طريق أجمل وأروع... يكفى... يكفى ما صنعت يا رفيقة... الله غاضب منك وملائكته والمتقون.

حركك الشيطان لتأتى إلى هنا ولكنى كنت أنصب حبلاً له... أردتك أن تأتى فقد ازدادت شكوى الناس منك ومن عالمك، لن تفتنينى يا رفيقة فلقد كسرت ما بينى وبين الشيطان منذ زمن بعيد.

يا رفيقة خلطت الحب بالغواية فحرريه منها... الحب هو حب الله، أحبى الله يُغثِكَ عن الناس ويظهر نفسك وجسدك ويملاً قلبك بنور الحب.

كان نور الدين مستغرقاً فى ورده ولكن وجهه كان يكتسى لبدة الأسد. حاولت أن ترفع رأسها لتتظر إليه... لم تستطع فقد كانت السنة اللهب تحرقها فى كل اتجاه... كلماته تحرق قلبها مع أنها لا تدرى من أين أتت فهي متأكدة أنه لم يفتح فمه قط.

رفع الشيخ يديه إلى السماء ليدعو الله فخرجت أول كلمات تصدر من فمه...

- اللهم أنر قلب رفيقة... وتب عليها وعلينا وعلى المؤمنين... اللهم باركها فإنها لا تعلم وأهداها واهد بها.

أخذت النيران تهدأ مع كلماته وما إن انتهى من دعوته حتى شعرت بأن ماء النيل قد فاض فغطى نيران جهنم المشتعلة فى جسدها وأطفالها، وأن ريحاً طيبة تهب من الجنة تزيل آلام النيران وأثارها على الجسد، وقد شعرت برئى فى روحها.

وقف الشيخ نور الدين، وكان ذلك منه إعلاناً بنهاية الجلسة، كفكت رفيقة دموعها، وقفت، لم تقل للشيخ غير كلمة:
- فتك بعافية.

حين خرجت وجدت زوجة الشيخ فى الصلاة، قالت دون أن تنظر إليها:
- فتك بعافية.

دهشت زوجة الشيخ أن ترى رفيقة مبتلة بالماء وكأنها خارجة لتوها من النهر.

ما إن جلس الشيخ على المصلاة يقرأ ورده حتى طرق الباب فرفع صوته:
- ادخل...

لم يفاجأ الشيخ ببصيرى العبادى فإنه قد أدرك أنه قد وصل من السودان حين حضرت رفيقة. إنها لا تستطيع أن تأتى من تلقاء نفسها فقد حضرت بناءً على نصيحته.

- أهلاً شيخنا...

جلس بصيرى فى مواجهة الشيخ وأخذ يقص عليه أخباره.

قال وهو يبتسم:

- أنا طُفقت السابعة.

لم يرد عليه الشيخ.

- أصلها دنقلاوية ماسخة ومتعنطرة.

شعر بصيرى بأن الشيخ غير مهتم بسماعه، سكت. فى ذهن الشيخ أشياء كثيرة، بصيرى لا يحتمل الصمت مع الشيخ، حاول أن يخلق موضوعاً للحديث والشيخ لا يرد، سكت ثم ضاق بالصمت فقال:

- هيه رفيقة كانت هنا... مش برضه كانت هنا.

تغير وجه الشيخ ولبس وجهه لبدة الأسد وصرخ فيه:

- صبرت عليك كثير يا بصيرى وبرضه مرجعتش وجاييني جنب.. لكن عمايلك دى لازم يكون لها نهاية.

شعر بصيرى أن الشيخ يقف ويقترب منه أصابه الرعب، قال مذعوراً:

- فيه إيه؟ فيه إيه؟

اتسعت عينا الشيخ واحمرتا وهو يحملق فى بصيرى:

- انهارده آخر عهدك بالزنا يا بصيرى الكلب...

مد الشيخ يده إلى رأس بصيرى وهو يحاول أن يبعدها عنه فلم يستطع.

أمسك الشيخ جبهة بصيرى بالخنصر فى ناحية والإبهام فى ناحية أخرى.

توقف بصيرى عن المقاومة. كأن الشيخ يدق الجبهة دقا، وكأنه لن يرفع يده حتى يكسرها. استسلم. أخذ ينن أنيثا عاليًا، رأى الشرر يخرج من عينيه وكأنه قطع جمر مشتعلة، أحس بأن عروق الرأس تتحرك، تشد، تتحول إلى أماكن أخرى. تربط.

صمت عن الآئين فقد ذاب صوته وعجز تمامًا عن أن يتفوه بكلمة، رفع الشيخ الخنصر والإبهام ولكن إحساسه بأن يده باقية تسحق اللحم والعظام لم يتوقف.. الغريب فى كل ذلك أن الشيخ جالس مكانه يتمتم بآيات من القرآن الكريم وقد حلت عليه السكينة وكأن بصيرى لا يعانى كل هذه الآلام.

طرق الباب، نظر الشيخ إلى بصيرى الجالس فى عذاب لا يستطيع الحركة.
- قوم يا بصيرى افتح الباب...

ما إن انتهى الشيخ من كلمته حتى شعر بصيرى بأن كل الآلام قد انزاحت. لقد عاش زمنا من العذاب لا يستطيع أن يقيسه.

قام بصيرى ليفتح الباب، عاد ومعه سيد أبو حسين، وقف الشيخ ليرحب به وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه.
- أهلاً بعمدة الغرب كبير الزغابى.

جلس بصيرى وسيد أبو حسين وقد أرخيا عيونهما حتى لا تقع على عيني نور الدين. لا يدرى سيد أبو حسين كيف قادته قدماه إلى هنا.

استيقظ هذا الصباح، شعر بحنين قوى إلى رفيقة، أهانت كبرياءه، قاومها فى نفسه، كلما شعر بانتصاره عليها عادت لتجذبه نحوها بقوة فيقاوم، شعر هذا الصباح أنه مأخوذ، لبس ملابسه وخرج من بيته، أمر أتباعه أن يتركوه وحده. جاء المدينة، ذهب إلى بيتها، لم تكن موجودة، أخبرته جليلة أنها فى بيت الشيخ نور الدين، لم يفكر لم يسأل نفسه لماذا تذهب هناك؟ أخذ طريقه إلى البيت، لا يعرف ماذا يقول للشيخ ورفيقة لو وجدتهما؟ ولكنه ذهب، ليس فى داخله أية مقاومة لأى شىء... وبعد أن دخل الحجرة، ورأى الشيخ أفاق لنفسه فأحس بالخجل. ماذا يقول الشيخ الآن؟ إنه يبحث عن غازية سلبته نفسه وروحه وجسده فوق لنفسك يا سيد أبو حسين.... يا زغابى هذا ليس عالمك.

شعر بأنه يقف مرحلة وسطى:

عالم رفيقة ليس عالمه، وعالم الشيخ نور الدين ليس عالمه، يقف بين العالمين، لا يحس لنفسه وجوداً. قطع عليه تفكيره صوت الشيخ نور الدين:

- أهلاً أبو مهران ولد الزناتى خليفة.
- أهلاً بيبك يا سيدنا الشيخ.

ماذا يقول للشيخ؟ لماذا جاء هنا؟ وفر عليه الشيخ الاحراج:

- شوف يا سيد أبو حسين رفيقة هناك فى مكانها مستنياك طلعتها م المكان ده.. وربنا حيكرمك كرم كبير.. أحسن معاملتها دى فيها خير.. أنت وحدك حطلعه يا سيد.. وده مش اختيارك ده اختيار الله.

قال سيد أبو حسين لنفسه والله الراجل ده مبروك.

- قوم يا سيد روح لها.

قام سيد أبو حسين وقبل يد الشيخ ثم اتجه نحو الباب وقبل أن يصل إليه ناداه الشيخ:

- استنى يا عمدة.

وقف سيد أبو حسين ونظر إلى الشيخ:

- أيوه يا سيدنا الشيخ.

وضع الشيخ نور الدين يده فى جيبه وأخرج حافظة نقوده، فتحتها، أخرج منها جنيهاً ذهبياً، أعطاه له وهو يقول:

- ادى الجنيه ده لرفيقة نقطة زواجكم.

أخذ سيد أبو حسين الجنيه فى صمت لم يجد كلاماً يقوله حتى كلمة الشكر بدلاً من أن تخرج من لسانه دخلت لتسرى فى وجوده كله. شعر بعجزه فخرج مسرعاً.

قال بصيرى لنفسه لقد عذبنى نور الدين اليوم، بينما يرق مع السيد أبو حسين، نور الدين غاضب على، غضبته هذه المرة حادة وقاسية، شعر بضيق فقام وقال للشيخ.

- أنا ماشى يا سيدنا الشيخ.

تعجب بصيرى لنفسه فهذه أول مرة ينادى الشيخ نور الدين بسيدنا.

نظر الشيخ إلى بصيرى ثم رفع يديه إلى السماء وأخذ يدعو الله:

- اللهم أهد بصيرى واعف عنه.. وأنر قلبه بنورك، واستر عليه ستره للولاياء فى الدنيا والآخرة.

توقف الشيخ عن الدعاء وأمسك بحافظة نقوده وأخرج منها جنيهاً ذهبياً مد يده بالجنيه إلى بصيرى وقال له:
- خذ يا بصيرى.. ربنا يفتح عليك..

خرج بصيرى وهو يشعر بدوار شديد، شىء ما يتغير فى هذا المخ... الشيخ نور الدين يقول ستره على الولاياء، بصيرى لم يستر على ولية حتى الآن؟ فماذا يعنى؟ يعطى جنيهاً ذهباً لسيد أبو حسين ليعطيه لرفيقة نقطة لها، ويعطيه جنيهاً ذهباً، لم يقل له لمن يعطى هذا الجنيه، بصيرى لا يحتاج إلى جنيهاً. ولكن هذا من مهر عطيات. هل يقصد أن يدفعه لجليلة؟ لقد شجع سيد أبو حسين على الزواج من رفيقة فهل أعطاه بهذا الجنيه الإذن بالزواج من جليلة لماذا لم يقل له ذلك مباشرة، قال لنفسه أنت غبى يا بصيرى عشت العمر كله مع نور الدين ولم تفهمه قلبك مظلّم.

اصح يا بصيرى اصح... وجد نفسه بجوار شاطئ النيل قرب الجميزة... اقترب منها أمسك بها، عشت حياتك فى الحرام يا بصيرى. صحيح ليس فى عيب غير المرأة، أحبها فى الحلال والحرام، توقف عند الحرام تألم، تذكر أنه جنب نزل إلى الشط، استحم فى النهر، خرج وقد استعادت نفسه توازنها، واستراحت رأسه. أخذ يفكر فى جليلة، حقيقة لقد أحبها طوال هذه السنين أصبحت جزءاً من حياته. يعرف الناس أنه يحبها وهو ينكر ذلك. لماذا ينكره؟ لأنه عبادى وهى غازية. كلما فكر فى الزواج بها، قاوم أفكاره وعدّها من نزواته. والآن يقرأ الشيخ نور الدين أفكاره، يعرف مكانة جليلة فى نفسه ويدعو له بالستر لستره للولاياء. ومن غير نور الدين يدخل جليلة زمرة الولاياء. إنه يعطيه الإذن بهذا الزواج حين أعطاه جنيهاً من مهر عطيات إنك يا بصيرى قريب من الله وبعيد عنه.. علاقتك بجليلة تبعك عن الله فلتكن وسيلتك للتقرب إليه.

أخذ طريقه إليها. وجد سيد أبو حسين يكلم رفيقة. لم يهتم بهما، نادى جليلة...

قالت رفيقة:

- إيه فيه يا بصيرى؟

- مفيش... خليكى فى حالك يا رفيقة.

حضرت جليلة فقد كانت مشغولة فى إعداد حاجيات رفيقة، حين دخل سيد أبو حسين على رفيقة وجدها مصفرة، تشعر بالضياح، تبحث عن سبيل للتوبة، ولا تعرف الطريق إليها، تذكرت سيد أبو حسين، تكبرت عليه ألقته بعيداً عنها. إنها راغبة أن تصنع أى شىء، تتزوج أى رجل فى الحلال يلمها ويكفيها هذه الصنعة الباطلة.

وعندما رأت سيد أبو حسين صرخت:

- مدد يا نور الدين.

ضمها سيد أبو حسين وهو يصرخ:

- مدد يا نور الدين... أنا كنت عنده وأمرنى بزواجك... يعنى خطبتك منه.

أخرج سيد أبو حسين من جيبه الجنيه الذهبى وقدمه لرفيقة:

- الشيخ باعت لك الجنيه ده نقطة زواجنا.

أمسكت بالجنيه تتأمله وقالت مندهشة:

- صحيح... صحيح يا سيد.

- المهم... أنك حتمشى معايا دلوقت.

لم تعترض ولم تناقشه فقد قررت أن تترك البيت لجليلة.

فكرت لحظة... تترك البيت لجليلة تديره، أى تترك الشيطان يستمر فى عمله. ولكن ماذا تصنع لجليلة؟ لا تدري، توقف تفكيرها، إن ما تصنعه هو عشر توبة، بالتأكد ليس توبة كاملة، وحين رأت بصيرى قالت فى نفسها مدد يا نور الدين... سيحدث شىء لجليلة.

قال بصيرى موجهًا كلامه لسيد أبو حسين دون أن ينظر إلى جليلة.

- انت حتكون شاهد عقدى انهارة على جليلة.

صرخت جليلة:

- انت خدت رأيى يا عبادى يا زفر؟

- متكلميش زى الغوازى.. اتكلمى باحترام ده انت حتبقى مرات شيخ العبادة.

- مين قال إني أنا أجوزك يا عقرة العباددة بتعايرنى من دلوقت؟
- شدها بصيرى إليه... احتضنها.. احتضنته فى حنان بالغ، أبعداها عنه برقة، وضع يده فى جيبه أخرج الجنيه الذهب مد يده إلى جلييلة:
- خدى يا جلييلة.
- إيه ده...؟
- ده بركة سيدنا الشيخ نور الدين.
- هو نور الدين ده عنده منجم جنيهاات جابها منين.
- وما إن أتمت جملتها حتى أخذت فى الضحك، قال بصيرى:
- يا بت اسكتى قطع لسانك.. الشيخ نور الدين مش موضوع هزار... اتعلمى تبقى محترمه... ده لولا هوه ما كنتش جيت ولا أجوزتك ولو لمست نجوم السما.
- تغير وجه بصيرى فقد ظهر الغضب عليه، صمتت جلييلة، شعرت فعلاً أنها أساءت للشيخ دون مبرر. أمسكت بالجنيه... وحاولت أن تعتذر.
- أنا مقصدش إساءة... أنا عارفة أنه راجل على قد حاله... بس عايزة أعرف جاب الفلوس منين.
- لم يترك الغضب بصيرى:
- راجل... راجل ايه...؟ أبو مخيمر... لكن حقول عليك إيه... اكتسى صوت بصيرى بالحزن وهو يقول:
- الفلوس دى يا جلييلة مهر مراته الأولى.
- تدخلت رفيقة فى الكلام.
- بنت عمه؟
- لا واحده تانى متعرفهاش... محدش يعرفها...
- ساد الصمت الجميع وقد غاب ذهن بصيرى بعيداً... فى عطيات... فى الشيخ الطيب... فى السودان... فى النجم ذو الذنب. لا أحد يفهم هكذا قال بصيرى لنفسه.
- أحست جلييلة أنها أخطأت فى حق الشيخ تحدثت باستخفاف فهذه طريقته، أصابتها رهبة، شعرت بأن الشيخ يدخل قلبها، قالت لنفسها أنا غلطانة.

الشيخ طول عمره راجل طيب.

قالت رفيقة:

- وفين هي دلوقت؟!

صرخ بصيرى:

- ماتت... قبل ميدخل عليها...

ضربت رفيقة صدرها بيدها:

- بتقول إيه؟

شعر بصيرى أنه باح بالكثير فقال:

- مفيش حاجة... انسوا الموضوع.

قالت رفيقة لنفسها أى رجل هو.

بينما اقتربت جليلة من بصيرى وقد كبر فى نظرها كما لم يكبر فى يوم من الأيام، وأحست باحترام عميق له.

استطاع بصيرى أن ينتزع نفسه من الحس الحزين الذى انتقل إليه فقال ضاحكاً:

- المهم دلوقت خلونا نتكلم فى المهم.

قالت رفيقة:

- أنا عاوزة مهرى من سيد أبو حسين.

قال سيد أبو حسين:

- انت تؤمرى يا رفيقة.

طلبت منه أن يكون مهرها مساعدة فتيات البيت على الزواج.

فى الفجر كان الجميع يستعدون للرحيل وترك البيت.

قال بصيرى:

- محدش حيمشى قبل منسكن البيت.

ردت رفيقة:

- ليه يا بصيرى؟!

- أنا خايف حد م العجر يجى هنا ويفتحه وترجع الحكاية تانى متخلصشى... البيت ده لازم يتقفل للأبد.
- بس ده ملكى ومحدث يقدر ياخده.
- مين عارف...
- انت حتكونى فاضية للمشاكل... أنا عارف حوالى ثلاثين أربعين طالب من الأرياف محتاجين سكن... أنا حبيبهم دلوقت.

خرج بصيرى ليعود بالسكان الجدد بينما تمضى رفيقة والبنات مع سيد أبو حسين إلى الغرب.

وصحب بصيرى جليلة لمنزل الشيخ نور الدين ليكتب عقد زواجهما، لم تكن الشمس قد أشرقت بعد حين سمع الشيخ طرقاً على الباب. يذكر بصيرى بعد أن مرت الأيام والسنون أنه لم ير نور الدين سعيداً كسعادته لرؤيتهما... أدخلهما وتركهما ليتجه إلى القبلة ليغيب فى لقاء مع حبيبته الأكبر يشكره على ما صنع.

ذكرت جليلة لبصيرى أنها بعد أن رأت نور الدين هذا الصباح عرفت لماذا أحبه رفيقة..؟ ولماذا أحبه بصيرى؟

لقد غسلت دعواته جسدها من كل ما صنعت فى الماضى.

يقسم بصيرى أنه لم يعرف فى حياته امرأة أشرف وأنقى نفساً منها. أصبحت له زوجاً وأماً وابنة. أخذها معه إلى السودان لتعيش فى دنقلة فأحبها كل من عرفها، نساء العبادلة اللاتى لا يعجبهن العجب قبلنها ووضعنها فى منزلة كبرى فى عالمهن.

أنجبت له هجرس ثم ماتت، حزن عليها كما حزن عليها كل من عرفها. أرهقه الحزن، رآه الشيخ نور الدين، نصحه بالزواج، لم ينسها الزواج جليلة.

أما رفيقة فقد أنجبت ابناً وابنتين، وحجت إلى بيت الله الحرام سبع مرات. زارها بصيرى وجليلة بعد حجتها الأولى، وقد عادا من السودان فى زيارة قصيرة، أعطته كيساً به مائة جنيه ذهباً.

* * *

ضحك بصيرى، وضع الكيس فى جيبه.

كانت دموع رفيقة تسقط بلا توقف من عينيها، همست لنفسها... رحمة
واسعة لك يا شيخنا.

يجزيك ربنا على اللي عملته لينا.

وحين دخل الحاج حجاجى ومعه دياب وأبو المجد الحجرة، أفاقت المرأة
مسحت دموعها وتركت الحجرة ومضت داخل المنزل.

نقل محمود نظره بين الموجودين، توقف عند دياب وقد لبس جلباباً صوفياً أزرق بخطوط بيضاء وعلى رأسه عمامة كبيرة، يبدو واحداً من أعيان ريف الأقصر. تركزت نظراته على وجهه، إنه يبدو وسيماً مريحاً. تعجب محمود من نفسه فإنه منذ وقت قريب لم يكن يطيق النظر إلى وجه دياب وهو الآن يستريح إلى تأمل تقاطيعه المنسقة ويشعر بحب شديد نحوه.

جلس دياب على كرسى أمام المائدة وبجواره أبو المجد، بينما الحاج حجاجى يسحب يد بصيرى برفق، وصوت دياب يرتفع بحنو...
- يلا يا عم بصيرى... شاركنا الطعام قوم يا محمود هات الطشت والإبريق علشان نغسل إيدينا..

قام بصيرى وجلس بجوار دياب بينما ذهب محمود ليحضر الطشت والإبريق، خرج إلى الصالة المواجهة للحجرة ومنها إلى صالة داخلية لم يستطع أن يدخلها فهي مازالت ممتلئة بالنسوة.

نادى أخته منيرة لتحضر الطشت والأبريق، أخذ ينقل ناظريه بين الجالسات رأى والدته تجلس فى ركن من أركان الحجرة غارقة فى أفكارها وعن يمينها رفيقة وقد أمالت رأسها واضعة يدها اليمنى تحت ذقنها، فوجئ وهو يرى عزيزة ورىا يجلسان على يسار أمه.

قدمت منيرة بالطشت والأبريق، أخذهما منها ودخل الحجرة ليجدهم جميعاً يتناولون الطعام... وضع الطشت والأبريق على الأرض وخرج ليجلس مع عمه يونس، فلم تكن به رغبة للأكل.

كان الشيخ يونس مستغرقاً فى قراءة ورده فلم يشعر بمحمود وهو يجلس بجواره، لم يستطع محمود أن يسترخى فى جلسته، كان يفكر فى عزيزة ورفيقة

ويشعر بحب لأمه، وشفقة عليها... ماذا يمكن أن تصنع هذه المرأة بعد أن فقدت الرجل الوحيد الذى عرفته فى حياتها...

* * *

لقد عاشت الحاجة زوجة الشيخ أياماً عصيبة، فقد مرت أيام الوفاة الأولى وهى لا تصدق أن زوجها مات، غاب عنها إلى الأبد، كانت كالذبيح الذى لا يشعر بألم السكين ساعة الذبح، وقد بدأ الإحساس يعود إليها لتتبين الحقيقة المخيفة، أن زوجها الحبيب قد مات، استغرقتها الأفكار، لقد مرت عليها أربعة أيام منذ غيابه عرفت عنه أكثر مما كانت تعرف طيلة مدة زواجها به. إنها الآن مشدودة، كانت تغار عليه، كم يرهقها الألم، يأكلها، كيف تغار على رجل كان غطاءً للمحتاجين؟ إنها تنظر إلى رفيقة فتشعر بحب كبير لها ولنساء أخريات يذكرن أيدى الشيخ عليهن وعلى أزواجهن. كان الشيخ لها طيلة عمره. والآن ترى الكثيرات يشاركنها حبها والحزن عليه. إنها لم تعد تغار عليه ولكنها تتضايق أن يشاركها فى حب الشيخ والحزن عليه أحد آخر، ولكن هكذا الشيخ دائماً حبيب إلى كل الناس. ليستأتموت، كيف تعيش دون الشيخ. يبكيه ويتكلمن عنه، وهن مهما تحدثن وتحدثت عنه المدينة فإن أحداً لا يعرفه معرفتها له، لقد كان زوجها، شريك حياتها، أنجبت له ستة أولاد وبنتين، كل واحد منهم يمثل علاقة حب صاخبة. لقد شاركها العالم فى حب الشيخ ولكن أحداً لم يشاركها فراشه. كانت له وكان لها حباً بلا ألم، ومتعة بلا نهاية. إنها الوحيدة التى اختارها لتكون زوجته من بين كل نساء الأرض كانت لهما لحظات ولحظات.

إنها مازالت تذكر حين طاردهته الحكومة وقد فر منها، لم يتركها أبداً. كانت حاملاً فى ابنتها الأولى عائشة وكانت ابنتاه سكيمة وشمسه تعيشان معها كانت تشعر أنها أختها فهما دم الشيخ ولحمه، انتقل أبوه الشيخ مصطفى وأمه ليعيشا معها فهى غريبة عن المدينة، شعرت فى غربته أنها ابنة المدينة فقد أخذ الرجال والنساء يفدون إلى بيتها يقدمون لها الحب ويسألونها عما تحتاج إليه ولم تكن تحتاج إلا أن يعود نور الدين. إنها تشعر أنه منحها وطنًا جديدًا وأهلاً كراماً. لقد امتدت جذورها فى هذه المدينة فهى أرض الشيخ.

استيقظت ذات ليلة على خطوات فى أرضية الصلاة. تحركت، أرادت أن تصرخ، أحس بحركتها وقبل أن تخرج صرختها هداها صوته الحنون...

- أنا نور الدين يا زكية...

هبت واقفة احتضنته... وقفت طويلاً بين ذراعيه... سألها أن تشعل ضوء المصباح الغازى فهو يريد أن يرى ابنتيه... قبلهما أخذ يحصنهما بقراءة القرآن... أيقظ والديه. إنها لم تر رجلاً يحب والديه كما أحبهما الشيخ. ترك والديه، ثم أخذها إلى غرفة فى السطوح، لمس بطنها. قال مداعباً:

- بترعص.. البكرية بنت.

- لا ولد.. عايزاه يبقى زيك.

- ولد ولا بنت كلهم عيال الله كل اللى يجيبه ربنا خير...

ثم قبلها، أحست أنها لن تنظماً أبداً...

ذهب بعدها متسلقاً الجدران سائراً فوق سطوح المنازل ليغيب وتختفى حركته، بكت كثيراً ليلتها. ماذا كتب على الشيخ ليدخل بيته متلصصاً؟ من يومها لم تبت فى حجرتها، انتقلت إلى حجرة فى السطوح تنتظر قدومه تتسمع إلى كل حركة، إذا غفلت عيناها لحظة تقوم فرحة على أى صوت؛ صوت الريح صوت قطرة تقفز أو فأر يتحرك فوق أحد الأسطح القريبة. إنها تتصور نور الدين قادماً.

وكان يأتى... ليمنحها الطمأنينة والحب. والآن يغيب عنها، لكنها ستعيش له بقية عمرها وسيظل اسمها مقترناً باسمه حتى تلقاه وبعد أن تلقاه. هؤلاء النسوة ينظرن إليها ويعاملنّها على أنها الشيخ. إنها ليست الشيخ فهي زوجته أم أولاده وحبيبته، انفجرت فى البكاء، أفادت رفيقة من أفكارها أخذت تهدنها غير أنها غرقت فى بكاء عميق، ثم وقفت وأخذت طريقها إلى حجرة مجاورة. ألقت بنفسها على سرير معد لها. ذهبت منيرة وراءها:

- حتنامى يا حاجة؟

- أصلى تعبانة شويه.

- أحسن تنامى علشان تستريحى.

غطتها منيرة بملاءة بيضاء ثم ذهبت إلى الصلاة وهى تنظر لوالدتها الحزينة قالت فى نفسها..

كان الله فى عون أمى..

ستكون الأيام صعبة عليها. إنها تعرف أمها جيداً لم تكن تأنس لأحد غير

الشيخ، كانت قليلة الكلام حتى يقدم الشيخ فتأخذ فى حديث لا ينقطع معه - كان رحمه الله يحسن الاستماع إليها وهى تحدثه عن مشاكل الطبخ والخبيز وكأنها تتكلم الحكمة الخالدة، لقد عرفت عن أبيها هذه الأيام الكثير وكل ما عرفته يزيدنا حباً فيه. عطيات... رفيقة... عالم الأقصر كله. أى رجل هو...؟ أخذت منيرة تصرخ والدموع تتساقط من عينيها:

- آه يابا... أجيبك منين يابا.

قامت الحاجة رفيقة من فراشها لتأخذ بيد منيرة احتضنتها..

- هدى يا بنيتى هدى.

هدأت منيرة ثم أخذت رفيقة إلى حجرتها..

- تعالى يا عمة رفيقة نامى.

ما أجمل كلمة عمة حين تخرج من فم هذه الفتاة، إنها تجعلها تقف من الشيخ فى مكان الأخت. هذا شىء جميل. الفتاة تحس بهذه الكلمة ولا تقولها مجاملة.

قامت مع منيرة، ارتمت على السرير بينما منيرة تقول لها:

- أنا جعل لك شأى يا عمة.

مضت منيرة لتصنع الشأى بينما رفيقة تشعر بحب شديد لهذه الفتاة، سألت نفسها هل تعرف هذه الفتاة أباه. إنها تعرف جوانب منه ولكنها لا تعرف حقيقته بالتأكيد. هل تعرف أن والدها كان أكبر خيال فى الأقصر، وأنه كان بطلاً عظيماً لا يقل عن أبو زيد الهلالي سلامة، وأنه صنع منها ومن رجال كثيرين أبطالاً فى منطقتهم...

* * *

تذكر رفيقة أن سيد أبو حسين الزغابى جاءها ذات يوم بعد سنوات من زواجها وقد عاد من الأقصر مهموماً، سألته فيم يفكر وكانت تتألم لأى شىء يضايقه، قال لها سيد أبو حسين:

- أنا كنت فى البندر انهارد.

لقيت كل اللى فيه مشغولين قوى والمديرية باعته رجالتها علشان يقبضوا على الشيخ نور الدين.

انزعجت رفيقة من الخبر، وقالت بصوت خرج كالصرخة:
- ومسكوه.

- لأ... هو هربان منهم ليه أسبوعين.
- وليه عايزين يمسكوه هو هرامى ولا حرامى... ده أشرف من كل الحكومة.
- لأ مش حرامى... وز الناس ع الثورة على الإنكليز.. وقاد الإضرابات ضدهم.
- لنكليز... لنكليز مالهم بيه.

صمتت رفيقة لحظة، أخذت تفكر ترى أين يذهب؟ لم تجد إجابة لسؤالها فقالت لزوجها...

- فكرك يا عمدة حيروح فين؟
- الشيخ نور الدين مش حيغلب... المديرية كلها بتاعته... وهو مش لوحده هربان دول اتناشر واحد.
- وهو فين دلوقت... ونلاقيه إزاي.
- والله مانا عارف... دول فى المركز بيقلولوا إن الشيخ بيخطف لنكليز.
- وماله بيههم؟
- أصلهم خدوا سعد زغلول باشا وابن عمه الشيخ عبد المعطى أبو جبريل ومعاهم كل الناس الكويسه ونفوهم بره مصر.
- أنا مش فاهمه حاجة يا سيد.
- أقول لك إيه يا رفيقة؟ بتفكرى زى الفلاحات.
- ما أنا فلاحه يا سيد... فهمنى.
- البلد فيها ثورة.
- امال بلدنا مفهاش ثورة ليه؟

سكت سيد أبو حسين، ثم قال:

- مفهاش ثورة ليه...؟ آه مفهاش ثورة ليه...؟ أصلى بلدنا مفهاش رجاله عمدتها ميساويش نكله.
- متقولش كده على سيد الرجال.
- والله يا رفيقة أنا ما أقل م الشيخ نور الدين، بس أنت روحى هاتيللى آكل...

- هو ده وقت أكل يا عمدة.
- آه أكل محنا حنتعب لحد منلاقى نور الدين وأنا لازم حلاقه.. يا أنا ينكليز يا رفيقة.

أخذ سيد يبرم شنبه، ثم قال بهدوء وثقة:
 - ما يبقاش ده على راجل إذا ما أدبتش لنكليز، قومي هاتى الأكل يا رفيقة.

ما يبقاش ده على زغابى إذا ما أدبتش لنكليز... ما يبقاش ده على ولد الزناتى خليفة إذا مرجعش سعد باشا وعبد المعطى أبو جبريل... قومي هاتى الأكل يا رفيقة.

* * *

أصاب المسئولين فى مديرية قنا الرعب؛ فقد اجتاحتها موجة من العنف. اغتيل حكامدار المديرية الإنجليزى، كما اختطف عدد من الأجانب لا يعرف مصيرهم. أصابع الاتهام تشير إلى الشيخ نور الدين وجماعته. لكن المحير أن هناك أحداثًا تمت فى مناطق مختلفة فى وقت واحد فى إسنا والأقصر والغرب وفرشوط.

أرسلت الحكومة فى القاهرة دعمًا لقوتها فى المديرية. بعض الجنود اختفوا، انضموا للمتمردين.

قوات الحكومة تطارد الشيخ نور الدين فى كل مكان تظن أنه موجود فيه. الأهالى يخفون نور الدين، طردت الحكومة بعض العمد من مناصبهم بتهمة التهاون أو التواطؤ مع نور الدين، ألقت القبض على خمسة منهم، كان اسم سيد أبو حسين فى أول قائمة المقبوض عليهم إلا أنه هرب.

كانت الساعة الواحدة صباحًا عندما وقف مركب على شاطئ النهر قرب قرية خزام، نزل منه عشرون رجلاً، اتجهوا من فورهم إلى شريط السكة الحديدية وأخذوا يفكون فلنكات الشريط.. يتحسسون الصواميل فى الظلام الدامس، وبينما هم منهمكون فى عملهم وجدوا أنفسهم محاصرين وصوت يصرخ فيهم:

- إيه اللى بتعملوه ده؟

عرف سيد أبو حسين ورفيقة صاحب الصوت فهو الشيخ نور الدين. ارتاحت نفساهما فقد وجدا الرجل.

ترك الرجال بنادقهم والمفاتيح التى يفكون بها الصواميل بينما ارتفع صوت سيد أبو حسين:

- أهلاً شيخ نور الدين، إحنا بندور عليك من زمان.

عرف الشيخ صاحب الصوت..

- أهلاً يا زغابى... اربطوا الصواميل بسرعة... دا القطر مليون مصريين ومش معقول نقتلهم.. رجع الفلنكات زى مكانت.

أخذ الرجال جميعاً يعملون فى ربط الفلنكات حتى انتهوا منها، ثم قال الشيخ:

- امشوا بهدوء... ادخلوا القصب نتكلم هناك.

كان رجال الشيخ قد قطعوا أعواداً من القصب فى وسط الغيط تكفى لجلوسهم وحركتهم داخله، وبعد أن دخلوا اقتربت رفيقة من الشيخ وقالت:

- أهلاً يا سى الشيخ.

- أهلاً.. مين رفيقة.. والله فيك الخير..

تغير صوت الشيخ وهو يقول:

- ومين بيقوم بمصالح الزغابى هناك؟

- الناس كتير.

- ... الناس كتير...!! لا يا رفيقة، محدش يعرف يقوم بيها غيرك... إن شاء الله بعد عملية النهارده ترجعى البلد تشوفى مصالحها.

تركته رفيقة وعادت لسيد أبو حسين فوجدته يكلم بصيرى، لم تكن تتوقع أن يكون بصيرى هنا. هتفت بحنان بالغ:

- إزيك يا بصيرى؟

- إزيك يا رفيقة؟

- جليلة فين؟

- فى دنقلة يا رفيقة... بتسلم عليك.

- ومجبتهاش ليه؟

- أجيبها إزاي؟.. ده أنا أول مسمعت أنهم قبضوا على نور الدين جيت جرى.. وهيه حامل فى شهرها التالت وشايفه المصالح كلها. نادى

الشيخ نور الدين على سيد أبو حسين فأقبل عليه.

- اسمع يا سيد انت حتأخذ رجالتك بعيد شويه من هنا وتختفى فى البوص والحلفا.. واحنا حنقعد هنا أول متسمع صوت القطر حنكون مولعين نار على الشريط وسادين طريقه، ساعة ميقف حنزل الأهالى وحنقبض على كل الخواجات اللى فيه... ومتطلعشى من مكانك إلا إذا ناديناك أو لقينا فى زنقة.

أخذ سيد أبو حسين رجاله وابتعد، بينما اتجه الشيخ نور الدين بالرجال إلى شريط السكة الحديد. أخذوا يضعون الأحجار عليه ثم أحضروا أفلاق النخيل ووضعوها بعرض الشريط ثم ذهبوا إلى التربة المجاورة يختفون فيها وسط الغاب ونبات الحلفا وأشجار السنط.

كانت الساعة الرابعة صباحاً حين خرج الشيخ نور الدين ومعه الرجال إلى الشريط، وقد حملوا بأيديهم حزمًا جافة من نبات الحلفا ألغوها على أفلاق النخيل وأخذوا فى إشعال النيران.

لم يظهر القطار بعد، والشيخ يخشى أن يتأخر فالفجر على الأبواب، والضوء سيكشفهم وستفشل عملياتهم هذه الليلة، ويصعب عليهم أن يكرروها، فالحكومة ستأخذ استعدادها بعد ذلك. إن نجاح هذه العملية مهم بالنسبة له، فهو يريد نجاحاً بلا دم وإذا ما فشلوا فالرجال سيخرجون عن إرادته وقد يتجهون للعنف والدم. وهذا آخر شيء يريده الشيخ. عندما تفشل كل الوسائل فى تخفيف حدة الإنجليز فليس هناك إلا الدم، ولكن ليس الآن. الحمد لله... فقد وصل إلى سمعه صوت القطار فصرخ فى الرجال:

- استعدوا!

كانت النيران تتعالى، وكان واضحاً لدى الشيخ أن عمران الشقيرى سواق القطار لديه وقت كافٍ ليرى النيران ويتوقف فهذه إشارة بينهما. وفعلاً توقف القطار قبل أن يصل إلى النيران بأمطار وهنا دخل الرجال العربية الثالثة فيه وهى المعدة لأن تحمل الجنود الذين أرسلتهم الحكومة لتعزيز قوتها فى بندر الأقصر. كان الجنود وقيادتهم يغطون فى نوم عميق فى انتظار الوصول إلى محطة الأقصر حين فاجأهم نور الدين بالرجال. صرخ نور الدين فيهم بصوت قوى مخيف...

- انزلوا بسرعة وسيبوا اللي فى ايديكم..

ذعر الجنود وتركوا ما بأيديهم ونزلوا من القطار يتقدمهم ثلاثة من الضباط الإنجليز.

نزل كل من بالقطار من الأهالى كما نزل سواقه عمران الشقيرى.

ربط الرجال أيدي الجنود وأرجلهم بحبال، وأمسك الشيخ نور الدين بعمران الشقيرى وقام بنفسه بربط يديه ورجليه وهو يقول له بهمس..

- آسف يا عمران.

- يا أخى اربط.

- لما تعرف ميعاد سفرتك الجايه تبلغ حد من أخوانا يبلغ يونس أبو

أحمد. ثم تركه ومضى إلى المسافرين الذين امتلأت نفوسهم بالخوف.

- محدش يخاف... إحنا بس حناخد خيول الحكومة وأسلحتها ومش عايزين حاجة تانى.. دى كلها ملكنا.

نادى الشيخ نور الدين راضى سليمان ومحمد أبو أحمد والطاهر مفتاح وبصيرى وطلب إليهم إخراج الأسلحة من القطار، كما طلب من بقية الرجال إنزال الخيول.

نظر الشيخ حواليه، شعر بأن كل شىء قد تم كما قدر له، ركب فرساً... طلب من بصيرى وراضى سليمان والطاهر مفتاح أن يأخذوا الضباط الإنجليز على خيولهم ثم نظر إلى الجنود..

- وانتوا يا غلبة ملقيتوش غير الشغلان ديه... تبلغوا اللي حتقابلوهم من رجالة الحكومة إن إحنا مش حنسكت لحد ميجيبوا سعد باشا وعبد المعطى أبو جبريل وإخوانهم ويسيبوا البلد....

وجه الشيخ نظره إلى الرجال وقال:

- اركبوا يا رجاله..

ومضت الخيول مسرعة لتمر على سيد أبو حسين ورجاله، فركبوا معهم حتى وصلوا إلى المعديّة كان فى انتظارهم الشيخ محمد موسى الأقصرى وعدد من الرجال. كان القلق قد أصاب الشيخ محمد ففكر فى أن يترك القوارب الثلاثة

ويمضى ليتعرف على ما حدث لنور الدين فقد يكون فى حاجة إليه. وحين رآه
شعر بالراحة الشديدة إلا أن صرخة تلقائية خرجت منه..

- اتأخرت كثير يا نور الدين؟!

- لا أبداً يا شيخ محمد... الحاجات دى عايزه الصبر.

وضعت الخيول على المراكب وبدأت الرحلة نحو الغرب والضوء قد أخذ فى
الانتشار ليملاً الأفق.

وصل الرجال إلى البر الغربى وأنزلوا خيولهم وقبل أن يمضوا متجهين إلى
الجبل طلب الشيخ من واحد من رجال سيد أبو حسين أن يصحب رفيقة إلى البلدة
إلا أن رفيقة قالت:

- أنا عارفة السكة كويس... خليه يقعد هنا... انتو جايز تحتاجوه...
ووجهت حصانها نحو الجنوب ليمضى بها مسرعاً إلى قريتها.

سار الرجال مقتحمين الجبل يقودهم نور الدين وبصيرى فى دروبه حتى
وصلوا إلى هضبة مستوية ساروا فيها أكثر من ساعة ليواجهوا بمرتفع، كلما
اقتربوا منه تظهر فتحة واسعة. عرف سيد أبو حسين أنهم وصلوا إلى مخبأ نور
الدين. وفعلاً كانت مغارة كبيرة وقف عندها نور الدين فى رحلة السودان، جلس
الرجال واستراحوا، وكم كانت دهشة سيد أبو حسين أن يرى فى هذا الكهف بئراً
عذبة الماء.

* * *

لم يكن الطريق طويلاً على رفيقة وهى تقطعه لتصل إلى قريتها. لقد كانت
تتعجب من الأقدار وفعلاً، تذكرت كيف كانت حياتها قبل أن ترى نور الدين وكيف
أصبحت بعد رؤيته إلى أن تزوجت سيد أبو حسين الزغابى عمدة الغرب. لقد
كرمها الرجل أكبر تكريم، أصبحت به امرأة محترمة، دخلت عالم الحريم لأول
مرة، وجدت ثلاث نساء يشاركنها فيه. الغريب فى ذلك أنها أحبت وضعها الجديد.
كانت تتضايق كثيراً من نسائه وهن ينظرن إليها فى احتقار، ذكرتها إحدى نسائه
بماضيها، سمع سيد أبو حسين بقولها فطلقها من فوره، لم تسترح رفيقة لفعله.
لامته على ذلك فهى لا تريد أن تسبب لأية واحدة من زوجاته ضرراً إنها تريد أن
تكسب رضاهن بأى ثمن، لم يستمع سيد أبو حسين لكلام رفيقة فلم يعد زوجته.

منذ هذا اليوم لم تسمع من زوجاته وأخواته البنات غير الكلام الطيب، غير أن عيونهن كانت تقول كلاماً مختلفاً، كان ذلك يعذبها فهي تريد أن تكون واحدة منهن لها الحق فى أن تصيب وتخطئ أن تمدح وتلام. أن تسمع منهن الحقيقة أن يتعرفن عليها لا على ماضيها. إنها تعود الآن بعد أن مر أكثر من شهرين على تركها لبيتها، ترى ماذا يقول الناس عنها؟ أخذت سيد أبو حسين الزغابى إلى الجبال، حولته من عمدة للغرب كله إلى طريد. فكرت أن تلوى فرسها وتعود إلى الرجال فهي لا تريد أن تذهب إلى القرية لتواجه عيون الناس هناك، قالت لنفسها إنها لا تعرف أين هم الآن، وليس من المعقول أن تعود إليهم، ماذا تقول لهم؟

مضت فى طريقها إلى القرية وقد تذكرت ما صنع لها سيد أبو حسين فقالت كل شيء يهون من أجله، حتى الأيام التى قضياها بعيداً عن القرية كان لها مذاق خاص. أحببت المغامرة وأحبت روح سيد أبو حسين. إنها لم تتعرف عليها عن قرب إلا هذه الأيام، لقد أصبحا صديقين حميمين، لا تفارقه ليلاً أو نهاراً.

ابتسمت وهى تذكر ليلة قضياها عند صديق لسيد أبو حسين وهو لا يعرف أنها زوجته. فقد خدعت ملابسها الرجل فتصورها من رجاله. وقبيل الفجر كان سيد أبو حسين على صدرها يغيبان فى لحظة حب، أدركت من خلالها معنى أن تكون المرأة زوجة.

نقلتها هذه اللحظة إلى عالم لم تتعرف عليه من قبل، عالم أنوثتها التى كانت تتصور أنها فقدتها فى عالم الرجال، شعرت يومها أنها تحب هذا الرجل وأنها على استعداد أن تمنحه عمرها.

اقتربت من مدخل القرية وقلبها يخفق خوفاً وإشفاقاً من نظرات الناس إليها. دخلت القرية فى الضحى... الناس مشغولون فى الغيطان، قلة من الرجال تجلس فى الطريق تلعب السجّة، بعض النسوة يسرن، الأطفال يلعبون، لا أحد ينظر إليها. يبدو أن أحداً لم يتعرف عليها إلى أن وصلت إلى المنزل. وجدت ابن زوجها يقف أمام الديوان... نادته:
- مهران.

نظر الغلام إليها وهى تنزل من على الفرس، الصوت أليف لديه لكنه لا يعرف صاحبه، تقدم الفتى من رفيقة وقال:

- أيوه يا عم... أى خدمة..؟ اتفضل فى الديوان.

قالت رفيقة:

- خد الفرس يا مهران.

نظر الغلام إليها، تفرس فى وجهها ثم صرخ..

- خاله رفيقة... خاله رفيقة، ثم اتجه نحو الباب وفتحه وصرخ...

- يا أمه.... يا عمه.... خاله رفيقة هنا.

كان صوت الفتى فرحاً سعيداً... هزها.. حركها اقتربت من الباب... احتضن مهران زوجة أبيه. أخذ يقبلها والدموع تتساقط من عينيه، قبلته رفيقة، احتضنته، شعرت بأنها تقبل ابنها، شعرت بحب الأم يشتعل فى ذراعيها وهى تحتضنه. أخذت تبكى.

- أهلاً مهران...

حضرت النسوة وأخذن يقبلن رفيقة، حاولت إحداهن أن تزغرد، أوقفتها فسيد أبو حسين لم يعد إلى منزله ولا يجب أن يعرف أحد أن شيئاً تغير فى بيته.

جلست رفيقة فى حجرتها وكلمة مهران... خالة رفيقة ترن فى أذنها. فهذه أول مرة تسمعها من الغلام، من أى غلام فى هذا البيت. والنسوة وفرحتهن بحضورها أشعرنها فعلاً أنها واحدة منهن وأنها ليست دخيلة عليهن.. ماذا حدث ليتم كل هذا التغيير!!

شغلها أمر، تركت غرفتها، نادت على مهران سألتها:

- مين قايم بأمر العمدية هنا؟

رد الغلام:

- الحكومة رفنت أبويا زى منت عارفه... وعينت بدله جابر أبو عبد الله الرياحى.

- محدش يبقي العمدة فى غياب الزغابى إلا ولده.

نظر الفتى إليها فهو لم يفهم ما تعنى بهذا القول:

- أيوه انت العمدة... نادى لى جابر أبو عبد الله... لا مترحشى انت أبعت حد من هنا يناديه. واقعد انت فى الديوان متتحركش حتى بعد ميجى.

ذهب الغلام إلى الديوان وبقيت رفيقة في حجرتها حتى نادتها إحدى النسوة:
- جابر أبو عبد الله وصل.
- خليه يدخل المندرة.

وقفت رفيقة وقد لبست ملابس سوداء فضفاضة ولفت رأسها بطرحة سوداء، دخلت الحجرة، إنها تعلم أن سيد أبو حسين سيغضب حين يعلم بلقائها للرجل... غضبه عليها أهون من ضياع حقوقه على هذه الأرض.

قام الرجل حين دخلت وحياتها دون أن ينظر إلى وجهها:
- أهلاً حابه رفيقة.
- أهلاً يا شيخ جابر... اتفضل اجلس.

جلس جابر وهو لا يخفى قلقه من أسباب دعوة رفيقة له:
- خير يا حاجة؟
- خير إن شاء الله...

ثم رفعت صوتها:

- أنا عايزه أعرف حكاية العمدية دى.
- يا حاجة هدى... العمدة هنا سيد أبو حسين الزغابى أنا عارف كده...
وأنا مقبلش آخذ مكانه فى وقت زى ده... أنا قبلتها علشان متضيعش مننا... وأنا حسيبها أول ما ييجى.
- لا... أنت حتسيبها دلوقت لمهران.
- إزاي؟
- معرفش إزاي أنا أعرف إنك تبصم بس على كل كلمة يقولها مهران.

نكس عبد الله أبو حسين رأسه وأخذ يضرب بعصاه الأرض. إنه يعلم إن التى تكلمه ليست الغازية رفيقة، هذا كان زمان قبل أن تهرب مع سيد أبو حسين الزغابى ولكنها الآن الحاجة رفيقة الزغابى، والغرب كله يتكلم عن بطولتها وشجاعتها. لقد رفعت مع زوجها رأس الغرب كله، وأن أية محاولة للوقوف ضد هذه المرأة لا تؤمن مغبتها فالبلدة كلها معها. وإغضابها سيحرك الزغابى ولا يأمن أن يدقوا رأسه، وسيد أبو حسين الزغابى لن يتأخر كثيراً فى العودة إلى بلدته، فليجاملها وليجامل الزغابى والغرب كله. فهذا خير له من الصراع الخاسر.

قال بصوت هادئ وهو مازال مطرقا يضرب الأرض بعصاه:

- انت علشان كده بعتالى... ومسيبانى مصالحى... وبتزعقنى يا حاجة رفيقة... العمدة مهران وأنا هنا أبو مهران... ابعتوا لنا على قهوة.
- القهوة مستنيك فى الديوان.

تركت رفيقة الحجرة ونادت على مهران الذى قاد جابر أبو عبد الله إلى الديوان.

نامت رفيقة وقد شعرت أن هذه هى الليلة الأولى التى تحس فيها أن هذا البيت بيتها وأنها واحدة من أهله. كانت سعيدة سعادة يشوبها حزن دافئ على غيبة أبو مهران سيد أبو حسين الزغابى.

كانت الأيام تسير سريعة والأحداث تتكاثر فيها. الشيخ نور الدين والرجال يتجمعون يتكاثرون، يهددون هيئة الحكومة، يخطفون الإنكليز والمعدات والمؤن.

أقالت الحكومة فى القاهرة مدير المديرية واتهمته بالتهاون فى القبض على مسيبي المتاعب فى المديرية على ظهر باخرة كبيرة. وقبل أن تصل الباخرة مدينة قوص، فوجئ الموجودون فى الباخرة بالحراس وقد سقطوا فى النهر ومجموعة من الرجال تقف أمامهم بسرراويلها وقد صوبوا البنادق إلى صدورهم. طلبوا من سائق المركب أن يتجه بها صوب خزام.

وقفت المركب عند الشط الغربى قرب خزام، انطلق الرجال بأسراهم صوب الغار.

لم يمر هذا الحادث ببساطة على الحكومة فتحركت قواتهما قادمة من القاهرة ومنقباد لتتوقف عند البر الغربى قرب خزام وتتجه غرباً فى عمق الجبل، رأى رضا سليمان أحد الرجال المكلفين بمراقبة الطريق... القوات تتجه نحو الغار، أسرع ليبلغ الشيخ نور الدين.

خرج الرجال مسرعين وقد تفرقوا فى الجبل وكان عليهم أن يصدوا هذه القوات.

نظر الشيخ نور الدين إلى السماء، ورفع يديه...

اللهم إنا لا نريد إراقة الدم...

اللهم إنا لا نريد قتل أحد...

اللهم إن ما نرجوه هو أن يتحرر عبادك من ظالمهم..

اللهم حررنا... وانصرنا عليهم... وأمدنا بجند من عندك...

واحفظ رجالك...

ثم أنزل يديه... وأطلق أول رصاصة فانهالت طلقات الرجال على الجنود.. وهم يتراجعون، ثم أخذوا يتفرقون في الجبل... وبدأ واضحاً أن الرجال... قد حوصروا..

طال الحصار... وفي الأيام الثلاثة الأولى انتهى الزاد، فلقد أخطأ نور الدين وصحبه؛ إذ لم يتصوروا أن يقدم أحد عليهم في هذه المنطقة فلم يحتفظوا بيزاد لمدة طويلة.

قال الشيخ نور الدين لنفسه: أخطأت يا نور الدين تحملت مسؤولية رجال لم تحافظ عليهم... تتركهم للموت....

نظر الشيخ نور الدين إلى الشيخ محمد موسى وقال:

- الموقف معقد جداً... الإنجليز ورجالهم مش حسيبوا الجبل قبل منسلم... والرجاله جعانه والجعان ميعرفش يحارب..
- دى مسئوليتى أنا يا نور الدين... الرجاله إن سلمت حتموت، وإن مسلمتش حتموت..
- أنا غلظت... كنا أكثر من مجموعة... دلوقت اتجمعنا فى حتة واحدة..
- مفيش غير حل واحد... نخرج ونضرب أهو إن متنا متنا شهدا وإن عشنا نبقى هزمناهم.
- بالطريقة دى مش حنعيش... ولازم نفكر فى وسيلة تانى..
- مفيش غير معجزة هيه اللى تنقزنا..

أطرق نور الدين ثم قال:

- إحنا مش فى حاجة لمعجزة دلوقت يا شيخ محمد لما العقل يعجز نبقى نفكر فى المعجزة... الإنجليز فى الشرق قدامنا وهمن ميعرفوش حاجه كتير فى الطرق ديه... وقدامنا طريق قبلى واسع... وإحنا مش حنقعد هنا... حنسيبهم ونمشى.

- نمشى إزاي يا نور الدين... دى تبقى هزيمة..
- دى هزيمة ليهم... البلد بلدنا ونتحرك فيها زى محنا عايزين..
- ونسيبهم... تبقى عملنا إيه؟
- مين قال إن إحنا حنسيبهم... إحنا نتوزع جماعات... كل جماعة تقوم بعمل وبكده لو قتلوا جماعه أو مسكوها ميقفش عملنا وإحنا دلوقت مقدمناش غير ينموت ينسلم وهمن عايزين كده... وإحنا لحنموت ولحنسلم إحنا حنروح القرنه... نستخبى فى الجبل فى مقابر جدودنا هناك ونبقى قريبين من الشيخ الطيب وولاده، وده حيسهل لنا الحركة... فيه تلت رجاله هنا يعرفوا الطريق كويس... بصيرى وسيد أبو حسين والمعلم عبد المسيح أبو فهمى.. أنا حجيبيهم لك بس بعد الليل ميليل.

كانت الشمس قد اختفت أمام أعين الرجال فى الهضبة المجاورة. وعندما أخذ الظلام ينتشر فى الأفق قفز نور الدين وأخذ يجرى بين الصخور والرمال محاذراً أن يظهر أى جزء من جسده ولكن يبدو أنه فشل إذ انطلقت رصاصات طائشة نحوه. توقف، أخذ يطلق رصاصات يعلم أنها طائشة، جاوبه زملاؤه بإطلاق الرصاص دون توقف، ترك مكانه وأخذ يجرى حتى وقف عند بصيرى.

- اجر انده العمده سيد والمعلم عبد المسيح وتعالى هناك.

أشار إلى مكان الشيخ محمد موسى.

جرى بصيرى بينما عاد إلى الشيخ محمد والطلقات لا تتوقف.

حضر بصيرى ومعه العمدة سيد والمعلم عبد المسيح إلى الشيخ نور الدين والشيخ محمد موسى...

قال بصيرى:

- فيه حاجة يا شيخ نور...
- شوفوا يا أخوانا إحنا قررنا نسيب المكان ده...
- اهتز سيد أبو حسين...
- نسيبه إزاي... والله...

صرخ نور الدين فيه قبل أن يكمل قسمه:

- متحلفش يا عمدہ... دی ارواح ناس معانا... وفکر کویس.
- إحنا هنا جايين علشان نموت..
- لا إحنا مش جايين علشان نموت.. إحنا جايين علشان نهز الإنكليز ويسيبوا بلدنا... أهو إحنا هزناهم... وأنا متأكد إنه فيه ناس كتير زينا فى بر مصر كله بيعملوا زى مينعمل... يا زغابى الحرب خدعة... ومتبقاش زى جدك الزناتى خليفة... بطل وشجاع لكن ضيع الغرب كله..

هدأ سيد أبو حسين وقال مبتسمًا..

- ماله جدى.. أجدع فارس..
- مقلناش حاجه... إحنا بس حنروح جبل القرنه ونختفى فى مقابر أجداننا هناك... تاخذ رجالتك وتمشى بيهم دلوقت.. وبعد ساعتين حيحصلك بصيرى ومعاه شوية من الرجالة وبعديكم عبد المسيح وبعدين أنا والشيخ محمد حناخذ باقى الرجاله... فيه أى اعتراض؟

قال سيد أبو حسين:

- خلاص مادام أنت شايف كده...
- على بركة الله... المهم الضرب ميسكتش أبدًا...
- غاب الرجال الثلاثة لتجمعوا مع زملائهم بينما تحرك نور الدين ليبلغ بقية الرجال بالقرار...

* * *

ظهر واضحًا قبل بزوغ الفجر بوقت قليل استعداد الشيخ نور الدين والشيخ محمد والجماعة للرحيل...

قال الشيخ محمد:

- نجيب لنكليز م الغار.

رد عليه نور الدين:

- لا حنسيبهم.
- نسيبهم إزاي؟

- دول حىخلوا لنكليز يسكتوا وميطاردوناش... وحيبقو حمل علينا فى السكة... يا شيخ محمد البلد مليانه إنكليز.

هدأ سيد أبو حسين وقال مبتسماً..

- أنا مش مبسوط لكده يا نور الدين.

- معلهش يا شيخ محمد... يلا بينا نتحرك بسرعة قبل الفجر ميبان ويشوفونا وانطلق الرجال مسرعين يخترقون الجبل نحو القرنة..

* * *

مرت أيام على هذه الليلة حين قرر نور الدين أن يجمع أكثر من خمسين رجلاً من الرجال، وأن يضرب ضربته فى ونتر بالاس، قال للشيخ محمد:

- حناخد كل الأجانب من هناك ونعملها مولد والمرة دى يا سعد باشا وعبد المعطى أبو جبريل ييجو يتكون النهاية.

كان الليل فى آخره حين حاصر الرجال ونتر بالاس، دخل معظمهم الفندق وبقى عدد قليل للحراسة إلا أنهم فوجئوا بجنود فى الداخل كما حوَصِرَ الفندق من الخارج، فلقد أدركت قوات الحكومة أن نور الدين لن يترك هذا الفندق دون أن يصنع شيئاً به، دبّرت له كميناً وانتظرت طويلاً حتى جاء بنفسه هذا اليوم، لم تدر معركة بين الرجال وقوات الحكومة فقد عرف نور الدين ورجاله أنهم خسروا المعركة.

نقل الرجال إلى مركز البوليس فى الأقصر، كان المأمور الذى استقبلهم مصرياً، عبس وجهه، وارتفعت صرخاته، ثم سأل:

- فين نور الدين؟

خرج إليه الشيخ نور الدين..

- إنت حتتعدم... عارف يعنى إيه..؟

طلب منه أن يتبعه وهو لا يتوقف عن الصراخ حتى دخل به حجرته، وإذا بالرجل يتغير تماماً... اكتسى وجهه رقة وأخذ يتكلم بحنان:

- إيه ده يا شيخ نور الدين؟... إيه اللى عامله؟.. انت مش عارف أن سعد باشا طلع ليه أسبوع... على كل إنتوا حتسافروا قنا الصبح...

وربنا يعمل إالى فىه الخير... ومش عايزكم تتضايقوا من أى معاملة
سيئة... أنا مش عارف أعمل إيه...؟ سامحنى يا شيخ نور الدين...

خرج نور الدين ليدخل هو وصحبه فى زنزانة البندر.

قال نور الدين:

- يا رجاله سعد باشا وكل اللى معاه رجعوا م المنفى.

هاجت الزنزانة بصرخات الفرح، قال نور الدين:

- بتهيصوا ليه...؟ ما أظنش المسألة انتهت... صدقونى... الإنكليز كفره
ولاد كفره بيلعبوا بيننا.. وأنا عايز أقول حاجة إن قعدنا فى السجن
قعدنا.. وإن خرجنا مش حنسيب السلاح... ودلوقت ناموا لكم شويه.

غير أن نور الدين لم ينم حتى الصباح، فقد كان يفكر فى الكيفية التى يخرج
بها الرجال من السجن ويعودون إلى أسلحتهم حتى يتحرر الوطن. ضاق بتفكيره
فهو لم يجد الوسيلة للهروب من السجن. فتح باب الزنزانة وأطل أكثر من جندى
يسألونهم القيام والتوجه معهم إلى محطة الأقصر..

سار الرجال مقيدون بالسلاسل إلى محطة الأقصر تحت حراسة مشددة، وقد
تجمهر عدد كبير من الأهالى حولهم والحراس يمنعونهم.. وجدوا القطار واقفاً فى
المحطة. صعدوا إليه، وعيون الشيخ نور الدين شاردة تفكر فى مستقبل مصر
ومستقبل الرجال، لم يشعر بالقطار وهو يتحرك. كانت عيناه تخترقان الوادى الذى
يقطعه القطار. الأرض مخضرة... الفلاحون يعملون... لكم يحب الأرض ويحب
الناس.

أفاق لنفسه حين وقف القطار فى محطة قنا، وقد طلب إليهم الحراس أن
ينزلوا... كم كانت دهشته وهو يرى أهالى قنا متجمهرين لاستقبالهم والحراس
يدفعونهم بعيداً، قال الشيخ نور الدين للشيخ محمد:

- والله ده يوم جميل يا شيخ محمد بلدنا فيها ثورة...

ابتسم الشيخ محمد وقال:

- دلوقت بس عرفت إن بلدنا فيها ثورة يا نور الدين... مهو إحنا حطبها.

- يبقى كويس... أهو الحطب بيشتعل..

ذهب الرجال إلى المديرية... كانوا ينتظرون أياماً طويلة. ربما فى ليمان طره وربما فى طوكر فى السودان، وفكرة الهروب بدت مستحيلة لنور الدين. أخذ الجنود نور الدين والرجال، وصنعوا لهم فيش وتشبييه، ثم أوقفوهم صفًا فحكمدار المديرية يريد أن يراهم.

كانت مفاجأة كبرى لهم أن يخبرهم الحكمدار أن السلطات قد قررت العفو عنهم، لأن الثورة انتهت وأنهم سيذهبون إلى بيوتهم وسيوضعون تحت الرقابة لمدة عام، وأن أى شخص منهم يقوم بأى عمل مشبوه سيحاكم وقد يعدم.

ارتفعت أصوات الرجال بالتهليل بينما هتافات شعب قنا المتجمهر خارج المديرية تصل أسماعهم: نموت... نموت وتحيا مصر...

قال نور الدين لنفسه لم نمت ولم تحى مصر بعد... أنا لا أرى شيئاً تغير... فالوجوه الإنكليزية مازالت تحكم مصر...

مر على الرجال... حدد لهم موعداً للقاء فى الكهف بعد أسبوع من عودتهم إلى المنزل.

* * *

ذهب نور الدين إلى الكهف بعد أسبوع من عودته إلى منزله ليجد حصاناً أبيض واقفاً خارج الكهف، عرف الحصان جيداً فهو حصان شيخه الطيب. دخل الكهف مسرعاً، كانت مفاجأة له أن لم يجد أحداً فيه سوى الشيخ الطيب يؤدى الصلاة... قال السلام عليكم ثم وقف وراء شيخه يتبعه فى صلاته.

انتهى الشيخ الطيب من الصلاة بالتسليم ثم قال لنور الدين...

- إزيك يا نور الدين... انت مستنى الرجال؟

- أيوه يابا الشيخ.

- وناوى تعمل إيه...؟

- حنحارب الإنجليز.

- بمين...؟

- بالرجاله.

- طب استنى...

أخذ الشيخ الطيب فى الذكر... تبعه نور الدين... استغرقا زمناً فى الذكر

حتى حانت صلاة العصر. صلى الشيخ الطيب إماماً، وبعد أن فرغاً من الصلاة نظر نور الدين فوجد بصيرى وسيد أبو حسين الزغبى ورفيقة يقفون خلفهما.

قال سيد أبو حسين:

- السلام عليكم.

قبل يد الشيخ الطيب كما قبلها بصيرى، وقفت رفيقة صامته لا تتحرك فقد أصابته الدهشة بالصمت حين رأت الشيخ الطيب. إنها تسمع عنه... وهذه أول مرة تراه... أية منحة يمنحها الله لها لترى هذا القطب العظيم؟

قال الشيخ الطيب:

- اجلسوا... هه يا نور الدين لسه حتحارب...؟

- أيوه يابا الشيخ... ححارب لحد البلد متتحرر من كل أجنبى.

- بمين يا نور الدين؟

أشار نور الدين إلى بصيرى وسيد أبو حسين ورفيقه وقال:

- بدول.

- دول ممكن يموتوا علشانك انت بس.

صمت الشيخ الطيب وقال:

- لم يئن الأوان بعد يا نور الدين... لم يئن الأوان بعد... لا تقم أحبابك

يا نور الدين فيما لا يعرفون واصبر... فالأيام قادمة... سترى فيها

الكثير... يا نور الدين ستأتى أيام على هذا البلد يحكمها من لا يحبها

ويقودها من لا خير فيه... سيأتى يوم يخاف فيه الأب من ابنه ولا يأمن

الابن على نفسه من أبيه... سيخاف السائر فى الطريق ويخاف المقيم

فى بيته... لا أمن ولا أمان... سيصبح الانتساب إلى هذا الوطن عاراً

وسبة يحاربكم الأعداء والأصدقاء... سيقط الناس من رحمة الله

ويظنون ألا مخرج لهم إلا بالموت أو الهرب.. سيضيعون فى الأمم

تتخاطفهم وتستعبدهم... تأكل جهدهم بلا ثمن.. ولكن رحمة الله كبيرة

لن تتركهم... سيعودون صفاً... يقفون جميعاً ليصنعوا الحرية والأمن

بسلحهم... سيصنع أبناء هذه الأرض التى تقف تحتها مالا يتصوره

إنسان... سيهزون الدنيا.... سيكونون رحماء بينهم أشداء على

أعدائهم عندها لن يحكم هذه الأرض إلا من يحبها... رجال ذوو عزم
شديد... ضاع الخوف من قلوبهم... سيمثلون هذه الأرض حرية وأمناً
وحباً... اصبر يا نور الدين اصبر.
بكى نور الدين... ارتفع نسيجه.

- شيوخى.

رفع الشيخ الطيب يده إلى السماء وأخذ فى الدعاء:
- اللهم إني أعلم أن نور الدين حبيب إليك وإلى الناس اللهم قربنى إليك
بحب نور الدين.

مد الشيخ الطيب يده إلى رأس نور الدين المطرقة وقال:
- لن تحتاجنى بعد الآن يا نور الدين ستكون مفتى طريقنا فنحن نحتاج
إليك.

دخلت منيرة بالشأى إلى الحاجة رفيقة فأيقظتها من أفكارها بينما ارتفع
صوت محمود:
- يا أمه خللى عزيزه وريا ييجوا.... يونس ومنوفى عايزينهم.

احتضن منوفى بصيرى حين وجده فى الحجرة، وأخذ يعزیه فى الشيخ، ويسأله عن أحواله وعن السودان.

وقد خرج أبو المجد يونس من الحجرة ليجلس بجوار والده وقد تبعه دياب أبو محمد. عاد محمود إلى الحجرة، وقد أخذت نظراته تنتقل بين بصيرى ومنوفى ويونس دون تركيز، فهو تائه... يبحث عن شيء ضائع فى أعماقه لا يعرف ماهو؟ فراغ فى داخله يشعر أنه يتسع، وكأنه الفراغ الممتد بين السماء والأرض. توقفت نظرات محمود حين سمع صوت ريا فى الصالة تنادى منوفى:

- أيوه يا منوفى.

رد عليها منوفى:

- تعالى يا ريا سلمى على بصيرى.

دخلت ريا وتبعته عزيزة وقف بصيرى ليسلم عليهما... مد يده إلى ريا:

- إزيك ياريا...؟

ثم نظر إلى عزيزة... تركزت نظراته... ظهر على وجهه أنه يعانى... برزت تجاعيد الوجه صارخة حادة... مد يده إلى عزيزة، خرج صوته دافئاً عميقاً:

- مين... عطيات... إزيك؟

ارتبكت الفتاة فهذه هى المرة الثانية التى تنادى باسم غير اسمها، خرجت كلماتها متقطعة:

- أنا... أنا عزيزة يا جد بصيرى.

جلس بصيرى على الكنبة، وكأنما أسقط جسده ثم خرجت منه صيحة:

- مدد يا نور الدين... مدد يا طيب.

ثم غاب بصيرى بعيداً عن حوله.

عاد بذاكرته إلى العام الخامس لنور الدين في القاهرة وقد أخذه معه إلى جبل الميدوب في كردفان ليأتى بالجمال. لولا عطيات ما قبل نور الدين السفر إلى السودان، فرح نور الدين بالرحلة لأنه سيأتى بمهر عطيات، أما بصيرى فقد اطمأنت نفسه، ستكون هذه الرحلة خير رحلاته كلها، وسيعود بالجمال سالمة إلى فرشوط. حدد نور الدين موعدًا للسفر صباح الخميس، لم ينم ليلتها لقد كان على موعد حب مع زوجته.

كان نور الدين متعجلاً الوصول إلى الميدوب، وحين وصل دنقلة كان على بصيرى أن يتوقف فيها ليعد لرحلة طويلة تستمر حوالى شهر. لم يكن أمام نور الدين وجه للاعتراض، مكث في دنقلة يومين في بيت صديق بصيرى وابن عمه على كرار.

أخذ نور الدين يتجول في المدينة في صحبة على كرار، يزور قبور مشايخها. كثيراً ما كان ينظر إلى الجبل يتأمله ويسرح في عطيات وفي أهله وفي الساحة. يقف بجوار النهر ينظر إليه وإلى حركة مائه وقد حاصرته الجبال والصحراء، فبدا كمن يقاوم في سبيل الحياة ليصل إلى مستقره ومقامه الآمن في الشمال. إنه سيمر قرب الساحة حاملاً نفس هذا الماء الذى يراه.

لكم هو عظيم فى مقاومته! وفى استقراره! فهو مستودع السر الإلهى الأعظم.

عاد نور الدين إلى منزل على وقال له:

- جدى أبو أمى محمد عبد الرحيم أبو الشيخ كان قاضى قضاة السودان... مات فيها، سمعنا أنه تزوج سودانية وخلف منها... ياريت أعرف همين فين؟

رد عليه على:

- السودان كبير... مليون ناس من لقصر ونواحيها والحجاجة حتلاقيهم فى أماكن كثيرة فى السودان.
- تعرف لولا ارتباطات كتيرة لى فى مصر لكنك قعدت هنا طول حياتى...
بحس إن النيل والجبل هنا بينادونى.
- أهى كلها بلادك يا نور الدين.

دخل بصيرى وهما يتحادثان فقال وهو يضحك:

- ودى بلاد دى؟

رد نور الدين متجاهلاً تعليقه:

- ليه متعيشش هنا؟

- عايزنى أعيش فى بلاد نم نم.

- والله بلاد حلوة.

لم يكن بصيرى يتصور أن يعيش فى دنقلة... يبدو أن نور الدين كان يقرأ الغيب فقد أصبحت فيما بعد موطنه ويدعو الله أن يسكن فيها جسده.

بعد غروب شمس اليوم التالى صلى نور الدين المغرب، ثم ركب ناقه ربط فى ظهرها ناقه أخرى تحمل الماء والمؤن، كما ركب بصيرى ناقه ربط فى ظهرها جملاً يحمل الخيام.

كانت الرحلة طويلة استغرقت سبعة وثلاثين يوماً حتى وصلا إلى الميدوب.

تعرف خلالها نور الدين على عالم كبير. يذكر بصيرى أن نور الدين قضى معظم وقته فوق ظهر ناقته وهو يسبح لله ويتأمل ملكوته، قال نور الدين لبصيرى: إنه رأى الله فى هذا الطريق.

بصيرى يصدق نور الدين فى كل ما يقول، ليس لديه سبب يمنعه من تصديقه. كان نور الدين رحيماً رقيقاً به، لم يكن نور الدين يعامله بهذه الطريقة من قبل، شعر بصيرى نحو نور الدين بحب الأب.

كانت ميدوب قرية صغيرة، حدثه بصيرى كثيراً عن أهلها، كان نور الدين ينظر إلى وجوه الأهالى، أدرك أن هناك شيئاً مكسوراً فى داخلهم. لقد كان أهالى هذه المنطقة من أكثر الناس اعتزازاً بحريتهم، لم يسلّموا هذه الحرية لأحد، حتى للمهدى نفسه، ثم كسرتهم إنجلترا، كسر الله شوكتها... تمنى لو يستطيع أن يصنع شيئاً لهم، ولكن كيف؟ إنجلترا فى مصر وفى السودان وفى الميدوب.

كان يريد أن يمكث مدة أطول فيها... تذكر عطيات آد يا إلهى... لبيتها كانت معى... لا... فالرحلة شاقة عليها... هذا المكان بداية طيبة للعمل من أجل الله... ولكن فى الشمال مازال هناك أشياء لم تتم... تذكر الساحة وأجداده... قرأ الفاتحة

لهم.. بصيرى يتعجل الرحلة فقد جمع ثلاثمائة وخمسين جملاً قسمهم إلى قافلتين؛ الطريق لا تحتمل مسيرة هذا العدد الكبير من الجمال، استأجر من قبائل العباددة عشرة سواقين من رعاة الإبل وخيبرين للرحلة. جعل على كل قافلة خمسة سواقين وخبيراً، كان اتفاقهم أن يسير نور الدين مع القافلة الأولى بينما يتبعه بصيرى فى القافلة الثانية على مسيرة ساعتين وهى المدة الكافية للراحة فى الطريق، وأن يلتقوا جميعاً حين تشد حرارة الشمس ويصعب المسير تحت أشعتها، كانوا يعقلون الجمال، وينصبون الخيام، ويقومون بإعداد الطعام، ثم ينامون بالتناوب، خوفاً من اللصوص.

مرت أيام عليهم قبل أن يدخلوا جبل العين، توقف نور الدين انتظاراً لبصيرى، فالطريق تبدو وعرة، يصعب التحكم فيها، أخذ نور الدين يتأمل الجبل. إنه يصلح مكاناً طيباً لقطاع الطرق. أدرك الآن جيداً أن شكوكه التى كانت تساوره فى إلحاح بصيرى على اصطحابه فى هذه السفرة لها سبب واضح... العبادى اللئيم اتسرق هنا..

وصل بصيرى، فاستراح الجميع، ثم أخذوا فى المسير قبيل غروب الشمس. كان نور الدين قلقاً على الجمال يخشى عليها الطريق وصعوبته... حاول جهده أن ينظم طابورها فلا تتزاحم فى المنعرج الضيق مما يؤدى إلى إيذاء بعضها البعض.

كان يسير مع الجمال وقد ترجل عن جملة يتابع حركتها بنفسه، حين أخذت السحب تتجمع وتتراكم ويسود لونها، بدأت أصوات الرعد تنذر بمطر غزير، لن تستطيع الجمال أن تسير فى هذه الأمطار، فى هذا المنعرج الضيق.

قاد الجمال نحو منحنى ظاهر فى الجبل، أخذ يعقل مع الرجال الجمال بينما لم تمهلهم الأمطار حتى ينتهوا فأخذت تسقط بغزارة.

توقفت الأمطار عن السقوط وأخذت السحب تنفث. قرر أن ينتظر حضور بصيرى، مر عليه أكثر من ساعتين، لم يظهر بصيرى فى الأفق، ركب ناقته وانطلق مسرعاً فى اتجاه قافلة بصيرى، سار بناقته أكثر من ساعتين ليجد بصيرى ورجاله مقيدين من أرجلهم وأيديهم مطروحين على الأرض وقد اختفت الجمال كلها. لقد صنعها الهباتا، سراق الجمال.

لم ينتظر نور الدين وصول ناقته، تركها وانطلق يجرى نحو بصيرى وقد

أخذته المفاجأة، صرخ نور الدين:
- إيه اللي عمل فيك كده؟

كان بصيرى يبدو مهزوماً، آلمت نظراته نور الدين فتغير وجهه ولبس لباس الأسد، صرخ وهو يفك وثاقه:
- مين الكلب اللي عمل فيك كده؟

كان الغضب قد أخذ من نور الدين كل مأخذ وهو يرى صديقه مسلوب الإرادة عاجزاً وقد فقد قافلته، أخذ يفك وثاق بقية الرعاة دون أن يغادره الغضب.

قال نور الدين لبصيرى:

- همن مشيوا إزاي؟

أشار بصيرى إلى الطريق الذى سار فيه اللصوص أمسك نور الدين برقبة ناقته بيد وبعصاه باليد الأخرى وقفز على ظهرها، وجهها إلى الطريق الذى أشار إليه بصيرى.

جرى بصيرى مع الناقة وهو يصرخ على نور الدين:

- بلاش تروح ورا الهمباتا دول كتار قوى ومش حتقدر عليهم..

كانت ناقة نور الدين تجرى وبصيرى لا يتوقف عن العدو وراءها.

- بلاش يا خوى بلاش تودى نفسك فى داهية.

رد نور الدين عليه بصوت جاف قاس:

- اسمع يا بصيرى.. انتو مش حتقفوا امش بالجمال ببطء.. وإذا ما جتش بعد يوم متستنايش.. ربنا يدلنى عليهم.

أرخصى نور الدين اللجام لناقته ولكزها بعصاه فأخذت تجرى حتى عجز بصيرى عن اللحاق بها فتوقف وقد ظهر عليه حزن عميق.

أخذ ضمير بصيرى يؤنبه على إحضاره نور الدين فى مغامرة بهذه المنطقة الموحشة.. لقد كانت أنانية منه أن يأتى به إلى هنا.

وقف بصيرى حائراً وقد عاد إلى رجاله، فأخذ ينظر إليهم لا يدرى ما يصنع لقد أخذته المفاجأة.. فوجئ باللصوص يرفعون بنادقهم وراء ظهره وظهر رجاله، والأمطار تسقط بغزارة، لم يكن يدرى ما يفعل فاستسلم لهم.

كانت لحظة مؤلمة وهو يرى جمال والده تغتصب منه، ولا يستطيع حراكاً فقد قيده اللصوص قيداً يصعب فكه. هذه ثانی مرة يحدث له ذلك، ما الذى حدث لكردفان؟ منذ أن دخلها الإنجليز لم تعد مكاناً آمناً، تذكر نور الدين فربما أخذوا منه الجمال، معنى ذلك أنهم جميعاً هالكون إن لم تنقذهم قافلة قادمة.

القيد يرهقه... الشعور بالهزيمة... مرارة الاغتصاب تجتاحه... تملكه الشعور بالحقد والعجز معاً. مشاعر تكفى لكسر الإنسان من داخله لقتله.. حتى صديقه الذى جاء به لينقذه سيموت حتماً.

استعاد بذاكرته صورة الشيخ الطيب.. الضرير المبصر الذى يرى الحقيقة.. لقد رآه يقدم لنور الدين ثلاث مرات بلا قائد يقوده. إنه يعلم إنه لم يأت لنور الدين بجسده فقد كان قابلاً فى القرنة أما روح الشيخ الطيب فهى التى تحركت مسرعة لتأخذ بيد نور الدين حين عجز عن صنع شىء له.

لقد كان قبساً من نور يتحرك.. ترى هل يأتى له الآن من ينقذه وينقذ نور الدين؟ صرخ وهو يحاول أن يحرك قدميه ويديه الموثقتين:
- يا طيب... يا طيب... الحقنى والحق نور الدين حنموت هنا فى الصحراء... حنموت... يا رب الحقنا...

لم تأت النجدة من السماء لبصيرى ورجاله... حاول أن يتدحرج بجسده تجاه أصحابه لعله يستطيع أن يفك وثاق أحدهم بأسنانه ولكن المحاولة باءت بالفشل. فاللصوص عليهم لعنة الله قد أحكموا الوثاق.

استسلم بصيرى لقدره، فالسما والشيخ الطيب لن ينقذا رجلاً عاصياً مثل بصيرى.

نظر إلى السماء، أخذ يدعو الله فى حنان الخائف الضائع المرتجى أملاً:
- يارب... أنقذنا... يا شيخ يا طيب متسبيناش... يا رب... أنا عاصى بس مؤمن بيك وبحبك وإذا خرجتنى من الضيقة دى ونجتنى حتوب ومش حعصيك أبداً.

جاءته صورة جليلة حاول أن يطردها وهو يقول فى نفسه هو ده وقته يا بنت الأبالسة.

لم يأت الفرج لبصيرى، أخذ ينظر إلى الرجال وهم يحاولون الحركة. إنه متأكد أن كلاً منهم يخاطب ربه على طريقته، وهذا حقهم فلن يطول الوقت حتى يلتقوا به.

حبس بصيرى صرخته حين رأى شبحاً قادمًا من بعيد، لقد جاء الفرج. كان بصيرى متأكدًا أنه نور الدين، أغمض عينيه حتى لا تقع عليه. إنه يشعر بالحياء منه.. لقد أوقعه فى هذا المحذور ولم يقل له الحقيقة وهو يلح عليه فى الحضور إلى السودان. إنها خيانة منه، ترى هل يقبل فيها نور الدين عذره؟ كان قلب بصيرى يتمزق وهو يرى وجه نور الدين وقد اكتسى لبدة الأسد والغضب يملأه على اللصوص لقد أدرك بصيرى جيداً حب نور الدين له... إنه لا يستحقه، والآن يمضى بعيداً عنه يغيب فى منحدرات الجبل، ليواجه مغامرة أكبر منه؛ فهذا الجبل تيه لا تعرف دروبه ومنحنياته، يستطيع أى لص أن يخفى مئات الجمال دون أن يراه أحد، والهمباتا هنا عصابة. يكونون دولة فى هذا الجبل لا يستطيع أحد اقتحامها، والحكومة المركزية فى العاصمة لا تفكر فى تطهيرها.

أخذ بصيرى يفكر ويفكر... هل يذهب إلى الجبل برجاله... إنهم لن يستطيعوا صنع شيء... لقد غاب نور الدين ولن يستطيعوا حتى العثور عليه. شعر بضرورة أن يستمع لنصح نور الدين فيأخذ الجمال ويسير بها فى الوادى ببطء مسيرة يوم كامل.

أخذ القلق بصيرى، شعر بأن جسده وروحه ينهدان، فنور الدين لم يأت، وقد انتهى اليوم.

لقد طلب منه نور الدين ألا يتوقف ويسرع فى السير إذا لم يأت، أجراس تدق فى رأسه، ماذا حدث لنور الدين؟ هل مات؟ كيف لم يفكر فى الأمر قبل ذلك؟ هل يستطيع نور الدين أن يقف بمفرده أمام شياطين هذا الجبل؟

إنه قلق، لا تجد أسئلته إجابة عليها فى داخله، توقف، رأى الوادى يتسع، سار ببعيره يتقدم القافلة، حتى وصل إلى أكبر اتساع للوادى، صد الجمال لتقف. صرخ فى رجاله:

- حنقف هنا يا رجاله، أنا مش ماشى إلا إذا جه نور الدين.

أخذ الرجال يعقلون الجمال، تركهم وعاد ببعيره من حيث جاء.

قرر ألا يترك نور الدين وحده. إنه يعلم أن زمناً طويلاً قد مر على نور الدين منذ تركه، وقد يكون انتهى أو استطاع أن يتغلب على اللصوص - وهذا مستحيل - فكرة نهاية نور الدين لم توقفه عن المسير فإنه لن يهرب بالجمال ويترك ثأر أعز الناس إلى قلبه. سيموت في المكان الذي مات فيه نور الدين ولكن ليس قبل أن يقتل الكثيرين منهم.

عضلات وجهه تتقلص، جسده يرتعش، العرق يتصبب من جبهته وقد بل عرق الجسد ملابسه، أخذ يحرك سوطه فوق رقبة البعير وظهره. إن على البعير أن يعدو، أن يجرى فربما كان هناك أمل في الوقوف بجوار نور الدين. صرخ لنفسه: آه ما أجبنك يا بصيري، تأتي بصديقك إلى هذه الأرض وتتركه يموت وحيداً.

لم يخذل البعير بصيري فقد أخذ يعدو وكأنه يعرف هدف صاحبه.

الأسلم يرهق بصيري وهو يذكر كيف دفع صاحبه للحضور إلى هنا، كانت خدعة منه، فهو لم يقل له عندما ذهب إليه في القاهرة أن قطاع الطرق قد سرقوا جماله. اغتتم فرصة حاجة نور الدين للمال وهو الآن يحرمه من المرأة الوحيدة التي أحبها... إن فعله بصديقه شنيع وفظيع سيحكيه الرواة على أنه خيانة صديق لصديقه.

غابت الشمس ثم ساد الظلام الأفق، وهذأت الحرارة قليلاً وإذا بالجمال يقف فقد أنهك تماماً. مرت عليه عشر ساعات وهو لم يتوقف عن العدو، سحبه إلى ناحية بالجبل وتركه يرعى بعض نباتات الصيف، برك الجمل، فاغتاظ بصيري فالجمال لن يأكل إنه يعلم بصبره على الجوع، ولكن العشب الريان سيريح من جسده المتعب، فأخذ يجمع الأعشاب ويقربها من الجمل، ثم جلس بجواره وألقى بجسده على الأرض المخضرة بالعشب يراقب الجمل عله يقف دون أن يدفعه لذلك مرت عليه ساعتان ثقيلتان والجمال لا يقف.

سحب خطامه بقوة وسار به في الطريق ثم مد يده وأمسك برقبتة وقفز على ظهره.

كان الظلام حالاً ولكن عينا بصيري استطاعتا أن تتبيننا غباراً وأن تتسمع

أذنه أصواتًا أقدام قافلة قادمة من بعيد. لن يستطيع أن يسير فى الطريق مقتحمًا القافلة، عليه أن ينتظر مسيرها، وقف على جانب الطريق ليفسح للجمال.

اقتربت الجمال من بصيرى. صوت حركتها وثقل الغبار يؤكد أنها ليست قافلة عادية. فإن أحدًا لا يستطيع أن يسير فى هذا الطريق باكثر من مائة وخمسة وسبعين جملًا.

بدأ بصيرى يتبين القافلة فى الظلام. إنها أكبر بكثير مما يحتمل الطريق. صوت آخر قادم من الخلف يشد انتباه بصيرى.. وجه نظره، رأى ناقةً تقدم مسرعة نحوه.. أمعن النظر بعينيه إلى القادم. لم يكن من السهل عليه أن يتعرف عليه وحين اقترب أدرك إنه بشير ود صالح رفيق نور الدين فى قافلته، ناداه بصيرى أن يتقدم ويفسح الطريق للقافلة القادمة وقف بجواره. قال بصيرى:

- شنو جابك؟

لم يرد بشير، ولم يكن بصيرى فى حاجة إلى أن يستمع لرد منه. كانت هذه أول رحلة لبشير فى هذا الطريق لقد بلغ السادسة عشر من عمره، فطلب والده من بصيرى أن يأخذه، سواقا فى القافلة.

لزم بشير نور الدين طوال الرحلة، تعلم منه الكثير، فتح له آفاقا من المعرفة لم تكن تتاح له لو لم يصاحب نور الدين. الغريب أنه سمع فى صغره أن أهل الشمال ضعاف عجرة، منعمون لا يستطيع الواحد منهم أن يركب جملًا أو يسير فى قافلة، إنهم فراعنة - قساة القلوب إن قدروا.

تعلم من نور الدين أن يستمع ولا يصدق غير عقله. عرف منه كيف تكون الرحمة من الكبير للصغير ومن الإنسان للحيوان.

لقد أحبه فى هذه المدة القصيرة حبًا يجعله فى مرتبة أبيه. كان لا يناديه إلا بياعم، وكان نور الدين يحب أن يستمع إلى كلمة عم منه.

شعر بشير بالآلم لغيبة نور الدين وتمنى أن يصنع شيئًا له، إن نور الدين على علمه الكبير لا يعرف هذا الجبل ولصوصه، لو عرف أنه يريد أن يطارد اللصوص لأوقفه، مضى فى الرحلة مع بصيرى ساكنًا حزينًا قلقًا على نور الدين، وعندما رأى بصيرى يلوى خطام ناقته ويبتعد عن القافلة، شعر أنه أولى من

بصيرى فى الدفاع عن نور الدين فترك زملاءه وأخذ يعدو بناقته ليصل إلى بصيرى، ولقد وصل إليه وهو لا يعرف ماذا سيصنعان بعد أن تمر القافلة.

قال بشير:

- دى كتير على قافلة واحدة.

لم يسمع بصيرى ما يقول فقد كان مشغولاً عنه مركزاً نظره على القافلة يتابعها، صرخ بحدة:

- يا بشير عندى إحساس أن نور الدين فى القافلة.. ركز معاى.

نزل من فوق ناقته وسار تجاه القافلة بقدميه، لمحت عيناه عن بعد راعياً يتحرك مسرعاً غرباً وشرقاً، تسمر لحظة ثم انطلق يجرى نحو الراعى. إنه نور الدين.

- يا نور الدين... يا نور الدين.

نظر إليه نور الدين، وأخذ يجرى نحوه:

- مين بصيرى...؟

تعانق الرجلان، والجمال تتابع طريقها، سأله بصيرى بلهفة:

- قل لى... حصل إيه؟ حصل إيه؟

- بعدين أقولك... دلوقت خلى بالك من الجمال معاى.

* * *

ظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود وبدأ النور يدفع الظلام.

ترك نور الدين القافلة لبصيرى وتوقف ليصلى، سارت الجمال ببطء، حتى ينتهى نور الدين من صلاته ليسرع بها إلى قافلتهم المنتظرة.

هال بصيرى كثرة الجمال التى جاء بها نور الدين. إنها أكثر بكثير من جمال قافلته المسروقة، دفعه حب الاستطلاع إلى أن يعدها.

أدرك بصيرى إنه جاء بها وبنفس الجمال التى سرقت منه فى المرة السابقة وتزيد عنها أربعين جملاً من أبنائها الذين ولدوا طوال غيبتها.

ماذا حدث فى هذا الكون؟ كيف استطاع أن يأتى بها كلها دون أن تنقص واحدة، بل زادت وامتألت.

تبدو على نور الدين حركة الهارب وكأنه لم يدخل معركة، يقترب منه نور الدين فقد انتهى من صلاته، وأسرع نحو القافلة وجد بشير يتابع نظام الجمال، صرخ نور الدين:

- شنو حالك يا بشير؟

رآه بشير فأخذ يجرى نحوه، ارتدى نور الدين سريعاً على رقبة نافقته، وما إن أمسك بها حتى قفز على الأرض، ضم بشير الذى أخذ يبكى، قال له نور الدين:

- متدمعشى... أنا جيت، ومحصلشى حاجة.

واقترب نور الدين من بصيرى، وتحادثا فى ضرورة تقسيم الرجال عليها، والإسراع بالمسير حتى يعبروا الجبل، كأن بصيرى يعرف أن عدد الرجال لا يكفى ولكن لا خيار له حتى يصل إلى دنقلة، ويؤجر عددًا من الرعاة ليأخذوا معه القافلة إلى فرشوط، قال بصيرى:

- الرحلة حتبقي صعبة بالعدد ده.

سكت نور الدين ولم يرد عليه، فقد وصل إلى مسمعه صوت بشير ود صالح يحدو للجمال:

السفر داير لو راي وبصاره
وبندقيته والعفش لاي ساره
وجملاً ساوى صبيًا فنجرى
وايداً ما بتخون الجارة.
الخلا من قبحته وسيسو المطرح فوده
وداير لو صبي وكلسن قوايا زنوده
يكون طيب مع الاخوان ميتين ميعوده
طول باله ودكارته وجوده.

* * *

بدأت التلال المؤدية لدنقلة تظهر بوضوح لبصيرى فتملكه شعور بالراحة.
فصرخ بفرح:

- وصلنا بالسلامة يا رجاله.

وقبل أن يدخل الطريق المؤدى للنهر من بين التلال كانت الشمس قد غربت.

سارت الجمال يوجهها بصيرى ورجاله نحو النهر حتى وصلت إليه، وقد أخذ القمر ينشر أشعته فى الأفق. همت الجمال إلى الماء وأخذت تشرب فقد مر عليها أكثر من عشرة أيام دون ماء.

نظر بصيرى إلى النهر وقد عكرت الجمال مياهه، وانعكاسات ضوء القمر تلون المياه بالذهب والفضة، اقترب من الماء أراد أن يخلع ملابسه ليستحم فى النهر توقف، شىء ما يمنعه من دخول النهر... ليس الخوف ولكنها رهبة تقتحمه تصده عن النهر، تراجع... توقف خلف الجمال رمى بجسده على الأرض وحاول أن ينام، لكنه لم يتم فقد أخذت القوافل تقدم تباعا ولم تبق إلا قافلة نور الدين. أخذ بصيرى ينظر إلى القمر ويتابع بعينه النجوم وضوءها الباهت. توقفت نظراته ناحية الشرق قرب الجبل عند دائرة من النجوم يقف على بعد قريب منها نجم ذو ذنب يشع ضوءه، ولا يستطيع ضوء القمر أن يخفيه، استرعى انتباهه المنظر، فأخذ يتأمله، لم يتوقف إلا حين قدمت قافلة نور الدين. تحركت جمال القافلة نحو النهر، انطلق نور الدين إلى النهر، خلع ملابسه وارتمى فيه وأخذ فى السباحة. وقف بصيرى ينظر إلى نور الدين فوجده اختفى فى الماء، تذكر حين كانا طفلين يتسابقان فى العوم، حاول أن ينزل النهر ولكنه لم يستطع، ارتجف بصيرى وهو يرى تمساحاً يبدو ظهره الأسود يخترق الماء ناحية الشرق، التمساح قفز، رآه كله، خاف على نور الدين، توقف. وجد نور الدين يقفز مكان التمساح ثم يعود ثانية إلى الشط.

* * *

مر اليوم الثالث عشر منذ ترك نور الدين وبصيرى دنقلة. وقد سارا فى الصحراء، توقفا خمس مرات على النهر، استراحا فيها واستراحت الجمال. وكانت آخر وقفتهم فى إسنا، انطلقوا منها فى اتجاه فرشوط.

كانت حركتهم سريعة، أراد بصيرى أن يقطع المسافة بين إسنا وفرشوط فى أقل من يوم كامل. إلا أنهم ما أن غادروا إسنا فى عصر اليوم الرابع عشر حتى أخذت ناقة فى قافلة بصيرى تصرخ من ألم الطلق، توقف بصيرى حتى تلد الناقة. وصلت القوافل الباقية إليه فوجدته فى انتظار وضع الناقة، ذهب نور الدين إلى الناقة وأخذ يقوم بتوليدها. خرجت رأس القاعود فى يد نور الدين وقد أخذ يسحبه

حتى خرج حوارها، أراد بصيرى أن يأخذ الناقة معه ويترك طفلها فى الصحراء. كانت الناقة تصرخ، وبصيرى والرجال يسحبانها بعيداً، وإذا بنور الدين يجرى نحوهم ويدفع بصيرى بعيداً:

- سيب الناقة يا بصيرى... احنا مش حناخدها معانا.
 - واسيبها ليه؟
 - يا راجل خلى عندك رحمة... تاخذ أم من ابنها... سيبها زكة عن مالك.
 - سيبها وأنا أدفع تمنها لعل الله يجد لها مخرجاً.
 - بتقول إيه يا نور الدين آخذ تمنها... فداك الجمال دى كلها...
- وسار بصيرى بقافلته تاركاً الناقة مع رضيعها.

كانت الشمس فى طريقها للمغرب فى الجبل وقافلة بصيرى لم تبتعد كثيراً عن نور الدين حتى بدأت الرياح قادمة من الجنوب تهب حاملة معها رمال الصحراء. أدرك نور الدين من القوة التى تحمل بها الرياح الرمال أن هذه بداية عاصفة قوية. توقف وتوقف بصيرى، طلب نور الدين من الرجل أن يقتربوا من الجبل وأن يدخلوا فى أقرب ممر حتى يجعلوا من الجبل حائطاً يحميهم من الرياح ويجعلهم قادرين على التحكم فى الجمال.

أسرع نور الدين إلى بصيرى يطلب منه أن يتجه بالجمال نحو الجبل ثم عاد إلى الجمال، وقد ترك ناقته وأخذ يقود مع الرجال الجمال التى أخذت فى الرغاء.

لم يمض وقت طويل على حركتهم هذه حتى وجدوا المدخل للجبل فأخذت الجمال تمر تحت رعاية شديدة منهم، توقفوا عند هضبة متسعة قرب انحدار الجبل وأخذوا فى عقل الجمال.

استمرت العاصفة طويلاً وقد دخل الليل، وبدا واضحاً أنهم سيقضون الليل فى هذا المكان قبل أن تتوقف العاصفة.

ولكن العاصفة توقفت، تحرك بصيرى ليفك الجمال نادى على نور الدين . لم يجده، سأل عنه الرجال، قال له بشير ود صلاح إنه سار فوق التبة المجاورة وأختفى فى الجبل. لم يفك بصيرى الجمال، وقف ينتظر عودة نور الدين، جلس على الأرض، أخذ يلعب بأصابعه فى الرمل. إنه قلق يريد أن يعود، وأن يسلم

الجمال ويذهب إلى القاهرة ليتمتع بنسائها... كانت هذه الرحلة مليئة بالأحداث... تذكر جليلة... تأوه... التوبة صعبة... كيف يتوب وفي الدنيا نساء جميلات؟ إن الله غفور رحيم.

أفاق من أفكاره على صوت نور الدين يناديه:
- يا بصيرى... ده إحنا قرب خزام.. تعال أنا لقيت كهف فيه بير ميتها زلال.

- يا نور الدين مفيش وقت.. تعالى بسرعة عايزين نمشى.

أدار نور الدين ظهره له وسار حتى اختفى عن ناظره.

امتلاً بصيرى غيظاً من نور الدين، فليس هذا وقت تأملات، تحرك حول الجمال ثم سار بعيداً وأخذ ينظر إلى النجوم يتأملها... منظرها الليلة غريب... ضوءها ساطع سطوع لآلىء قريبة من ضوء شمس الظهيرة فى الصحراء... طال تأمل بصيرى فى النجوم... توقف عند النجم ذو الذنب... رآه يتوهج، كبر الوهج... تحرك النجم حركة واضحة.

اقترب النجم ذو الذنب من دائرة النجوم... دخل النجم الدائرة... احتل مكانه وسطها توقف... استقر... بدا أن هذا هو مكان النجم الطبيعى...

شعر بصيرى أن شيئاً يشد وجهه. يدفعه إلى الالتفات فوق الجبل، رأى نور الدين واقفاً يتابع النجم ينظر إلى استقراره.

نقل بصيرى ناظريه بين نور الدين وبين النجم، النجم فى السماء ونور الدين بجلبابه الأبيض فوق الجبل... انسحب قلبه... توقفت نظرتة عند نور الدين رأى شعاعاً يسقط على الأرض ينزل على رأس نور الدين، ثم أخذت الأشعة تتساقط لتلفه فى دائرة من نور... لم يعد بصيرى يرى غير النور. أدرك أن هذا نجم نور الدين يستقر فى مكانه. شعر بدفع يسرى فى أوصاله... فهذا صديقه نور الدين... إنه يعرف... يعرف... ولكنه الآن يؤمن، استطاع أن يخرج بعد جهد صحيحة:

- شهدنا لك يا نور الدين... شهدنا لك يا شيخ نور الدين.

فوجئ بصيرى بالضوء يختفى تماماً ويظهر نور الدين نازلاً من الجبل وهو يقول بصوت مرتفع:

- إيه فيه يا بصيرى؟

ندم بصيرى على أن قطع الصمت وتسبب فى اختفاء الضوء، ولكن ذلك لم يمنع بصيرى من أن يقفز ويصرخ صرخات الفرح:
- شهدنا لك يانجم.. شهدنا لك يا شيخ نور الدين.

كان نور الدين يسير هادئاً فى اتجاه بصيرى، الذى لم يتوقف عن القفز وإطلاق صيحاته. كان بصيرى يقترب من أحد الجمال، فأخرج خنجراً وقفز فوق رقبة جمل معقول، ونحر الجمل فيما بين الرقبة والترقوة، وقفز عنه وهو يسقط مدرجاً فى دمانه على الأرض. وابتعد عن الجمل. نظر الرجال إلى بصيرى. وهو يفعل ذلك. اقتربوا منه.

قال بصيرى وعيناه تشعان بضوء فرح:
- مش حنساقر الليلة.

كان نور الدين قد وصل إلى بصيرى وسأله:
- إيه اللي بتعمله ده يا بصيرى؟ انت اتجنيت.
- قول اللي تقوله يا شيخ نور الدين. الليلة ليلتك حنسه ونغنى ونرقص.. ده نجمك يا شيخ نور الدين.
بدا على نور الدين أنه لم يفهم فقال بعتاب:
- ليه بتعمل كده؟
- حتعمل مش فاهم.. أنا عارفك.. كتوم.. وصاحب أسرار.
- أنا مش فاهم حاجة.. ليه بتعمل كده.. ونجم إيه.. دى أول مرة بتنادينى بشيخ نور الدين.. إيه اللي حصل.

لم يجاوبه بصيرى فقد جاء الرجال وأحاطوا بنور الدين وأخذوا يغنون ويرقصون وصوت بشير ود صالح يرتفع وكأنما يريد لصوته أن يصل للنجم، ثم أخذوا فى إعداد الجمل للشواء.

وبعد أن أكلوا عادوا للغناء والرقص وإذا بالشيخ نور الدين يدخل دائرة الرقص. يقف ويحنى رأسه وصوته الحنون يرتفع، يجاوبه الرجال:

يا نفسى كفى عن سوى مولاك

يا نفسى كفى فالهوى أرداك

وقد أخذ الرجال فى الذكر يرفعون أصواتهم خلفه حى.. حى.. حى..

ظلوا طوال الليل يتنقلون بين الغناء والرقص والذكر حتى ظهر ضوء النهار. توقفوا، فكوا عقال الجمال. ساروا فى الطريق إلى فرشوط، وعينا بصيرى ملتصقة بالنجم. لقد رآه بصيرى منذ أربعة أيام يغيب كما رآه يولد فأدرك أن صديقه قد مات.

* * *

أفاق بصيرى على صوت منوفى يقول:

- نستأذن يا بصيرى.

وقف بصيرى ليسلم على منوفى ويونس، سلم على عزيزة، أمسك بيديها. أخذ ينظر إليها، ومحمود يعين النظر فى وجه بصيرى. عيون هذا الرجل عيون صقر لم يضعفهما الزمن، هذه حنان نظرتة لعزيزة كأنه يعود بها إلى زمن بعيد. خرج منوفى ويونس وعزيزة، وجلس بصيرى وغاب ثانية فقد أعادته عزيزة إلى عطيات.

تذكر بصيرى فرحة الشيخ نور الدين وهو يعود إلى القاهرة ولهفته ليراها، ثم عودة بصيرى ليجد نور الدين يعيش عذاباً لم يعيشه إنسان.

لقد أدرك بصيرى أن الشيطان قد قتل عطيات ليختبر الشيخ نور الدين. كان الاختبار صعباً... أراد أن يحرمه من حب يستحقه ليسقط نجمة، أخذت الدموع تتساقط من عيني بصيرى ومحمود يراقبه، ثم ارتفع صوته بنشيج مخموم:

يا خوى..

غادر محمود الحجرة فهو يريد لبصيرى أن يعيش لحظة حزنه على صديقه بمفرده.

كان الشيخ يونس يتمم بورده، وقد جلس الحاج حجاجى وأبو المجد ودياب على دكة واحدة، حين وصل إلى سمعهم صوت نشيج بصيرى.

جلس محمود بجوار عمه يونس وقد تحرك دياب يريد أن يذهب لبصيرى ليهده، أوقفه الحاج:

- سيبه وحده.. البكا ساعات بيكون ضرورة.

عاد دياب إلى جلسته، تسبح أفكار محمود فى بصيرى... الحاج حجاجى... الشيخ نور الدين... شعر بوحدة... لقد مات نور الدين... ما أكثر الناس الذين يعرفون نور الدين أما هو... فإنه يتحول بالنسبة له إلى سر من الأسرار. غير أن هذا السر مات مع صاحبه، اختفى إلى الأبد... تحول إلى خيال لا وجود له، لن يعود... لن يتكرر... هذا صعب شعر بالاختناق... لقد عاش اثنين وعشرين عاماً هى كل عمره فى ظلال رجل ينظر إليه مبهوراً وهو يشعر بالعجز تجاهه، أيقظه الحاج حجاجى وهو يقول له:

- محمود... خليها على الله... سلمها الله...

هل قرأ أخوه أفكاره... هل يعرفه أخوه كما كان الشيخ نور الدين يعرفه... لأ... فنور الدين لن يتكرر.

تحرك من مكانه ومضى يسير فى نفس الطريق الذى كان والده يقطعه نحو النيل حتى وصل إلى الجبانة القديمة، وجد الحكومة قد وضعت حاجزاً من السلك يمنع الناس من الدخول... حاول أن يتخطى الحاجز، فنهزه خفير الآثار... لقد بدأت الحفريات بحثاً عن طريق الكباش... حول مشيته نحو طريق آخر، أخذ ينظر إلى أطلال الساحة، فقد بدأت الحفريات تحتها بحثاً عن المعبد... سويت أرضها بأرضية المعبد... انتابته رغبة فى أن يقتحم الأطلال... تخطى الحاجز السلكى... وقف فوق الأطلال. وجد بقايا حجارة مذبح الكنيسة القديمة... كانت هنا كنيسة

قديمة تهدمت... سار فوق الأحجار... وجد بقايا تماثيل... كان هنا جزء من معبد
مصرى قديم هُذَّ هو أيضاً... معبد... كنيسة... ساحة... هدت جميعها... اهتز
عقله... مصلحة الآثار ترمم المعبد. ترى أهو الأصل؟ فمن يرمم الكنيسة؟ ومن
يرمم الساحة؟... اهتز قلبه... وقف أمام وجه تمثال ضخم... أخذ يتبينه على
أشعة الضوء المنعكس عن مصابيح مئذنة أبى الحجاج... وقف أمام الوجه لا بد
أنه الملك الإله الفرعونى فى الساحة... اهتز جسده فقد أدرك أنه يقف أمام وجه
نور الدين... لقد كان هنا فى المعبد كما كان فى الساحة، ولا بد أنه كان فى
الكنيسة... كاهناً... أنبا... شيخاً.

تذكر أنه مات هنا من أجل الساحة... تذكر... فهم الآن لماذا كان أول معول
يضرب فى جدران الساحة هو معول نور الدين... لقد رآه بعينه كما رآه كل أهل
الأقصر... تجمع الناس أمام الساحة يوم هدها سمعوا صوتاً يصرخ:
- لا أستطيع.

كان هذا صوت أحد العمال المكلفين بهدم الساحة... توقف العمال لا يجرؤ
أحدهم على أن يضرب بمعوله الضربة الأولى فى الجدار. الخوف والرغبة
تمنعهم... تعالى ضجيج الناس فى الخارج... ارتفع صوت بين الضجيج الله
أكبر... الله أكبر... تتردد الكلمة... يسمع نور الدين الضجيج فيتجه نحو الساحة
ليعرف ما حدث... صعد درج الساحة... توقف فوق سطحها... نظر إلى الناس
من عل... أدرك الآن أنها لحظته... إنه يستطيع أن يواجه السلطة ويمنع هدم
الساحة... إنها لحظته... طيف الشيخ الطيب يتحرك نحوه... نقل ناظره بين
الطيف والناس... معظمهم من الشيوخ... سيحاربون فى سبيل الساحة سيموتون
من أجل الساحة... أه ستعبد الساحة... وضع يديه على وجهه... غاب...
صرخ... خرجت كلمات مكتومة.

- يا شيخى... يا شيخى... يا شيخى... ألم ينن الأوان؟... متى يأتى
الوقت؟ نزل يديه من على وجهه... استدار... اتجه نحو عامل من
العمال أمسك بالفأس وكأنه يريد أن يعصرها وهو يدعو ربه.
- اللهم امنحهم خيراً منها.

وأخذ يضرب فى الجدار الضربة الأولى وكأنه يضرب فى روحه.
ترك التمثال ليجد نفسه أمام جسد إله فى نعومة وصفاء جسد نور الدين

حين خرج من النيل، هناك كان نور الدين كما كان هنا... ترى أين هو الآن.

شعر بأن عليه أن يغادر الأطلال سار تجاه السلك تخطاه... حول مشيته نحو طريق آخر حتى وصل إلى شاطئ النهر، وجد حفراً فى الشارع أدرك أن بناءً جديداً سيأخذ فى الارتفاع فندقاً جديداً للسائحين... فالحكومة قد منعت الأهالى من بناء مساكن على النيل... قصرت الشارع على الفنادق السياحية ليتمتع القادمون بجمال النهر والطبيعة المحيطة بأهله.

اقترب من الجميزة... لقد عاشت عمراً طويلاً ترتوى من ماء النيل تمد جذورها إليه... لا تفارقه لحظة... هذا الفندق الجديد نذير لها فلن تتركها بلدية الأقصر شامخة فى مكانها... لا بد أنهم قاطعوها...

كل شيء يضايق هذه الأيام... لا يبقى شيء على حاله، نزل إلى الشط وقد أخذ الفيضان فى الاتحسار، وبدأت مياه النيل تعود خفيفة إلى شكلها الصافى.

نسمات الخريف تعبث بالمياه... صوت فلاح يغنى من بعيد... أمسك محمود بأحد جذور الجميزة البارز من حافة الشط... قال لنفسه لا أظن أحداً يستطيع أن يمتد لجذرك أيتها الجميزة... تذكر أن هذا آخر عام للفيضان فالنيل سيتوقف عن الفيضان... فالسد العالى سينتهى العام القادم ليحكم حركة هذا النهر العظيم، ويحد من حرите التى لم يمسهها بشر منذ آلاف السنين.

تذكر الشيخ نور الدين ولم يحزن... لقد مات فى الوقت المناسب.. ترى ماذا كان يمكن أن يصنع لو رأى الجميزة مقطوعة ورأى النيل بلا فيضان سجين قدرات الإنسان.

جلس على بقعة جافة على حافة النهر تأمل حركتها... رأى النجوم تلمع على صفحة الماء... رفع عينيه إلى السماء... مازال النجم ذو الذنب غائباً... يبدو أنه اختفى إلى الأبد... فلا بد أن النجوم تموت تماماً كما مات الشيخ نور الدين... رأى السماء على حالها نجم ينقص أو نجم يزيد لاشيء يتغير... أحس بالارتعاش... جلس على الأرض... تذكر نبوءة والده عن خضراء الدمن تبدت صورة إلهام منصور غولاً فى ذهنه... وجهاً مشوهاً كريهاً... قزع... خاف... وقف... شعر بالفراغ الأسود يفتححه... أحس بالحاجة لنور الدين يستمد منه القوة... صرخ:

- يا نور الدين... يا نور الدين.

لم يسمع رداً... جاوبه الصدى، فنور الدين مات ولن يعود، وعليه أن يواجه مصيره بمفرده، ألقى بجسده على الشط سمع صوت ربابة يصدر من فرح بالشط الغربى وصوت النادى عثمان الراوى الشعبى يرن فى أذنه بغناؤه عن الهلالية:

يا مشتاق ع النبى صلى
يا قلب صلى على النبى المنتسب
الى سراله جبرائيل فى ليلة رجب
بفن تعتبروا العقول التمام
أمة نبينا الزين عليه السلام
نتكلم عن أبو زيد الهلالي
أبو شاش ع القرن مايل
ركاب ضيق القيد
ربيع اليتامى فى السنين لمحال
أبو البركات وعمه الخضر حداه
شيخ مشايخ العرب أمير الرجال

تحرك مع صوت النادى ومع أبو زيد الهلالي سلامة... سال نفسه أكان
يستطيع أبو زيد الهلالي أن يكون ذلك البطل العظيم لو عاش الآن؟
مستحيل... لن يستطيع... فالساحة هدت... والجميزة ستقطع... والنهر
سيتوقف عن الفيضان.

أخذ يحرك ناظريه فى السماء. يبحث عن النجم ذى الذنب... رآه... وقف
أمعن النظر فيه... إنه مختلف عن صورته الأولى، إنه يبدو صغيراً فى حالة
ميلاد. بعيد عن مجموعته... بينه وبينها مسافة كبيرة لكنه موجود.

نقل ناظريه بين السماء والأرض، بين النجم والجميزة... إنه لا يفهم...
ويفهم.

رمى بجسده ثانية على الشط. عاد صوت الربابة ثانية إلى أذنه، سمع
صوت الشاعر يرتفع:

- صلوا ع النبي... طب وزيدوا النبي صلاه... إحنا كل يوم بنجيب فى
سيرة أبو زيد... وبتقولوا يعنى هيه سيرة... فيه ناس كتير متصوره
إن إحنا بنحكى حاجة ملهاش أصل وأبو زيد مكانشى ليه وجود... لا
أبو زيد كان موجود.. وعاش بينا وكان بطل... ياما فيه أبطال عاشت
وحتعيش فى أرضنا.. ده البر حبال ولاد.



عاد الشاعر إلى ربابته.

تنقلت نظرة محمود إلى النجم... إلى النهر... إلى الجميزة... شعر بأن أبا
زيد الهالكى سلامة لم يموت... ونور الدين لم يموت... ولم يهزم النهر أحد...
والجميزة لن تموت ستبقى جذورها فى النهر قوية لتلد أشجاراً أخرى، ربما ليس
فى هذا المكان ولكن فى مكان آخر.

ضاع الخوف من نفسه، اختفت الوحدة، فلن تؤذيه الغولة خضراء الدمن.
وأخذ يتأمل ماء النيل، أراد أن ينزل الماء، خلع ملابسه، نظر إلى جذر
الجميزة. نزل الماء، شعر برغبة أن يلمس القاع ويمسك الجذور.
وصلوا ع النبي.

صدر من هذه السلسلة:

- ١ انفجار جمجمة «رواية»..... إدريس على
- ٢ البشموري «رواية روايات»..... سلوى بكر
- ٣ ظل عائشة «رواية»..... محمود حنفى
- ٤ ليلة السهرودى الأخيرة «مسرحية / غنوصوغرافيا»..... فريد أبو سعدة
- ٥ أوراق العمر تحترق «المسر - يناير الأول»..... رأفت الدويرى
- ٦ ملك الأمراء / مهزلة مملوكية / المتنبى ..
- فى الطريق إلى بغداد «٣ مسرحيات»..... فكرى النقاش
- ٧ سيرة الشيخ نور الدين «رواية»..... أحمد شمس الدين حجاج

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

رقم الإيداع ٢٧٠١ / ٢٠٠٢

I.S.B.N.

977-305-254-0

مطابع المجلس الأعلى للآثار